الدكتور حسن حامد عطية



الطبعة الثانية
1994

الدكتور حسن حامد عطية



الطبعة الثانية
1994

نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله
تونس

بسم الله الرحمـٰن الرحيم

«أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» .

صدق الله العلي العظيم

لماذا هذا الكتاب

حينما كنت طالبا بمعاهد الدراسة درست علوم الأحياء المختلفة من نبات وحيوان ثم درست بعد ذلك ما يقال عن تطور الأحياء من كائنات بسيطة إلى كائنات أكثر تعقيدا ، من كائنات يتركب جسمها من خلية واحدة إلى كائنات يحتوي جسمها على ملايين الخلايا قيل عنها إنها تنشأ من بعضها البعض وأن الإنسان من الناحية العلمية ما هو إلا حلقة منها . حلقة وإن كانت هي الأخيرة (لحد علمنا إلى الآن) إلا أنها تتصل في سلسلة واحدة مع باقي الحلقات من الأحياء ولا تخرج عنها . ذلك الإنسان ذو العقل المفكر المدبر ذو الحضارة العريقة التي تسير إلى الأمام مسرعة الخطى يقول العلم إنه على علاقة بغيره من أنواع الحيوان وأن أقربهم إليه هي تلك التي نسميها الثدييات التي ترعى أبناءها في صغرها وتغذيها من أثدائها بل وأكثر من ذلك أنه وتلك الحيوانات الأخيرة قد نشأوا من أنواع أخرى من الحيوان سابقة لوجوده ولوجودها .

لطالما ساءلت نفسي هل يستقيم ذلك القول مع ما تعارفنا عليه في خلق الإنسان ؟ هل يستقيم ذلك مع ما نعتقده كمسلمين ومسيحيين ويهود بل وربما مع ما يدين به غير هؤلاء ؟ إن ما نعلمه نحن المسلمين ، ما تعلمناه صغارا وما ينطبع في أذهاننا بل في كياننا جميعه أن الانسان هو سلالة لآدم عليه السلام وزوجه حواء وأن آدم قد خلقه الله سبحانه وتعالى بيديه من طين وأنه هو وحواء كانا يسكنان الجنة فأغواهما الشيطان فعصيا

أمر ربهما فكان عقابهما أن طردا من الجنة وهبطا إلى الأرض حيث العناء والشقاء. هل يتمشّى ذلك الاعتقاد مع منطق التطور بأن الإنسان نشأ من حيوان يسبقه ؟ ! !

إن الرأي بنشأة الكائنات من بعضها البعض لم يكن جديدا بل قد نادى به كثير من الفلاسفة والمفكرين العرب من زمن بعيد منهم الكتبي[1] والفارابي[2] وإخوان الصفا وابن مسكويه[3] وابن خلدون[4] (الإنسان في القرآن ـ عباس محمود العقاد) إلا أن تلك النظرية لم تثر شيئا من الاهتمام إلا عندما فجرت تفجيرا علميا بواسطة بعض العلماء المشتغلين بعلوم الحياة من العالم الغربي كان أشهرهم تشارلز دارون عندما نشر في سنة 1859 كتابه « نشوء الأنواع بالانتخاب الطبيعي » وسميت تلك النظرية بنظرية التطور أو نظرية النشوء والارتقاء.

عندما قال دارون بنظريته كانت صيحة داوية قامت لها قائمة الدنيا بأسرها ناكرة مستنكرة. قام علماء العلوم بالبحث فيها عن كل ثغرة أو نقص وقام علماء الدين ـ كل دين ـ من كل صوب برمي صاحبها بالضلالة والكفر رغم ما عرف عن داروين من الإيمان بالله[5] ومن رعاية دينه وعقيدته حق رعاية ـ لقد نادى داروين بنظريته في عام 1859 ـ واليوم بعد مرور أكثر من قرن من الزمان بزغت براهين جديدة وسطعت أدلة أقنعت الكثيرين حتّى أن علماء اليوم يكادون أن يجمعوا على صحتها ومن لا يزال يتعثر في قبولها هم بعض غير المتخصصين من رجال العلم ولكن من لا يقبلها بتاتا هم رجال الدين إلا النزر اليسير.

(1) توفي سنة 764 م
(2) توفي سنة 950 م
(3) توفي سنة 1030 م
(4) توفي سنة 1406 م
(5) راجع صفحتي 233، 234

من هنا تظهر فجوة عميقة بين ما يقوله المشتغلون بالعلوم وبين ما ينادي به رجال الدين . تلك الفجوة كانت تلح علي إلحاحا بل لا أغالي إذ أقول إنها كانت تقض مضجعي وتؤرق جفوني باعتباري قد حظيت ببعض المعرفة في مجال العلوم ـ إن العلم في أمثلة عديدة سابقة قد انتصر على ما كان يتعارف عليه كافة الناس . إن نور العلم قد بدد كثيرا من الظلمات التي كانت تطمس القلوب والعقول . لذلك أخط هذه الكلمات وأدعوك أيها القارىء أن تتمعن معي في آيات القرآن الكريم التي نزلت في خلق الإنسان ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

لنتدارس معاً هل ما ينادي به رجال العلم اليوم يتعارض مع نصوص ومعاني تلك الآيات في رأينا نحن المسلمين المؤمنين بقدرة الواحد الأحد الفرد الصمد الذي إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون ؟

لقد قرأت ما ينادي به كثير من علماء الدين بأن القرآن الكريم ليس كتاب علوم وأنه يجب علينا أن نبعده عن نظريات تلك العلوم ومن ذلك ما يقوله فضيلة الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت (تفسير القرآن الكريم) :

« هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف . وهي خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافَى مع الإعجاز ولا يسمحه الذوق السليم وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران في مسائل العلوم في كل زمان ومكان والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير فقد يصبح اليوم في نظر العلم ما يصبح غدا من الخرافات . فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفا حرجا في الدفاع عنه » .

وأنا لا أوافق فضيلته على ما يقول بل إنه رحمه الله هو نفسه يناقض هذا القول فيما جاء بعد ذلك مباشرة في العبارة التالية « فلندع للقرآن عظمته وجلاله ولنحفظ عليه قدسيته ومهابته ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو بقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس إيمانا مع إيمانهم » .

فإذا كان القرآن في نظر فضيلته في تلك العبارة الأخيرة يدعو إلى التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس ايمانا مع إيمانهم فكيف يتأملون ويبحثون وينظرون في أسرار الخلق وظواهر الطبيعة بغير أن يضعوا في اعتبارهم الحقائق التي يتوصل إليها العلم سواء كان قديما أو حديثا ، إن العلم الحديث لا يمكن أن يتعارض مع القرآن. فالقرآن من عند الله ولكن يمكن أن يتعارض مع التفسير الذي تفسر به بعض آيات القرآن فهل تلك التفاسير نزلت من عند الله أم هي من قول البشر . أنا لا أقول بأن كل ما يقوله رجال العلم لا بد أن يكون صحيحا ولكن أقول في الوقت نفسه إنه ليس من الضروري أن يكون كل ما ينادي به رجال الدين من تفسير هو الحق المبين . إن كثيرا من تلك التفاسير متوارثة ورثها مفسر عن مفسر فهل يطلب منا أن نأخذها على علاتها وأن نعتبرها قرآنا منزلا ؟ .

يقول فضيلة الشيخ شلتوت في نفس الكتاب « ولسنا نستبعد ـ إذا راجت نظرية دارون مثلا ـ أن يأتي إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول إن نظرية دارون قد قال بها القرآن منذ مئات السنين » . ألا ترون معي أن مثل فضيلته فيما يقول كمثل من يرفض الاستماع إلى أدلة جديدة قد يثبت منها براءة متهم سبق الحكم باعدامه .

أكرر القول بأنه ليس من الضروري أن ما تفسر به بعض الآيات قلت أم كثرت هو تفسير صحيح . وفي ذلك يقول فضيلة المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي (علم التفسير) « وفي زمن التابعين توسع القوم في الأخذ

عن أهل الكتاب فكثرت في عهدهم الروايات الإسرائيلية في التفسير لكثرة ما دخل في الإسلام من أهل الكتاب وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل مما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية . ثم جاء بعد عصر التابعين من شغفوا بالإسرائيليات وأفرطوا في الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردون قولا ولا يحجمون عن أن يلصقوا بالقرآن كل ما يروى لهم وإن كان لا يتصوره عقل بشر ! وقد استمر هذا الشغف بالإسرائيليات والولع برواياتها مهما كان بها من خرافة . حتّى جاء عصر التدوين فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الاسرائيلي الذي كاد يصد عن النظر فيها والركون اليها » ، ويقول فضيلة الشيخ الدكتور الذهبي إن من مصادر التفسير « الرجوع إلى القرآن نفسه » ، « والنقل عن الرسول صلّى الله عليه وسلّم مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فإنه كثير فإن وقع للمفسر تفسير صحيح عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فليس له أن يعدل عنه ويقول برأيه » ومن ذلك أيضا « الأخذ بما صحّ من الصحابة في التفسير ولا يعتد بكل ما ينسب لهم في ذلك لأن في التفسير كثيرا مما وضع على الصحابة كذبا واختلاقا » .

إنني أستميح روح فضيلة الإمام الأكبر محمود شلتوت عذرا بعدم موافقتي على ما يطلبه من أن نهيل التراب على نظرية داروين أو غيرها ــ إذ أن الله سبحانه وتعالَى يأمرنا في كل وقت وحين وإلى أن تقوم الساعة بالتدبر والتفكير :

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت * وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت » (الغاشية 17 ــ 20) .

«كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » (البقـرة 242) .

« أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض ومابينهما

إلا بالحق » (الـــروم 8) .

« أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » (الفرقـان 44) .

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » (الحشـــر 21) .

« وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون » (الأنعام 80) .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (محمـــد 24) .

« وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون » (الذاريات 20 ـ 21) .

« قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » (الأنعام 98) .

بل أن الله سبحانه وتعالَى يأمر العلماء أن ينقلوا علمهم إلى غيرهم :

« ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين » (البلد 8 ـ 9) .

« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمر 9) .

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (العنكبوت 43) .

« ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشَى الله من عباده العلماء » (فاطر 28) .

إننا لا نقول بأن القرآن كتاب علوم ولكن هناك حقائق علمية وردت في القرآن وربما كان المشتغلون بالعلوم المدنية أقدر على تفسير الآيات التي ذكرت بها تلك الحقائق :

« أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » (الأنبياء 30) .

« أو لم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها » (الرعـــد 41) .

« وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم » (الأعراف 172) .

« خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب » (الطارق 6 _ 7) .

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (العنكبوت 20) .

يقول فضيلة الإمام الأكبر محمود شلتوت « وحسبنا أن القرآن لم يصادم _ ولن يصادم _ حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليه العقول » .

وهنا مربط الفرس ، ماذا لو أثبت العلم الحديث أو القديم ما يرى أنه حقيقة علمية وتلك الحقيقة تعارض ما تعارفنا عليه من تفسير آية أو بعض آيات القرآن . هل نقف مكتوفي الأيدي مغلقي العقول لا نقبل مناقشة ما ينادي أو ما قد نادى به المفسرون الأقدمون أو الحاليون لتلك الآيات أم نقول في ذلك إن العلم (إذا ثبت صحة ما ينادى به) لا يتعارض مع القرآن بل يتعارض مع ما تفسر به تلك الآيات أي يعارض آراء بشرية هي عرضة للخطأ والصواب .

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (يوميات الأخبار _ أحمد زين) « وإذا كان الله قد وضع منهجا للحياة التي خلقها كما وضع قوانين للكون أنترك هذا العطاء ونذهب إلى ما يقوله بشر عن هوى أو عن شيء آخر كيف أترك من يعلم وأذهب إلى من لا يعلم وكيف أجادل فيما وضعه الخالق بما وضعه مخلوق » . وأنا أوافق فضيلته تماما على ما يقول إذ أن القرآن الكريم هو حديث الله العليم الخبير.. ولكن كثيرا من المفسرين وهم بشر يعتبرون أنفسهم ألسنة الله في الأرض ولذلك يجادلون هم أنفسهم فيما وضعه الخالق بما وضعه مخلوق .

إن المفسرين أثابهم الله سبحانه على اجتهادهم ولهم منا كل الإجلال والاحترام يقومون بالتفسير وخاصة فيما يمس العلوم المدنية بالمعرفة المتاحة في وقت إصدار فتاواهم فهل إذا أماط العلم اللثام عن بعض الحقائق التي كانت خافية في الماضي مما يتيح لنا رؤية جديدة نصم أذاننا ونقول هذا ما

نادى به آباؤنا الأولون ؟

« بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مهتدون » (الزخرف 22) .

« وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون » (البقرة 170) .

« قال أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنّا بما أرسلتم به كافرون » (الزخرف 24) .

وفي حديث آخر لفضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (يوميات الأخبار ـ أحمد زين) « ويقول الله سبحانه وتعالى والسماء ذات الرجع والرجع هو المطر والله سبحانه وتعالى يذكر هنا حقيقة علمية هامة لم يكشفها الله لعباده إلا بعد نزول القرآن بمئات السنين. فقد عرفنا فيما كشفه الله لنا من علم بشري أن مياه البحر تتبخر ثم بعد ذلك تصعد إلى السماء فتصبح سحابا ثم تعود إلى الأرض مرة أخرى على شكل مطر أي أنّ السماء ترجع الماء إلى الأرض مرة أخرى وكمية الماء في الأرض لا تنقص ولا تزيد وإنما هي عملية تأخذ دورتها كاملة من البخر من البحار والمحيطات إلى السحاب ثم عودة إلى الارض مرة أخرى تتم الدورة وهكذا أي أن الماء يترك الأرض ثم يعود إليها مرة أخرى . وانظر إلى دقة الأداء القرآني « والسماء ذات الرجع » أي السماء ذات المطر هكذا تفهم لمن لا يعلم شيئا عن عملية البخر التي تتم ولا يوجد فيها تصادم مع عقل بشري يجهل حقيقة علمية فإذا عرفنا الحقيقة العلمية تكون الآية أدق في المعنى وأشمل .... فلماذا يأتي الإنسان وحده ولا يعود إذا كانت هذه هي قوانين الله في الأرض وإذا كان كل ما يحتفظ به الإنسان من أشياء مادية يفنى ويتحلل ويعود إلى أصله .... إذن فالحياة كلها يحكمها قانون واحد .... » .

ويهمني في حديث فضيلته ثلاثة أمور ، أولها أننا إذا عرفنا حقيقة علمية تتصل بآية من الآيات تكون تلك الآية أدق في المعنَى وأشمل ، وثانيها أن قوانين الله في الأرض تسرى على الإنسان ، وثالثها أن الحياة كلها يحكمها قانون واحد . وأنا كأحد المشتغلين بالعلوم أوافق فضيلته تماما على ما يقول .

إن حكمة القرآن وإعجازه أنه كتاب كل العصور منذ بدء الخلق إلى أن تقوم الساعة وهو ثابت ولكننا متغيرون وليس من العيب في شيء أن يتضح لنا أننا لم نكن على جادة الصواب في رأي من الآراء ولكن العيب كل العيب اذا تمسكنا برأي معين إذا تبين لنا خطؤه .

يقول فضيلة الشيخ محمود شلتوت « فتح الله باب الاجتهاد للعقل البشري ليسلكه الإنسان ويحقق نعمة الله عليه في الإدراك والفهم والكل في ذلك مؤمن ناج مرضي عند الله أخطأ أم أصاب وما كان الله ليرضى عن الطعن والتجريح لرأي رآه الناظر في موضوع وضعه الله موضع النظر والاجتهاد » . لذلك بدأت في كتابة هذا الكتاب محاولا البحث هل تتعارض نظرية تطور المخلوقات بما فيها الإنسان التي ينادي بها العلماء اليوم مع ما جاء بكتاب الله المجيد .

ولقد خلصت بأنه لا تعارض بينهما .

لا أكتمك أيها القارئ العزيز أنني كنت قاربت نهاية مسودة هذا الكتاب عندما صدر كتاب فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (معجزة القرآن) فقرأت فيه « وإذا انتقلنا إلى التحديات في العصر الحديث ... نجد أن الله سبحانه وتعالَى قد قال : « ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » أي أنه سيأتي أناس يضلون عن سبيل الله . أي يحاولون إضلال غيرهم . وأنا لم أشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق إنسان ولم أتخذهم سندا لي . فلو أنه لم يأت

من يجادل في خلق السماوات والأرض ولا خلق إنسان ويقول إن الإنسان أصله قرد إلى آخر النظريات التي نسمعها عن خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان لقلنا أين هؤلاء الذين أنبأ عنهم القرآن . ولكنهم كونهم أتوا وكونهم يحاولون الإضلال عن سبيل الله بنفي القدرة الإلهية في الخلق فقد جاؤوا مثبتين للايمان وسيأتون على مر السنين والقرون . فعطاء القرآن مستمر حتى يوم القيامة سيأتي من الكفار وغير المؤمنين من يكشف لهم الله آيات من آياته ... » .

عندئذ ترددت لحظة أو لحظات في أن أكمل الكتاب لا عن عدم اقتناع بما أقول بل خوفا ورهبة ليس من الله سبحانه فحسب فأنا أخافه وأرهبه على الدوام وأنا أعلم أن ما أقول لا ينفي القدرة الإلهية في الخلق ولكن خوفا ورهبة من زملائي البشر . ألم يصدر فضيلة الشيخ الشعراوي ذلك العالم الجليل الذي له مكانته بين القلوب والعقول حكما مسبقا عليّ (أو على غيري) إذا تحدثت في خلق الإنسان بغير ما يقولون بالضلال وبمحاولتي لإضلال غيري وبأنني من الكفار أو على الأقل من غير المؤمنين .

لقد نصحني كثير من الأصدقاء بعدم التعرض لموضوع هذا الكتاب فقال بعضهم إنك تقدم عنقك إلى جلاديك وقال آخرون إنك تدفع برأسك إلى فم الأسد ـ ولكنني رجعت إلى قول عبد الكريم الخطيب (قصتا آدم ويوسف عليهما السلام . دار الفكر العربي ، ص :29) . فالذين قرأوا في كتب التفسير أن آدم نشأ في الملأ الأعلى وأن طينته غرست في جنة عدن أو جنة الخلد أو غيرهما من الجنان ، على اختلاف آراء المفسرين في هذا . هؤلاء الذين قرأوا هذه المقولات في نشأة آدم يرون أن كل قول يخالف هذا هو خروج على الدين بل هو خروج من الدين ! ! ! . في حين أن هذا الأمر كله ليس فيه شيء من الدين ولهذا أباح المفسرون لأنفسهم أن يترخصوا في الحديث عنه وألا يلتزموا فيه حدا فكان لكل

منهم مقولاته التي رآها أو سمعها أو توهمها لأنه من الأمور التي لا ترجع إلى الأحكام فيتحرى فيه الصحة التي يجب العمل بها كما يقول ابن خلدون ! .

على أن مقولات دارون التي أنكرها علماء الدين واضطربوا من أجلها ، وهاجوا وماجوا إنما تقوم على علم وتجربة ، وقد يكون فيها كثير أو قليل من الخطأ في الاستنتاج ، ولكن الذي ينبغي أن يكون عليه موقف العقل إزاءها هو الاحترام لها ... وما دامت ترجع إلى التجربة وتحتكم إلى منطق العقل فإن كل عقل مدعو إلى الوقوف عندها والنظر فيها ، وأخذ ما يطمئن إليه منها ... أما صد العقل عنها وفراره من بين يديها فذلك إزراء بالعقل ، وامتهان له ، وتعطيل لوظيفته التي خلق لها ، وخروج على دعوة القرآن التي دعا إليها » .

وفي (ص : 30) « وإذا كان لأحد أن يقف من دارون موقف الهلع والخوف على معتقده الديني ، فليس هو المسلم الذي يعترف دينه بالعقل ، وبحقه في البحث والنظر ، وفي احترام مؤدى البحث والنظر الذي لا يقوم على هوى ، ولا يستند إلى سلطان غير سلطان الحجة والبرهان » .

كما جاء في نفس الكتاب (ص : 28) « وهذا الفهم الذي فهمه إقبال (يتكلم عن الفيلسوف المسلم محمد إقبال) لآيات القرآن الكريم في خلق آدم هو ــ كما ترى ــ أقرب فهم إلى منطوق كلمات القرآن ودلالاتها اللغوية كما أن هذا الفهم الذي يقف بآيات الكتاب الكريم عند هذه الحدود يحمي ينابيع القرآن الصافية من هذا الغثاء الذي يلقي به في ساحتها من تلقيات الأوهام والخرافات التي تتناقلها أجيال الناس وتلونها بألوان وأصباغ تكاد تغطي سماء آيات الكتاب الكريم وتحجب أضواءها . وبهذا يظل الطريق مفتوحا بين آيات الكتاب الكريم وبين أنظار الناظرين فيها والمتلقين عنها كلما جد للناس فهم في الحياة وكلما انكشف لهم سر من أسرارها .. حيث يمكن عرض كل جديد على القرآن في حدود منطوق

كلماته ومفهومها فيقبل منه ما يقبل ويرفض ما يرفض دون أن يكون عليه من ذلك شيء بل يظل في عليائه مشرقا مشرقا تأخذ العين من ضوئه على قدر استعدادها وقوتها.

عرضت هذا القول على الأصدقاء فقالوا لا زلنا عند موقفنا ننصحك بعدم التعرض لخلق الإنسان ومعارضة ما يقوله المفسرون السابقون في ذلك وإلا تعرضت لتهمة الكفر والإلحاد.

عندئذ راجعت ما قاله فضيلة الشيخ الشعراوي فلم يتتبني هذه المرة خوف بل فزع وهلع لقد أصدر فضيلته أمره الدنيوي إلى زبانية الآخرة بأن يحملوني وأمثالي من المتأملين في خلق الإنسان إلى جهنم وبئس المصير لكي يثبت بي وبمصيري إيمان المؤمنين. ألا يستشهد فضيلته بقول المولى سبحانه « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » فيفسر فضيلته (مخالفا لغيره من المفسرين)[1] المضلين بأنهم أنا وأمثالي من الباحثين في خلق الإنسان. وإذا كان الله سبحانه قد قال:

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » إلا أن فضيلته يقول من بحث في بدء الخلق سواء خلق الإنسان أو غيره من المخلوقات وقال بغير ما نقول فهو من الضالين المضلين.

عندئذ آثرت أن أستجيب إلى ما يقوله سبحانه من الحض على أن نبحث كيف بدأ الخلق وأن أنقل إليك أيها القارىء ما يقوله الباحثون في هذا المجال من المشتغلين بالعلوم غير أنني أشعر باضطراري أن أناقش معك بعضا مما جاء بنهاية الكتاب في مقدمته أي أنني سأبدأ من النهاية.

---

(١) انظر ص: 235.226

يقول الله سبحانه وتعالَى « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » فيقول المفسرون نفس واحدة هي آدم ، خلق منها زوجها خلق حواء من ضلع آدم، فأقول نفس واحدة . جنس واحد ونوع واحد ، خلق منها زوجها خلق أزواجكم من نفس جنسكم ونوعكم وبالتالي خلق حواء من جنس آدم ونوعه .

سيقول المفسرون لقد كفرت بكتاب الله وبكلام الله ، فأقول بل لم أوافق على مقولتكم وتفسيركم . إن الله سبحانه يقول « خلقكم من نفس واحدة » ولم يقل خلقكم من نفس واحدة هي آدم وقال « خلق منها زوجها » ولم يقل خلق من آدم زوجه حواء ـ بل أن القضية ستتطور إلى أبعد من هذا سيقولون خلق آدم بغير أب وبغير أم وخلق حواء من أب بغير أم وقد تمّ ذلك بطلاقة قدرة الله عزّ وجلّ.

فأقول أنا كلا لم يحدث . هنا سأتهم بالكفر بالله وبالاعتراض على قدرة الله . ألم أعترض (في تصورهم) على أن الله قادر على أن يخلق بغير ذكر وأنثَى وقادر على أن يخلق من ذكر بغير أنثَى ؟ ! ! .

فأقول إن قدرة الله ليست موضوع جدل ولكني أعترض على ما تقولون إن قولكم كما أفهم لا يستند إلى معنَى الآية الكريمة بل أيضا لا يستند إلى أساس من العلم وهنا ستكون الطامة الكبرى . إذ سيقول المفسرون خلق آدم وحواء بمعجزة لا تخضع للعلم . فأقول، الله سبحانه خلق الكون كله بأسس علمية وضعها جلّ شأنه هو بنفسه وفي هذا يقول « إن ربي على صراط مستقيم » فيقول المفسرون القرآن ليس كتاب علوم والعلوم عرضة للتغيير والتبديل ويجب أن نبعد القرآن عن ذلك فأقول إذا كانت العلوم عرضة للتغيير والتبديل فمعنَى ذلك أن آراءنا هي ما يجب أن نعتبرها عرضة للتغيير والتبديل وليس القرآن. إن الله سبحانه يقول «خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » وسنظل نحن نقول هذا القول وسنردده إلى أبد

الآبدين . فيقول المفسرون يجب أن نحافظ على قدسية القرآن العظيم . فأقول بل يجب ألا تمتد قدسية القرآن العظيم لتشمل قدسية تفسير القرآن . إن القرآن الكريم به آيات كثيرة تمس حقائق علمية .. ولا شك أنه من واجبنا أن نعيد النظر في تفسير تلك الآيات على ضوء تقدمنا في المعرفة العلمية .

ولسوف يقول المعترضون .. قد يختلف المشتغلون بالعلوم في الرأي فيما بينهم أو حديثهم عن قديمهم فنقول وما العيب في ذلك ألا يختلف رجال الدين أنفسهم فيما بينهم في تفسير الكثير من الآيات . بل أنهم يختلفون فعلا في تفسير قوله سبحانه « وخلق منها زوجها »[1] .. فهل في اختلافهم أو في تقلبهم في الرأي تعريض بالقرآن الكريم لتحمل الخطأ في بعض الآراء أو وضع لأنفسنا في موقف حرج في الدفاع عنه كما يقول فضيلة الشيخ شلتوت عن الخلاف في رأي علمي ..

ورحم الله حافظ إبراهيم حين يقول :

أمن العدل أنهم يردون الماء ... صفوا وأن يكدر وردي

من هذا المنطلق .. أخط هذه الكلمات وأعرضها عليك أيها القارىء سواء كنت عالما دينيا أو من المشتغلين بالعلوم أو ذا ثقافة وإدراك.. أرجو مناقشتها بعقل متفتح وأعصاب هادئة.

وأحب أن أؤكد أن هذا الكتاب لا يبحث في أي حكم من أحكام

---

(1)في ذلك يقول فضيلة الإمام محمد عبده (تفسير المنار المجلد 4 ص 270 و 271) « قالوا إنه خلقها من ضلعه الأيسر وهو نائم ، وذلك ما صرح به في الفصل الثاني من سفر التكوين وورد في بعض الأحاديث. ولولا ذلك لم يخطر على بال قارىء القرآن... ومن ثبت عنده أن حواء خلقت من ضلع آدم فهو غير ملجأ إلى إلصاق ذلك بالآية وجعله تفسيرا لها وإخراجها عن أسلوب مثلها من الآيات».

الدين ـ فلا أدعي أنني أحد رجاله ـ ولكنه يتناول قضية في العلم ـ ولا شك أنني أحد تلاميذه ـ قضية في العلم ورد ذكرها في كتاب الله الكريم ولذا كان لزاما عليّ للوصول إلى صحة حقائقها أن أستند إلى ما جاء من قول العليم الخبير في قرآننا المجيد .

إنه كتاب لا يبحث في علمية القرآن ولكنه فيما أرى يثبت قرآنية العلم . كتاب يؤكد أنه لا انفصام بين العلم والدين فكلاهما من لدن واحد أحد :

« ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله إن الله عزيز حكيم » .

وأسأل المولَى جلّ وعلا أن يغفر لي إن كنت جانبت الصواب وأن يزيدني قدرة على شكره بنعمته علـيّ بما أوحى إليّ إن لم أكن مخطئا فيما أقول ..

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »

بســـم الله الرحمـــان الرحيـــم

الجهـــل لا يـــلـــد الحيـــاة مواتـــه
إلا كما يـــلـــد الـــرمـــام الـــدودا
لم يخل من صور الحيـــــاة وإنما
أخـــطـــاه عـــنصرهـــا فمات ولـــيـــدا

تقديـــم لبحـــث عظـــيم

بسم الله الرحمـٰن الرحيم ، الحمد لله ربّ العالمين ، الرحمـٰن الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، إمام المرسلين ، وخاتم النبيين ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين إلى يوم الدين .. وبعد :

فهذا بحث جليل ، يضاف إلى المكتبة الإسلامية ، ويثْري البحوث العظيمة ، الجادة ، التي أيقظ بها علماؤنا الأولون عقول العالم في المشارق والمغارب ، وأخرجوا الأمم والشعوب من ظلمات القرون الوسطَى ، وكانوا أساتذة للعلماء ، والفلاسفة ، والحكماء ، في الطب ، والهندسة والكيمياء ، والفلك ، والرياضة ، والاجتماع ، والسياسة ..

ومن علمائنا هؤلاء ، كابن سينا ،وابـــن رشـــد، والفارابي ، وجابر بن حيان ، والغزالي ، وابن خلدون ، وغيرهم ، وغيرهم ، كانت

النهضة العلمية التي قامت عليها حضارة أوروبا وأمريكا ، حيث تحررت العقول في هذه المواطن ، من سلطان رجال الدين ، الذين أعطو لأنفسهم ما أطلقوا عليه ، صكوك الغفران ، وصكوك الحرمان ، فيجرمون من شاؤوا ، ويغفرون لمن شاؤوا، وليس لأحد مهما كان شأنه ، وكان سلطانه ، أن يراجعهم في حكمهم عليه ، فإذا وجهوا إلى امبراطور ، أو ملك ، صكا من صكوك الحرمان ، وجب عليه الاستسلام ، واعتزال الحياة ، وسوقه إلى عذاب الدنيا ، قبل عذاب الآخرة الذي توعدوه به .

ومن هنا كانت تلك الأحكام المهلكة التي أصدرها رجال الكنيسة على كل عالم ظهر بينهم يقول ما لم يقل به رجال الدين من قبل ، وكان من هذا أن كفروا الكثير من هؤلاء العلماء ، وفرضوا عليهم أشدّ العقوبات ، سواء منهم من قال بكروية الأرض ، أو دورانها ، أو تحدث عن مسار الكواكب والنجوم ، أو بتطور المخلوقات ، والنشوء والارتقاء .

وكان من الطبيعي أن يخرج العلم من هذا السجن المضروب عليه ، وأن يواجه العلماء هذا التحدي لمعطيات العلم ، وسرعان ما انتصر العلم ، وتحرر العلماء ، وانطلقوا يذيعون في الناس كل ما توصلوا إليه من كل جديد من معطيات بحوثهم وثمرات عقولهم ! !

ثم كان لا بد مما ليس منه بد . حيث تأخذ الحياة مسيرتها ، والتحول من حال إلى حال ، كما يقول تعالى « وتلك الأيام نداولها بين الناس » (آل عمران 14 :)

وما أشبه الليلة بالبارحة

وقد كان هذا ما وقع للمسلمين ، حيث انعزل الدين عن الدولة ، فكان لرجال الدين كلمتهم ، وكان لرجال العلم كلمتهم ، وكان على من

يتزيا بزي الدين أن يبتعد عن دائرة العلم ، كما كان على من يطلب العلم أن يعتزل دائرة الدين ..

ومن هنا لم يعد علماء الدين إلا كطائر يطير بجناح واحد، فلا يكاد يرتفع عن الأرض ، كما كان طلاب العلم إلا على هذا المستوى ، أو دونه .

وإنه لا تكتمل نظرة رجال الدين إلا إذا امتدت إلى دائرة العلوم والمعارف ، التي يستمد منها العقل زادا يعينه على فهم مقاصد الدين وكشف خصائصه ، كما أن رجل العلم ، لا يجد الطريق ممهدا إلى مكنونات العلم إلا من واقع حقائق الدين ، فإذا جافى الدين واعتزله ، ضل وغوى ..

وقد عاش المسلمون على هذه العزلة بين الدين والعلم قرونا ، كان من آثارها هذا الواقع الأليم الذي هم فيه اليوم من تخلف في ماديات الحياة ومعنوياتها ، وإذا هم أشبه بالأيتام على مائدة اللئام ، يلتقطون ما يتساقط من مخلفات تلك الموائد ، مما لا يستر حاجة لبطن أو عقل ، وواقع الحال أبلغ من كل مقال ، حتى لقد وقع المسلمون فريسة لكل طامع ، وصيدا لكل عدو .. بل لقد تحول المسلمون فيما بينهم إلى أعداء ، يقاتل بعضهم بعضا ، ويكيد بعضهم لبعض ، وخرجوا على قول الله تعالى لهم : « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » (الأنفال 27) كما أنهم نسوا قوله سبحانه لهم : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » (الأعراف 139 :) ..

إنه في ظل هذا الشعور المريض ، تفرق المسلمون ، وتمزقت وحدتهم ، وضعف شأنهم ، ولم يعد رجال الدين أهلا لإداء رسالتهم على الوجه الذي يطلبه الدين ، كما لم يصبح رجال العلم أن يحكموا علمهم بمعطيات الدين ، وكان لا بد من التقاء الدين بالعلم ، والمؤاخاه بين العلم والدين ، كالمؤاخاه بين الروح والجسد ، وبين الطعام والشراب .

وقد بدأت تظهر في عصرنا هذا بوادر كثيرة لهذا التلاقي بين الدين والعلم ، حيث أخذ رجال الدين بحظ وافر من العلم في أوسع دوائره ، ومختلف مجالاته ، كما أخذ رجال العلم يدخلون في دائرة الدين .

ونذكر في هذا المقام السيد جمال الدين الأفغاني ، الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وما كان لهما من أثر عظيم ، في إيقاظ الوعي الإسلامي ، والوطني ، والعقلي ، وفتح أبواب العلم والمعرفة لكل طلاب العلم والمعرفة ، وكان من هذا ما كان من مواجهة المسلمين لجيوش الاحتلال التي استولت على أوطانهم ، وتحكمت في كل أمورهم ..

وكان من هذا أن تحررت عقولهم ، بعد أن تحررت أوطانهم ، وظهر أثر هذا في تلك الصحوة العلمية ، التي دخل بها علماؤنا في كل مجال من مجالات الحياة المادية والمعنوية ، وكان للدين حظه الموفور من هذا العطاء الكريم العظيم .

فتح جديد

والكتاب الذي بين يدي ، والذي سعدت بقراءته ، كما سعدت بأن أقدمه للمكتبة الإسلامية ، والذي جعل مؤلفه عنوانه : « **خلق الإنسان بين العلم والقرآن** » .

ومؤلف هذا الكتاب هو الدكتور الأستاذ ، العالم الفقيه (حسن حامد عطية) الذي يعد موسوعة علمية ، ومدرسة جامعة في الدين ، والعلم ، حيث أطل على الدين من آفاق العلم ، وشهد آيات الخالق سبحانه فيما حملت آيات القرآن الكريم بين دلائل القدرة ، والحكمة ، في كل ما خلق وأبدع ، فازداد إيمانا بخالقه ، وشهودا لمحكم خلقه وإبداعه .

وليس هذا شأن هذا العالم الموسوعي وحده ، بل هو شأن كل من نظر

في هذا الوجود نظرة واعية متدبرة ، ولو في لحظة من لحظات يقظته ووعيه .. حتّى أولئك الذين لبسوا أثواب الهزل ، فإنهم إذا خلعوا هذه الثياب ولو للحظة واعية ، شهدوا جلال الحق ، ورأوا ما يراه أهل العلم ، من قدرة الخالق ، وكمال علمه وجلال حكمته ، حتّى أن أبا نواس ، وهو من هو في مجونه وخلاعته ، تعترضه حالة من أحوال الصحو ، فإذا هو يقول في دهش وعجب ، يرى جلال الخالق وكمال قدرته ، وحكمته ، ثم ينطلق قائلا :

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

ومؤلف هذا الكتاب ، الأستاذ الدكتور حسن حامد عطية ، وهو من هو في وثاقة ايمانه ، وسعة علمه ، ومعرفته ، ينظر في آيات القرآن الكريم ، بقلب سليم ، وعقل واع ، وشعور متدفق بالإيمان ، فيشهد في آيات الله ، ما يوثق إيمانه ، ويمده بإمداد الإيمان الوثيق بربه ..

وقد كانت نظرة المؤلف قائمة على خلق الإنسان من مبدئه ، وكيف تطور في هذا الخلق ، وكيف اتصل هذا الخلق بعوالم المخلوقات كلها ، من جماد ، ثم من نبات وحيوان ، إلى إنسان .

وفي هذا التطور دليل شاهد على قدرة الخالق ، في هذا الترقي بالإنسان ، من جماد إلى نبات إلى حيوان ، إلى أن كان بشرا سويا ، فكما تطورت النطفة في رحم الأم من نطفة إلى علقة ، ثم إلى مضغة ، ثم إلى عظام ثم إلى لحم يكسو العظام ، ثم نفخة من روح الخالق في هذا اللحم ، فكان ذلك الإنسان ، كذلك جاءت هذه النطفة متطورة من عالم الجماد إلى عالم النبات إلى عالم الإنسان ، والله تعالى يقول : «أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (67 : مريـــم) ، ويقول جل شأنه : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » (17 : نـــوح) ويقول تبارك اسمه : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا

مذكورا » (1 :الانسان) .

هذا ، وقد ينكر بعض رجال الدين ، الذين عزلوا الدين عن العلم ، وأوقعوا العداوة بين الدين والعلم .. قد يعجبون من هذا المنْهج الذي جمع فيه المؤلف بين الدين والعلم ، واتخذ من العلم وسيلة لفهم الدين ، وما حمل القرآن الكريم من آيات بينات على قدرة الخالق ، وحكمة إبداعه فيما خلق ..

وهذا يذكرنا بما أشرنا إليه من قبل ، من موقف رجال الكنيسة في القرون الماضية حول مقولات رجال العلم ، في كل مقولة يقولها العلماء خارج دائرة الكنيسة ، وكيف أن هذا أوقف حركة الحياة هناك ، فلم تتحرك حتّى كانت ثورة تخلص فيها العلماء من سلطان الكنيسة ، وتحللوا من قيودها .

والإسلام دين يدعو إلى العلم في أوسع دوائره ، ويرفع أهله درجات عند الله ، كما يقول تعالَى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط » (18 : آل عمران) ويقول سبحانه : « إنما يخشَى الله من عباده العلماء » (28 : فاطر) ويقول جلّ جلاله : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (11 : المجادلة) ويقول جلّ شأنه : « وفوق كل ذي علم عليم » (76 : يوسف) ويقول : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، إنما يتذكر أولوا الألباب » (9 : الزمر) .. وهذا إلى كثير من آيات القرآن الكريم ، التي تدعـــو إلى العلم ، وإلى النظر من خلاله إلى هذا الموجد وللوصـــول إلى معرفة الله تعالَى ، وإخلاص العبودية له ..

ثم إنه لا حجر على رجال الدين ، بحكم شهاداتهم ، أو أزيائهم ، أن ينظروا فيما يكون لأهل العلم من مقولات في مجال العلم أو الدين ، ثم ليس لهم مع هذا أن يصدروا أحكاما عامة بإبطال مقولات هؤلاء

العلماء ، أو أن يرموهم بالكفر والإلحاد ، بل أن عليهم أن يقابلوا الحجة بالحجة وأن يبطلوا الحجة بالحجة ، وإلا وقعوا موقع البغي والعدوان ، والله تعالَى يقول : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ، لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون » (النـــحل ـ 116) ورسول الله صلّى الله عليه وسلم يقول « من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ له أجر »أي من أصاب الحق في اجتهاده ، فله أجران ، أجر لاجتهاده ، وأجر للحق الذي وصل إليه وأما من اجتهد فأخطأ فله أجر على اجتهاده ولا مؤاخذة عليه في خطئه .

فرفقًا يا رجال الدين ، ولا تتخذوا من مكانكم بين المسلمين أيديا باطشة تضرب في وجه كل ذي علم ، وتمسك بكل ذي قلم ، وإلا هجر المسلمون العلم ، وزهدوا فيه ، حتّى تقوم للجهل دولة ، وذلك هو البلاء العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فرحبا بك ، وبكتابك أيها العالم الكبير ، والمجاهد الكريم ، وجزاك الله عن الإسلام والمسلمين بما يجزي به العاملين المخلصين ،،،

3 من جمادي الأولَى 1405

14 ينايـــــر1985

عبد الكريـم الخطيـب

القاهرة ـ مدينة نصر ـ 4 شارع أحمد قنديل

أنــــا ...... مــن أنــــا ؟ ؟

أنا جسد من تراب .. من طين
أنا روح من أمــــر ربّـــي
أنا نفس مطمئنة .. لوامة .. أمارة بالسوء
أنا جسد من تراب يحمل في طياته كل ذرة .. كل عنصر من عناصر ذلك التّراب قد خلط بالماء ورغم ذلك فأنا صلب كالصلصـــال صلد كالصخر بل أنا لين كالماء العذب أو الماء الأجاج ، هادر كالموج صاخب كالبحر . أنا رقيق كالنسيم وعنيف كزوبعة،ممطر كالسحاب مضيء كالقمر، بل أسود مظلم كالليل ... أنا قطعة من الطبيعة .
أنا أتحرك حركة بطيئة كالنبات ، أتنفس كما يتنفس .
أنا أخضر العود،بل أنا يابس كالحطب . أتمايل كغصن البان،بل أتضخم كشجرة الجميز
أنا زهرة يانعة،بل جارح كالشوك . لي جـذور في الأرض وهامة ترتفع في السماء،بل طفيلي كهالوك متسلق كلبلاب .
أنا جرثومة .. أنا حشرة لزجة كالقمل مصرة كالذباب متكاثرة كالجراد .
أنا سمكة تعوم وتغوص في الماء . . بل أنا تمساح يخرج من الماء ليستلقي على الشاطيء.
أنا ثعبان ينفث السم ... أنا حرباء متغيرة اللون .

أنا طائر مغرد .. عصفور من الشرق أو من الغرب ... بل أنا نسر يحلق في الآفاق .

أنا حمامة وديعة، بل طاووس مختال ... أنا منفوش كالديك .. بل أنا نعامة أضع رأسي في الرمال .

أنا حيوان يمشي على قدمين .. رعديد كأرنب .. بل شجاع كأسد هصور .

أنا بطيء كسلحفاة، بل سريع كالفهد غبي كالحمـــار ماكر كالثعلب .

أنا صبور كالجَمل وديع كالحمل لا أنسَى إساءة كالفيل .

أنا أزرق العينين .. بل أسودهما .. بل أخضرهما

أنا أسود البشرة، بل أبيضها . ناعم الشعر أصفره بل هو مجعد أسود .

أنا أفطس الأنف، بل مسحوبها، بل لي أرنبة أنثَى تجثم أعلاها .

أنا رقيق الشفتين .. بل غليظها .. عملاق بل قزم نحيل .

أنا جنين في رحم الغيب .. بل طفل يحبو على أربع .... بل أنا شاب يزهو .... كهل آشيب، بل عجوز يشتري كفنه وفي انتظار مثواه .

أنا من عاش في الكهف وصاد الوحوش ورعا الإبل والغنم .

أنا من زرع الأرض وأنبت من كل الثمرات .

أنا من بنَى القصور وناطحات السحاب وخطط المدن وعاش في جو لطيف مريح رغم زمهرير البرد ولفحة الريح وقيظ الصحراء .

أنا من أتكلم في القاهرة فأسمع صوتي، بل وأرى صورتي في واشنطن وطوكيو والسنغال وكفر الزنكلون .

أنا من شقّ البحر وجاوز السحاب وسبح في الفضاء ووضع قدمنيه على القمر .

أنا عقل يتعقل .. يفكر .. يتذكر .. ويتدبر .

أنا من آمن وكفر ، من عدل وظلم ، من صدق وكذب .
أنا من ضحك وبكَى ، من أحب وكره ... من نطق ومن طال به السكوت .
أنا الطاغية القوي الجبار المتغطرس المنتقم الجاحد الذي كفر بالرسل والأنبياء بل الذي قاتل وقتل الأنبياء ... بل أنا الضعيف الذليل المستضعف النادم التائب المؤمن القانت الذي حارب بضعفه الكفار وحارب الأعداء وحارب الظلم والطغيان وسجد خاشعا للرحمان .
أنا ... في قلبي مرض .. بل أن قلبي مطمئن نزلت به السكينة أقابل ربّي بقلب سليم .
أنا نفس مطمئنة مؤمنة بربها وخالقها لوامة على كل ما بدر منها ... بل أنا نفس أمارة بالسوء نزاعة للظلم والعدوان .
أنا ؟ ؟ ؟ ؟ ؟
هل أنا كل هؤلاء ؟ نعم بل وأكثر من هؤلاء .
أنا ابن الطبيعة ، قطعة لا تتجزأ منها ، تجري في عروقي بذور كل مخلوقاتها منذ آلاف بل ملايين السنين، منذ بدأت الحياة على هذا الكوكب الدائر الطائع المسبّح ...
أنا قبضـــة من جميع الأرض[1]
أنا نفحة من روح العلي القدير
أنا خليفة الله في الأرض .

(1) «ان الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض» حديث شريف.

أنا ؟ ! أنا تراب ... أنا طين لازب .... أنا صلصال من حمأ مسنون

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون» (الروم : 20)

فاستفتهم أهم أشد خلقا أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب » (الصافات : 11)

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون » (الحجـــر : 26)

« خلق الإنسان من صلصال كالفخار » (الرحمان : 14)

صدق الله العظيم

إذا فأنا خلقت من تراب أو من طين أو من طين لازب . إنني من تراب لأن جسمي يحتوي على المواد التي تحتوي عليها كل ذرة من ذرات التراب وكما أن جسمي يحتوي على نسبة عالية من الماء فأنا خلقت من طين .

ولكن ما هو يا ترى ذلك الطين اللازب ؟ ؟ ؟

اللازب لغة هو اللازق المتماسك الذي لا هو سائل ولا صلب (معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . محمد اسماعيل ابراهيم)

طين لازب يعني لازق والفعل لزب (مختار الصحاح)

أنا طين لازب ... ولكن هل أنا حي أم أنا جماد ميت ـ إنني أحس

بأنفاسي وأحس بقلبي يخفق بين ضلوعي بل أحس بمسؤولية كبيرة وأنا أخط هذه السطور . إذن فأنا حي ... فهل هذا الطين اللازب هو مادة حية هل هو أساس الحياة[1] . فما هو يا ترى مدى ما ينطبق على هذا الطين من الناحية العلمية .

ربما كان هذا الطين اللازب هو الأساس لما سماه أحد العلماء المادة الأولية للحياة أي البروتوبلازم ، يؤيد ذلك ما وصفت به تلك المادة الأولية من أنها مادة غروية جيلاتينية أي أنها مادة لزجة .. تلك المادة التي أمكن معرفتها من الناحية الشكلية ومعرفة جميع مكوناتها من الناحية الكيماوية ولكن .. ما هو السر الذي يكسبها الحياة ؟ ؟ ..... هنا يقف العلم حائرا فاغرا فاه ويطأطيء العلماء رؤوسهم صاغرين أمام قدرة القدير العليم الخالق الخلاق .

أنا حمأ مسنون .

الحمأ هو الطين الأسود .. المسنون هو المتغير (تفسير الإمامين الجلالين)

الحمأ المسنون . الطين المصور أو هو الطين المنتن الرائحة المتغير (المعجم محمد اسماعيل ابراهيم)

الحمأ طين تغير واسْودَّ من مجاورته للماء ويقال للواحدة حمأة ، مسنون أي مصور وقيل المسنون المنتن (محمود شلبي . حياة آدم) .

الحمأ المسنون هو الطين بعد أن يتخمر ويتعفن (الطبري)

إذا مزجنا تلك المعاني عن الحمأ المسنون نخرج بأن له وحدة هي الحمأة وهي من الطين الأسود وأنها متغيرة أي يمكن أن يختلف الحمأ بعضه عن بعض وأنه مصور أي أن له صورة محددة وهذا يعني أن الحمأ المتشابه التركيب له شكل محدد أو شكل ثابت وأن الحمأ غير المتشابه في صورته أو

---

(1) في سنة 1978 صاغ أحد العلماء الأمريكيين اللفظ Protobiont ليمثل مرحلة في بدء الخلق بين المادة الميتة وبين بداية الحياة ، وربما كان ذلك هو الطين اللازب .

في شكله يتكون من أساس واحد أو من خامة واحدة هي الطين الأسود .

وإذا ترجمنا هذا إلى اللغة التي يتحدث بها أهل العلوم فإننا نتساءل هل هذا الحمأ المسنون هو الخلايا التي يتكون منها الكائن الحي حيث أن الخلية هي وحدة الحياة . لوصح ذلك إذن فمن الكائنات من يتكون من حمأة واحدة ومنها ما يتكون من حمإ كثير .

أنا صلصال من حمإٍ مسنون .

لو ثبت مستقبلا أن الحمأ المسنون هو الخلايا فإن جسمي يتكون من ملايين الملايين من الحمإ المسنون . فكيف تنتظم تلك الأعداد الضخمة لتكوّن كائنا واحدا يتحرك ويمارس الحياة كوحدة واحدة ؟ ؟ ؟ .. ذلك لا يتأتى إلا إذا كان هناك أولا توزيع في العمل ، وهذا التوزيع يعتمد على التخصص ثم على التجمع ، بمعنًى أن يكون هناك حمأ يقوم بالحركة وحمأ يقوم بالهضم وآخر يقوم بالإحساس وغيره يقوم بالتكاثر وهكذا . ويتلو ذلك أن الحمأ الذي يقوم بوظيفة واحدة يتجمع ليكون نسيجا واحدا ثم تتجمع الأنسجة لتكون الأعضاء وكل عضو يصح أن يتكون من أنسجة متعددة ، ثم تتجمع الأعضاء لتكون الأجهزة .

وعلى ذلك فالأساس الذي يعتمد عليه الكائن الحي في القيام بالوظائف الحيوية المختلفة هو تجمع المتشابه من الحمأ في نسيج واحد وربما كانت الأنسجة هي الصلصال .

ولو أخذنا بذلك لكانت هناك أربعة أنواع للصلصال هي الأنسجة الطلائية والضامة والعضلية والعصبية وتلك الأنسجة توجد في جميع الحيوانات . ولا يخفى أن كل نوع منها يضم العديد من الأصناف والأشكال ..

أنا ... تراب حي . أنا نبات ... أنا حيوان

نعم أنا حي . في هذه اللحظة التي أخط فيها هذه السطور ، أقسم على أني حي . وكلّ من يراني يعرف أنني حي . ولكن ، ما هي الأسباب التي أستند عليها ويستند عليها الجميع في الحكم بأني حي . هل لأنّني أتحرّك ... لأني أحرك يدي وقدمي وعيني بل أنني أعرف أحد الأصدقاء كان يحرك أذنيه . قد يقول البعض نعم . ولكن هل السيارة لا تتحرك . هل الرياح لا تتحرك . إنني أنظر الآن إلى ذرات التراب التي غمرت جميع الحجرات وجميع الأثاث في المنزل بعد أن كنّا في حالة طوارئ إذ اليوم هو يوم التنظيـف . إذن فحركتي وحدها لا تضفي عليّ مظاهر الحياة .

هل أنا حيّ لأني أصيح وأصرخ وأتكلم ... إن أمامي جهازا للراديو يغني ويتشنج كما أنني أسمع ميكروفونا في الشارع ينعي فقيـدا هماما اشتهر بالإجرام ويطلب منّا بصوت آمر حازم أن نقرأ الفاتحـة على روح العزيز . وأسمع ميكروفونا آخر يصيح مهددا « زمالـك زمالـك » . فهل الراديو والميكروفون دخلا في زمرة الأحياء .

هل أنا حي لأنني أتناول الطعام وأقوم بعد ذلك بإفراز الفضلات ــ إن لدي سيارة تقوم بالتهام كميات كبيرة من البنزين تكاد تؤتي على معاشي ، كما أنها تقوم بإفراز كميات هائلة من الهباب الأسود من مؤخرتها ممّا يفسد الجو في الأماكن التي تنكب بالمرور فيها .

هل أنا حي لأنني كنت صغيرا أحبو ثم أصبحت شابا يافعا فازددت في الطول والعرض والوزن ... إن الحديد يزداد نموّا بارتفاع درجة الحرارة بالتسخين كما أن الماء يزداد حجما بالتبريد والبلورة تزداد حجما بتراكم بلورات أخرى عليها .

هل أنا حي لأنّني تزوجت أو يمكنني أن أتزوج وأنجب ذرية تشبهني قليلا أو كثيرا . هل هذا التكاثر هو ما يعطيني صفة الحياة ... يقول العلماء إن الفيرس ومن أمثلته فيرس الأنفلونزا يتكاثر بسرعة شديدة فيعمّ بلاؤه وينتشر على رقعة واسعة . ومع ذلك فالفيرس ليس من الأحياء .

هل أنا حي لأنني أتنفس فأستحوذ على الأكسجين وأطرد ثاني أكسيد الكربون في شهيق وزفير مستمرين ... إن الشمعة التي نستعين بها كثيرا عندما تنقطع الكهرباء أو نأكل على ضوئها في جوّ شاعري أو تمسكها الفتيات في ليلة بهيجة يتمنين أن يأتي القدر لهن بمثلها سريعا . تلك الشموع تتنفّس جميعها هي الأخرى وتستهلك الأكسجين طاردة زافرة لثاني أكسيد الكربون .

هل أنا حيّ لأنني أستجيب بلفت رأسي لصوت يناديني أو لأنني أسارع بإلقاء نفسي في الماء رغم عدم معرفتي بالعوم إذا رأيت طفلا صغيرا يكاد يغرق أو لأنني أسارع بإبعاد أصابعي إذا مسها النار ... ستقول نعم .. وأقول ما بالك بمحرك السيارة يستجيب لإدارة المفتاح أو بجرس الباب يأخذ في الرنين استجابة لضغطة بسيطة على الزرار بل ما الرأي في جرس تليفوني بالقاهرة يأخذ في رفع صوته (إذا تصادف وكانت به حرارة) استجابة لأحد أصدقائي يدير قرصا في باريس أو نيويورك أو في الشارع المجاور .

إذن فما الذي يجعلني حيّا ولست جمادا . الإجابة أنني حيّ لأنني أجمع جميع الصفات التي ذكرتها . إن السيارة ليست كائنا حيّا رغم أنها تتحرك

استجابة لمفتاح الإدارة ورغم أنها تتغذّى على البنزين «السوبر» أو العادي، إنها ليست كائنا حيًّا لأنها لا تملك باقي الصفات، وسوف لا يأتي اليوم الذي أفتح فيه باب الجراج فأجد سيارات صغيرة تتحرك حملت بها ووضعتها سيارتي العجوز في غفلة منّي .

إذن فأنا حــــي .

ولكن هل أنا الكائن الوحيد في هذا الكون الذي أحيا .

كلا وألف كلا ... فهذه هي شجرة البرتقال وتلك هي زهرة الخوخ وهذه ذبابة تطير وتلك بعوضة تلدغ أحد الزملاء . وأرى دجاجة ترقد وحدأة تحلق في ارتفاع . كما أرقب حصانا يجري في السباق وكلبا يلهث وآخر يهزّ ذيله طربا .

بل أعلم بوجود أحياء دقيقة كثير منها لا أرى أفراده بعينيّ المجردتين رغم قوة إبصاري، من أمثلتها الخميرة التي تحيل العجين صالحا لصناعة الخبز والبكتيريا التي تحيل اللبن إلى لبن زبادي .

إذن فأنا وغيري من الأحياء نتكون من مادة تتصف بالحياة فما هي يا ترى تلك المادة التي أحيا بها وأمتلكها فتفرق بيني وبين الحائط وبفقد حيويتها أنتقل إلى عالم الأموات ، عالم الجماد .

أولا .. يجب أن نتفق على ما هي المادة ؟ ؟

المادة هي كل شيء في الوجود يشغل حيزا وله وزن معين .

والذرة هي اللبنة الأولى التي تتكون منها جميع المواد وكان العلماء يعتقدون إلى عهد قريب أن الذرة لا تنقسم ولكن بعد تقسيمها أمكن معرفة أنها تتكون من البروتون والنيوترون والإلكترون .

« عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين » (سبأ : 3) .

وقد وجد أن ذرة الأيدروجين تحتوي على بروتون واحد يدور حوله إلكترون واحد كما تدور الأرض حول الشمس ، كما اتضح للعلماء وجود مائة وأربع طريقة تترتب فيها البروتونات والنيوترونات والإلكترونات لتكوين الذرات المختلفة ـ وتتحد الذرات المتشابهة لتكوين العناصر. وبمعنى آخر فإن عدد العناصر الموجودة في الأرض والمعروفة حتى الآن هي مائة وأربعة عنصر. فعنصر الأيدروجين مثلاً يتكون من ذرة واحدة ولكن الأكسجين يتكون من ذرتين. وكلما كانت العناصر بسيطة كان ترابطها أشد ، أي أنها أكثر ثباتا وكلما كانت أكثر تعقيدا كان ترابطها أو ثباتها أقل إلى أن نصل إلى ما يسمى بالعناصر المشعة.

وتتحد العناصر لتكون الجزيئات فالماء يتكون من ذرتين من الايدروجين وذرة واحدة من الأكسجين ، وملح الطعام يتكون من ذرة واحدة من الكلور وأخرى من الصوديوم . وعدد أنواع الجزيئات يبلغ ملايين الملايين منها البسيطة مثل الماء ومنها المعقدة مثل السكر والبروتين والأحماض النووية .

قبل أن أنتقل خطوة أخرى يجدر بي أن أسأل هل أنا أتكون من العناصر التي يتكون منها عالم الجماد من تراب أو صخر أو أنهار أو محيطات .

الجواب هو نعم .. إذ أن جسمي يحتوي على الماء بنفس نسبة الايدروجين والأكسجين كما يحتوي على الكربون والأزوت والكلسيوم والفوسفور والبوتاسيوم والصوديوم والكبريت والكلور والمغنسيوم والحديد وهي نفس العناصر التي يتكون منها الصخر والتراب ، كما يحتوي جسمي على عناصر أخرى بكميات ضئيلة مثل اليود. وبعد هل أنا إذن عبارة عن مكونات التراب اجتمعت في جزيئات كيمياوية من البروتينات والسكريات والأحماض النووية وغيرها . الجواب هو نعم ولكن بتنظيم معين يوجد في كل الكائنات الحية من البكتريا إلى الوردة إلى الشجرة إلى الذبابة

إلى الأرنب إلى الفيل إلى الإنسان .

في عام ألف وثمانمائة وخمسة وثلاثين (1835) لاحظ أحد العلماء الفرنسيين وجود مادة حية يشترك وجودها في جميع الأحياء من نبات وحيوان وقد أطلق عليها أحد العلماء التشيك في سنة ألف وثمانمائة وتسع وثلاثين (1839) إسم البروتوبلازم ومعناها المادة الأولية أو الصبغة الأولية .

هذا البروتوبلازم عبارة عن مادة غروية جيلاتينية مركبة لها أوجه متعددة أي أنها ليست مادة كيمياوية محددة ولكنها عبارة عن ماء مذاب به بعض المركبات العضوية (أي المحتوية على عنصر الكربون) وبعض الأملاح المعدنية كما يتعلق بها قطرات من محاليل غير ذائبة وحبيبات من أجسام صلبة صغيرة يتراوح قطرها بين واحد من عشر آلاف إلى واحد من مليون من المللميتر (علم الحيوان العام . دكتور فؤاد خليل وآخرون) .

وقد وجد أن أنواع البروتوبلازم كثيرة متناهية الكثرة تختلف ليس فقط باختلاف النباتات أو الحيوانات بل أيضا باختلاف أجزاء النبات الواحد أو الحيوان الواحد . والبروتوبلازم تلك المادة اللزجة يمكنها أن تغير طبيعتها بأن تكون أكثر سيولة أقرب إلى الماء أو أكثر صلابة مثل الجيلاتين ويحدث هذا التحول بسرعة كبيرة .

تلك المادة لها جميع الخواص التي يختص بها الأحياء إذ يمكنها الحركة والاستجابة إلى المؤثرات الخارجية كما يمكنها النمو والتكاثر بأن تولد نفسها بنفسها . ولإجراء تلك العمليات الحيوية تحتاج إلى ما يسمّى بالطاقة . وللحصول على الطاقة تحتاج إلى الغذاء المهضوم وتسمّى تلك العملية بالتنفس وينتج عن ذلك فضلات تفرزها إلى الخارج كما يستعمل الفائض من الغذاء المهضوم في بناء البروتوبلازم الجديد اللازم للنموّ والتكاثر .

عند فحص العديد من الأجسام الحية مثل بعض الحيوانات الدقيقة

وأجزاء من أوراق وجذور النباتات وعينات من جلد الإنسان اتّضح أن البروتوبلازم مرتب في وحدات عديدة متجاورة تشبه الصناديق أطلق عليها إسم الخلايا[1] ـ وتختلف تلك الخلايا اختلافا لا نهائيا بحسب مواقعها ووظائفها ولكن مادتها الأولية أو صبغتها الأولية واحدة .

ويجدر بنا أن نذكر أن العديد من الكائنات الحية يتكون جسمها من خلية واحدة مثل البكتريا وبعض الحيوانات الأولية ولكن الغالبية العظمى من الأحياء متعددة الخلايا حيث تتجمع تلك الخلايا لتكون الأنسجة وتلك تتجمع لتكوّن الأعضاء التي تتجمع بدورها مكونّة الأجهزة . وجميع الأجهزة تعمل كوحدة واحدة لتكوّن الفرد سواء أكان شجرة أم حصاناً أم إنساناً .

سبحانك اللّهم .. أنظر إلى تلك الوحدة الضئيلة المتناهية الضآلة التي لا يزيد قطرها عن واحد من الألف من الملليمتر من أمثال البكتريا تمثل كائنا حيا يتغذّى ويتحرك ويحسّ ويتكاثر. خلية واحدة تتمثل فيها جميع الوظائف الحيوية من هضمية وإخراجية وعصبية وقدرة على التكاثر.

ثم أنظر إلى الجانب الآخر من الأحياء الذي يتمثل فيّ أنا وفيك أنت من البشر الذي يحتوي على ملايين الملايين من الواحدات أي الخلايا التي تعمل كلها في وقت واحد كلّ يؤدي وظيفة معينة بدقة متناهية تخضع لإرادة رئيس واحد أو مايسترو واحد ليكون مخلوقا فردا .

ثم انظر إلى قدرة العليّ القدير في كائن مثل البعوضة ضئيل الحجم تترتب خلاياه لتكوّن الأجهزة المختلفة التي منها العصبي والهضمي والتنفسي والتناسلي إلى غير ذلك .

---

(1) في سنة (1665) استطاع روبرت هوك باستعمال الميكروسكوب أن يميز في قطعة من الفلين عديداً من الحجرات الصغيرة أطلق عليها اسم الخلايا لشبهها بخلايا الرهبان في الأديرة .

« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »
(البقرة 26) .

« إن الذيـن تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له »
(الحجّ 73) .

ويختلف حجم الخلايا اختلافا كبيرا فكريات الدم الحمراء في الإنسان ذات قطر يبلغ طوله سبعة ونصف ميكرونا (الميكرون واحد من ألـف من المليمتر) وبيضة الدجاجة طول قطرها حوالي ثلاثين مليمترا وأكبر خلية معروفة حاليا هي بيضة النعام .

ويحتوي المليمتر المكعّب من دم الرجل على خمس ملايين كُرية حمراء (والمرأة أقل قليلا) ، وتبلغ مساحة تلك الكريات في الرجل ألفين وخمسمائة مترا مربّعا !! أي ما يزيد عن نصف فدّان . ويحيط بالخلية غشاء صلب يتكوّن من ثلاث طبقات يتراوح سمكه بين سبعين ومائة من مليون من المليمتر ، وهو غشاء نفاذ يسمح بمرور مواد معيّنة إلى داخل الخلية أو إلى خارجها دون مواد أخرى وذلك لوجود ثقوب مختلفة الاتساع لهذا الغرض .

وبالخلايا تراكيب كثيرة معقدة قد أمكن الكشف عنها حديثا باستعمال الميكروسكوب الإلكتروني ، عرف وظائف بعضها ولا تزال وظائف البعض الآخر غير معروفة .

هذا ولا تتم جميع العمليات الكيمياوية الحيوية التي تؤديها الخلايا إلا في وسط مائي ولذلك فإن الماء يكون من 50 ٪ إلى 96 ٪ من وزن البروتوبلازم ، وصدق الله العظيم إذ يقول « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (الأنبياء 30) .

هل تختلف الخلية الحيوانية عن الخلية النباتية ؟؟ لا شكّ أن هناك خلافا ولكن الأساس والجوهر واحد . فخلية النبات مثلا لها جدار من

مادة غير حية بخلاف خلية الحيوان وربما كان هذا أحد الأسباب التي من أجلها كانت الخلية الحيوانية أكثر حساسية .

كما أن الخلية النباتية تحتوي على مادة خضراء تسمّى اليخضور (الكلوروفيل) وهذه المادة يمكنها أن تمتصّ ثاني أكسيد الكربون من الجوّ لتحوّله في ضوء الشمس مع وجود الماء إلى سكّر وتطلق الأكسجين إلى الجوّ .

كما أنه باتّحاد السكريات مع الأملاح المعدنية المذابة في الماء التي يمتصّها النبات من التربة يمكنه تحضير البروتينات أيضاً . لذلك فإن النبات يقوم بتحضير غذائه بنفسه بعكس الحيوان الذي يحصل على الطاقة اللازمة له بتغذيته على النبات أو على حيوان يأكل النبات .

إن الخلاف في الصفات وفي المظهر بين الشجرة والحصان واضح فالشجرة يمكنها أن تنمو طول مدة حياتها ولكن الحصان ينمو إلى حجم معين والشجرة ليس لها مقدرة على الحركة من مكان إلى آخر بعكس الحصان الذي يجري في حلبة السباق أو على الأقل الذي يحال للمعاش لجرّ عربات الكارو أو الحنطور . والشجرة لا تحسّ بالأسَى إذا قطفت أزهارها كما لا تنفرج أساريرها زهواً وخيلاء إذا طعمت من ثمارها ولكن الحصان يحسّ بالسرور والبهجة إذا ربت على كتفيه أو أطعمته قطعة من السكر ويحس بالألم إذا وخزته بمهازي حذائك أو بالسوط في يدك ، والشجرة تتغذّى على مواد بسيطة من التربة ، والحصان يتغذّى على مواد معقدة . ومع هذا الخلاف بين النبات والحيوان إلا أنه توجد حيوانات تعيش في البحار لا يمكن تفريقها في مظهرها الخارجي وفي بعض صفاتها عن النبات ومن أمثلتها حيوانات الإسفنج والمرجان وأقحوان البحر .

وبناء على الاختلاف بين الحيوان والنبات قسمت الأحياء في مملكتين إحداهما تشمل النبات والثانية تشمل الحيوان غير أن بعض الكائنات الدنيا

بسيطة التركيب ذات الخلية الواحدة لا يمكن وضعها في أي من المملكتين إذ أن لها صفات مشتركة في النبات والحيوان .

بعد أن أوضحت قرابتي إلى الجماد والتي سبق التدليل عليها بأن العناصر التي أتكوّن منها هي نفسها العناصر التي يتكوُن منها التراب ، دعني أنظر الآن أين أضع نفسي بين الأحياء،هل أنا نبات أو حيوان ، أو أنني فريد بين المخلوقات الحية .

إنني رغم قرابتي للنبات لاحتوائنا معا على مادة الحياة الأساسية (البروتوبلازم) رغم قرابتي للنبات التي يقول فيها المولَى جلّ شأنه « والله أنبتكم من الأرض نباتًا » (نـوح 17) ، ورغم امتلاكي لصفات لا يمتلكها الحيوان فإنني أضع نفسي معه في مملكة واحدة ـ الحيوان .... لماذا ؟ ؟

لأنني أشترك معه في تركيب الخلية ذاتها وهي وحدة الحياة التي أرتكز عليها .

أشترك معه في الصفات التي تميزنا معا سواء في التغذية أو الحركة أو النمو أو الإحساس أو التكاثر أو التنفس بل أكثر من ذلك فإنني أشترك معه في الأسس التي تقوم عليها تلك الوظائف بل وفي الأعضاء والأجهزة التي تؤديها . ولإيضاح ذلك أنظر إلى الغذاء الذي يتغذّى عليه كلّ من الإنسان والحيوان هذا الغذاء يجب أن يكون مادة معقدة مثل الكربوهيدرات والبروتين والدهون ، ونحن كلانا نحصل عليه من النبات أو من الحيوان المستضعف الذي نقوم معا بافتراسه . ولكي نقوم بهضم ذلك الغذاء من الطبيعي أن نؤدي ذلك بطريقة واحدة بإفراز ما يسمّى بالإنزيمات الهاضمة ومن أمثلتها المالتيز والسكريز واللاكتيز التي تهضم السكريات والببسين والإيربسين والتربسين التي تهضم البروتينات وإنزيم الليبيز الذي يؤثر على الدهون ويقوم بتلك العمليات الجهاز الهضمي الذي يبدأ من الفم إلى

البلعوم إلى المرىء إلى المعدة إلى الأمعاء الدقيقة والغليظة التي تؤدي إلى فتحة الشرج كما يتصل بهذا الجهاز في بعض الحيوانات أعضاء أخرى مثل الكبد والبنكرياس والطحال.

ثم انظر كيف نستفيد معا من الغذاء المهضوم الذي تقوم بامتصاصه الأمعاء الدقيقة والذي يسري منها بواسطة الأوعية الدموية إلى جميع خلايا الجسم.

ثم انظر إلى عملية التنفس التي أقوم بها أنا والقردة سواء بسواء بأن نأخذ الهواء من فتحتي الأنف والفم الذي يذهب بعد ذلك إلى الرئتين اللتين تستخلصان الأكسجين من ذلك الهواء ثم بواسطة الأوعية الدموية أيضا ينتقل الأكسجين إلى جميع خلايا الجسم وباتحاد الأكسجين مع الغذاء المهضوم في الخلايا تتولد الطاقة اللازمة لجميع العمليات الحيوية في الخلية ذاتها ويتخلص الجسم من المواد الناتجة من عملية الاحتراق عن طريق جهاز الإخراج الذي يتكون أساسا من الكليتين. كما ينتقل ثاني أكسيد الكربون في تيار الدم إلى الخارج عن طريق الزفير.

وبعد، هل أشبه القردة فقط في الهضم والتنفس ... الإجابة على ذلك بالنفي طبعا.

أنـــا والآخــــرون

في يوم ما لا أدري إن كان نهارا أم ليلا باردا أم شديد البرودة عاصفا أم صحوا سكن الزوج إلى زوجته عملا بالآية الكريمة « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » واقترب الزوج من زوجته عملا بالآية الكريمة « نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنىّ شئتم » وكان من نتاج ذلك أنه بعد حوالي تسعة شهور حضرت المولدة ليتم على يديها إضافة مولود جديد إلى قائمة السكان بمدينة طنطا ـ مديرية الغربية في ذلك الحين. أتى المولود فاتح البشرة كلون أمه كستنائي الشعر مثل شعرها وعندما شبّ كان قصير القامة مثلها أيضا . واكتسب من أبيه شكل الأنف والعينين والحاجبين، وعندما كبر كان أيضا صبورا كأبيه .

ولكن هذا المولود كان يختلف شكلا وموضوعا عن إخوته جميعاً، بل أنه يختلف عن أبناء الآخرين، بل يختلف عن كافة الناس أجمعين سواء منهم الحاليين أو السابقين أو من هم في غياهب المجهول .

« ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين»(الروم 22) .

« ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه » (فاطر 28) .

كيف يأتي هذا المولود مختلفا عن كافة البشر؟ ؟

لكي نفسر ذلك يجب أن نعود إلى خلايا الجسم الإنساني ـ لقد كان

لاكتشاف الميكروسكوب الضوئي ثم الميكروسكوب الإلكتروني أخيرا الفضل في إماطة اللثام عن تركيب ومحتويات الخلايا، تلك الوحدات الصغيرة المتناهية في الصغر.

تتركب تلك الخلايا من مادة حية يحيط بها غشاء حي وتلك المادة الحية عبارة عن مادة غروية لزجة غير متجانسة يوجد بها تركيبات وأجسام مختلفة عضوية أو كروية أو خيطية بعضها له علاقة بالنشاط الإنزيمي للخلية وبعضها قد كشف وجوده بواسطة الميكروسكوب الإلكتروني ولم يعرف إلى الآن وظائفه بالضبط . وفي داخل الخلية يوجد جسم كروي لامع يسمّى النواة يفصله عن البروتوبلازم المحيط به غشاء يسمّى الغشاء النووي وقد اكتشف وجود النواة في عام 1833 .

وتعتبر النواة مركزا حيويا أساسيا في الخلية إذ أنه بإزالتها تستمر العمليات الحيوية في الخلية مدة بسيطة ثم تتوقف نهائيا .

في داخل النواة سائل يسمّى السائل النووي يحيط بجسم كروي صغير هو النويّة . وللنوية غشاء يحيط بها ولكنه يختفي عندما تنقسم الخلية لتكوّن خلية جديدة . والنوية تتكون كيمياويا من مادة تسمّى الكروماتين وهي عبارة عن حامض نووي بروتيني أو يمكن تسميتها بروتينات نووية إذ أنها ناتجة عن اتحاد حامض نووي مع بروتينات بسيطة . ومادة الكروماتين تأخذ شكل شبكة هي في الواقع عبارة عن عدد من الخيوط الرفيعة تسمّى الكروموزومات ذات عدد ثابت في جميع الخلايا لكل نوع من الكائنات وهذا العدد مزدوج في خلايا الجسم (بخلاف الحيوان المنوي والبويضة) فعدد أزواج الكروموزومات في ديدان الإسكارس زوج واحد ، وفي البعوض 3 وفي ذبابة المنزل 6 وفي البسلة 7 وفي القرد 27 وفي الإنسان 23 .. وكل زوج من الكروموزومات يتشابه فرداه ، والكروموزومات هي حاملات العوامل المكونة للصفات المميزة للكائن

الحي كأن يكون طويلا أو قصيرا ، أسود أو أشقر ، بدينا أو نحيفا ، أسود العينين أو أخضرهما أو أزرقهما ، غزير المحصول أو قليله ، مبكرا في النضج أو متأخرا ، ذكيا عبقريا أو غبيا أو معتوها .

والكروموزومات هي المادة الحية الممتدة من كل جيل إلى الجيل الذي يليه أي هي المادة التي يعطيها جيل الآباء إلى جيل الأبناء أي أنها المعبر « الكوبري[1] » المستمر الذي تسير عليه الأنواع المختلفة المتعددة عبر الحياة كل نوع له معبره الخاص بعدد ثابت من الكروموزومات وكل كروموزوم عليه عدد كبير من العقد تسمّى الجينات كل منها يتحكم أو يختص بصفة من الصفات .

عندما تنقسم الخلايا الجسمية لتكوين خلايا جديدة فإن الخلية الواحدة تنقسم إلى خليتين جديدتين كل منهما تحتوي على عدد من أزواج الكروموزومات هو نفسه العدد الأصلي للخلية الأم ، هذا ما يحدث في خلايا الجسم ولكنه يختلف عما يحدث في خلايا التناسل وهي الحيوان المنوي والبويضة في الحيوان وهي أيضا حبوب اللقاح والبويضات في زهرة النبات .

يتكوّن الحيوان المنوي في الخصية في ذكر الحيوان وتتكوّن البويضة في المبيض في أنثاه ويسمّى كل من الحيوان المنوي والبويضة بالنطفة .

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا » (فاطر 11) .

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين » (المؤمنون 12 ، 13) .

« أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » (يس 77) .

« قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من

(1) «الكوبري» كلمة مصرية تعني الجسر

نطفة ثم سواك رجلا » (الكهف 37)

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يمنى » (القيامة 36 ، 37) .

وعند الاتصال الجنسي بين ذكر الحيوان وأنثاه يقذف الذكر بالسائل المنوي في مهبل الأنثى، ويحتوي السائل المنوي للرجل على ملايين من الحيوانات المنوية بينما تنضج المرأة بيضة واحدة في كل شهر قمري من أحد المبيضين. والخلايا التناسلية صغيرة الحجم جدا، فالحيوان المنوي في الإنسان يتكون من رأس وجسم وذيل طولها جميعا حوالي 45 من الألف من المليمتر ، أما البويضة فشكلها مستدير وقطرها 117 ـ 142 من الألف من المليمتر .. ويقدر أحد العلماء أن حجم جميع الحيوانات المنوية التي نشأ عنها البشر الموجودون على سطح الأرض حاليا (حوالي ثلاث آلاف مليون نسمة) لا يزيد عن قرص واحد من الأسبرين ، كما يقدر حجم الكروموزومات في البويضات التي نتج عنها نفس العدد من البشر بنفس الحجم .

« ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين » (المرسلات 20 ، 21) .

« والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » (النور 45) .

بعد الاتصال الجنسي بين الذكر والأنثى تتسابق الحيوانات المنوية فيما بينها ويصل الحيوان الفائز منها إلى البويضة وعندئذ يفقد ذيله وتدخل النواة فقط لتندمج مع نـواة البويضة وبذلك تختلط الكروموزومات الواردة من الذكر بالكروموزومات الواردة من الأنثى وتسمى تلك العملية من الناحية العلمية الإخصاب ، وتسمى البويضة المخصبة بالزيجوت أو النطفة الأمشاج (مشج بينهما = خلط .. مختار الصحاح) .

« إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج[1] نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا »
(الانسان 2) .

ما عدد الكروموزومات في النطفة الأمشاج . لا شك أنه يساوي عدد الكروموزومات في الحيوان المنوي مضافا اليه مثيله في البويضة، فلو كان العدد في كل منهما هو نفس العدد في الخلايا الجسمية لتضاعف عدد الكروموزومات في كل نوع من الكائنات الحية جيلا بعد جيل، ولكن هذا لا يحدث اذ أنه عند تكوين الخلايا الجنسية في كل من الخصية والمبيض يحدث اختزال في عدد الكروموزومات فبينما الخلية الأم في الانسان تحتوي على 23 زوجا من الكروموزومات فإن ذلك العدد في الحيوان المنوي هو 23 فردا وفي البويضة 23 فردا أيضا وعندما تم عملية الإخصاب يعود العدد في النطفة الامشاج إلى 23 زوجا يساهم الزوج بنصف العدد وتساهم الزوجة بالنصف الآخر وبذلك يحمل مولود المستقبل صفات من الأم والأب معا .

كيف أتيت أنا مشابها لأمي في بعض الصفات ومشابها لأبي في صفات غيرها بل لا أشبه أيا منهما في صفات أخر؟ .

إن الفضل في الإجابة على هذا السؤال يعود إلى نبات البسلة وإلى أحد الرهبان النمساويين يدعى جريجور مندل (ولد في سنة 1822) ، أجرى مندل تجارب على نبات البسلة في حديقة الدير ابتداء من سنة 1857 وقام

---

(1) يقول موريس بوكاي (.دراسة الكتب المقدسة) « في رأي المفسرين والكتاب القدماء أن المقصود هو عنصر الذكر وعنصر الأنثى ولكن المفسرين المحدثين مثل صاحب المنتخب الذي نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة يعدلون عن التفسير السابق ويميزون هنا أن نقطة المني ذات عناصر شتّى » ويؤيد الكاتب المذكور هذا الرأي ـ وفي رأيي أن التفسير الأخير لا يمكن الأخذ به فنقطة الدم أو اللبن أو حتّى الماء تتكوّن من أكثر من عنصر واحد . علاوة على ذلك فيجب التفريق بين النطفة والنطفة الأمشاج وكلتاهما وردتا في الكتاب الكريم .

بنشر نتائجه في سنة 1865 تحت عنوان « تجارب على التهجينات في النبات » .

حصل مندل من مستوردي البذور على 34 صنفا من البسلة مميزة عن بعضها وزرعها لمدة سنتين قبل بدء التجارب عليها ليتأكد من ثبات صفات كل صنف وانتخب منها 22 صنفا أجرَى عليها تجاربه . لاحظ مندل الصفات التي تحملها تلك الأصناف (كل صفة على حدة) فوجد أن هناك نباتات طويلة وأخرَى قصيرة ، هنالك نباتات مستديرة البذور وأخرَى مجعدتها ، هنالك أزهار بيضاء وأخرَى بنفسجية ، كما أن هناك أزهارا موضعها إبطي موزعة على طول الساق وأخرَى طرفية مجتمعة عند قمة الساق وغير ذلك من الصفات .

قام مندل بتهجين نباتات تحمل مظهر صفة معينة من نباتات تحمل المظهر المضاد لتلك الصفة ومعرفة أثر ذلك على الجيل الناتج أى جيل الأبناء، ثم قام بزراعة جيل الأبناء وتركه يتكاثر تكاثرا طبيعيا (بدون تهجين) لمعرفة توزيع المظهرين المتضادين في جيل الأحفاد ، وإليكم النتائج :

عند تهجين نباتات بسلة طويلة الساق مع أخرَى قصيرة الساق كان الأبناء جميعهم طوال الساق ، وعند زراعة بذور ذلك الجيل وفحص النباتات الناتجة وهي جيل الأحفاد كانت النتيجة أن ربع النباتات كانت قصيرة الساق وثلاثة أرباع النباتات طويلة الساق أى أن النسبة 1 قصير : 3 طويل ... وعند دراسة صفة أخرَى مثل لون الأزهار حصل على نفس النتيجة فعندما كان أحد الأبوين ذا أزهار بيضاء والثاني ذا أزهار بنفسجية حمل الأبناء جميعا أزهارا بنفسجية،وعند تزاوج الأبناء انعزلت الصفات في الأحفاد بنسبة نبات واحد أزهاره بيضاء لكل ثلاثة نباتات أزهارها بنفسجية ... استنتج مندل من ذلك أن كل صفة في كل فرد لا بد أن

يحكمها عاملان وأن الفرد يأخذ أحد العاملين من أمه والعامل الثاني من أبيه فإذا كان هذان العاملان مختلفين فلا بد من سيادة أحد العاملين على الآخر ، أما اذا كانا متشابهين تعتبر صفتهما نقية. ولإيضاح ذلك نرمز إلى النبات قصير الساق في جيل الآباء بالرمز (قَ قَ) وطويل الساق بالرمز (ق ق) ـ اتفق العلماء على تلك الطريقة لسهولة بحث النتائج ـ فعند تهجين جيل الأباء نجد أن أحد الأبوين تحمل جميع خلاياه التناسلية عامل القصر (قَ) في حين أن النبات الثاني تحمل جميع خلاياه التناسلية العامل (ق) أى عامل الطول،وعند التهجين فإن جميع الأبناء لا بد أن تحمل العاملين (قَ ق) وتكون تلك النباتات طويلة الساق لأن العامل (ق) يسود على العامل (قَ)،وعندما تتزاوج نباتات هذا الجيل نجد أن الخلايا التناسلية للأب نصفها يحمل العامل (قَ) والنصف الثاني يحمل العامل (ق)،ومثل ذلك تماما يحدث في خلايا الأم التناسلية وتكون النتيجة :

فرد يأخذ قَ من أمه ، قَ من أبيه فيكون تركيبه (قَ قَ) أي قصير الساق

فرد يأخذ قَ من أمه ، ق من أبيه فيكون تركيبه (قَ ق) أى طويل الساق

فرد يأخذ ق من أمه ، قَ من أبيه فيكون تركيبه (ق قَ) أى طويل الساق

فرد يأخذ ق من أمه ، ق من أبيه فيكون تركيبه (ق ق) أى طويل الساق

وبذلك تكون النتيجة فرد واحد قصير الساق لكل ثلاثة أفراد طويلة الساق .. ومن هذه الثلاثة الأخيرة يوجد فرد واحد أصيل في صفة الطول (ق ق) واثنان خليطان في صفة الطول (ق قَ أو قَ ق) .

وقد حصل مندل على نفس النتائج في جميع الصفات المختبرة . ولكي

بتأكد مندل من صحة نظريته أجرَى ما يسمّى بالتلقيح الرجعي وذلك بتزاوج نباتات من جيل الأبناء (ق قَ) مع نباتات من جيل الآباء (قَ قَ)،ورغم أن جيل الأبناء (ق قَ) جميعه طويل الساق إلا أنه خليط في تلك الصفة أي يحمل عاملَ القصر (قَ) ولكن أثره يكون مختفيا لسيادة عامل الطول (ق) عليه ، وكانت نتيجة ذلك التلقيح الرجعي أن نصف عدد النباتات قصيرة الساق (قَ قَ) ونصفها طويلة الساق (ق قَ)، ولايضاح ذلك نلاحظ أن نباتات الأبناء (ق قَ) تنتج خلايا تناسلية نصفها تحمل العامل (ق) والنصف الآخر يحمل العامل (قَ)،في حين أن نباتات الآباء (قَ ق) تنتج خلايا تناسلية جميعها (قَ) وتكون النتيجة عند تهجين جيل الأبناء بجيل الآباء كما يلي :

الأم قصيرة الساق والأب طويل الساق

نبات يأخذ (قَ) من أمه ، (ق) من أبيه فيكون تركيبه (قَ ق)

نبات يأخذ (قَ) من أمه ، (قَ) من أبيه فيكون تركيبه (قَ قَ)

الأم طويلة الساق والأب قصير الساق

نبات يأخذ (ق) من أمه ، (قَ) من أبيه فيكون تركيبه (ق قَ)

نبات يأخذ (قَ) من أمه ، (قَ) من أبيه فيكون تركيبه (قَ قَ)

ومن ذلك يتضح أن نصف النباتات الناتجة تكون قصيرة الساق ونصفها طويلة الساق .

استمر مندل في تجاربه يبحث النتائج عند تهجين نباتات تحمل صفتين مختلفتين بدلا من صفة واحدة،بمعنَى أنه قام بتهجين نباتات قصيرة الساق بيضاء الأزهار (قَ قَ بَ بَ) بنباتات طويلة الساق بنفسجية الأزهار (ق ق ب ب) فكانت النتيجة حصوله على نباتات طويلة الساق بنفسجية الأزهار غير أنها خليطة في هاتين الصفتين (ق قَ ب بَ)،وعند تزاوج تلك النباتات كانت النتيجة :

9 أفراد طويلة الساق بنفسجية الأزهار : 3 أفراد طويلة الساق بيضاء الأزهار : 3 أفراد قصيرة الساق بنفسجية الأزهار : فرد واحد قصير الساق أبيض الأزهار.

أى أن فرادا واحدا من كل ستة عشر فردا متنح في الصفتين.

بعد ذلك أجرَى مندل تجربة ثلاث صفات،مثل نباتات طويلة الساق بنفسجية الأزهار مستديرة البذور مع نباتات قصيرة الساق بيضاء الأزهار مجعدة البذور، وحصل على النتائج الآتية في جيل الأحفاد :

27 فردا طويل بنفسجي مستدير : 9 طويل بنفسجي مجعد : 9 طويل أبيض مستدير: 9قصير بنفسجي مستدير : 3طويل أبيض مجعد : 3قصير بنفسجي مجعد : 3قصير بنفسجي مستدير : 1قصير أبيض مجعد .

أى أن فردا واحدا من كل أربعة وستين فر دا متنحي في الصفات الثلاث .

عندما عرفت النتائج التي توصل إليها مندل طبقت تجاربه على كائنات أخرَى حيوانية ونباتية ووجدت نظريته في مجموعها صحيحة،غير أن هناك حالات لا تكون فيها السيادة لأحد العاملين لصفة من الصفات سيادة كاملة على العامل الآخر ومن أمثلة ذلك اللون في الدجاج الأندلسي إذ يوجد دجاج لونه أسود وآخر أبيض، فإذا لقحت دجاجة بيضاء من ديك أسود كانت النتيجة دجاج لونه أزرق أى أن اللون الأسود لم يسد سيادة كاملة على اللون الأبيض ـ كما وجد أيضا أن هناك صفات لا يحكمها زوج واحد من العوامل بل يصح أن يحكمها عدد من العوامل،وبذلك تكون الصفة متدرجة في الأفراد على حسب العوامل ونوعها بالفرد الواحد.

عند تطبيق قواعد مندل على وراثة الصفات بالإنسان وجد أن هناك

صفات تنطبق عليها تلك القواعد ولذا تسمّى بالصفات المندلية وصفات أخرَى أكثر تعقيدا . ومن أمثلة الصفات المندلية لون العيون الأزرق والبني، فقد وجد أن اللون البني سائد علَى اللون الأزرق فإذا تزوج رجل أزرق العينين (آ آ) امرأة زرقاء العينين (آ آ) كانت أعين أبنائهم جميعا زرقاء . أما اذا تزوج امرأة بنية العينين فتختلف النتيجة،فإذا كان عيناها (ا اَ) فان الاحتمال أن نصف بنيها تكون أعينهم زرقاء والنصف تكون أعينهم بنية،أما إذا كانت عيناها (ا ا) فجميع أبنائها تكون أعينهم بنية (ا آ) ... أما اذا تزوج رجل بني الأعين (ا اَ) امرأة بنية الأعين (ا اَ) فمن المحتمل أن يظهر ربع أبنائهما ذوي عيون زرقاء .

ومن الصفات المندلية في الإنسان أيضا صفة الألبينو (عدو الشمس) .

وصفة الأصابع القصيرة وكذلك الخصلة البيضاء في مقدم الرأس .

والسؤال الآن ما هي وأين تقع تلك العوامل التي تتحكم في الصفات . لقد وضح للباحثين أن سلوك العوامل الوراثية هو نفسه سلوك الكروموزومات في الخلايا الجنسية أو التناسلية، فإن العوامل في الخلية الجسمية تكون مزدوجة وعندما ينضج الفرد جنسيا مكونا حيوانات منوية أو بويضات فإن تلك العوامل تصبح فردية،وعندما يحدث التزاوج ويتكون فرد جديد يأخذ هذا الفرد عاملا من أمه وعاملا من أبيه لكل صفة من الصفات،وهذا السلوك هو نفسه سلوك الكروموزومات التي تكون زوجية في خلايا الجسم فردية نتيجة للانقسام الاختزالي في الحيوانات المنوية والبويضات،ويستعيد الفرد الجديد زوجية الكروموزومات نتيجة لاندماج الحيوان المنوي في البويضة .

لقد توصل العلماء إلى هذه النتائج في سنة 1900 وعند ذلك تأكدوا

بأن عوامل الوراثة تحمل على الكروموزومات، وبالفعل بفحص الكروموزومات بالميكروسكوب وجد عليها عقد أطلق عليها اسم الجينات تمثل العوامل الوراثية ، وكل جين يوجد في مكان معين على كروموزوم معين حتّى أنه يمكن عمل خرائط كروموزومية لأنواع الكائنات الحية، ومن الطبيعي أن جينا ما لا بد أن يتبع الكروموزوم الذي يوجد عليه أينما اتجه هذا الأخير.

في يوم 24 أكتوبر ولدت أنا مولودا ذكرا، فكيف منّ الله عليّ أو على والدي يرحمها الله بكوني مولودا ذكرا ولم آك أنثى ، ذكرنا أن عدد الكروموزومات في خلايا كل فرد منا نحن البشر هو 23 زوجا (أى 46 كروموزوما)، فهل تتشابه هذه الأزواج جميعا في شكلها . الإجابة أن كل زوج منها له شكل خاص به أى أن فرديه متماثلان فيما عدا زوج واحد نفترض أنه الزوج رقم 23، فهذا الزوج يتماثل فرداه في الإناث ويختلفان في الذكور، فلو رمزنا لذلك الزوج بالرمزين (ا ا) في الأنثى ، (ا ذ) في الذكر نجد أن تركيب الأنثى الكروموزومي يكون 44 + ا ا وتركيب الذكر 44 + ا ذ ، وعندما تبلغ الأنثى سن الإحاضة وتكوين البويضات تنقسم الخلايا الأولية التي تكون البويضات في المبيض انقساما اختزاليا إلى قسمين كل خلية يكون تركيبها (22 + ا) كروموزوما، ولكن الذكر عندما يصل إلى البلوغ فإن الخلايا الأولية للحيوانات المنوية تنقسم كل منها إلى خليتين، وفي هذه الحالة سوف يتكوّن نوعان من الخلايا يذهب الكروموزوم (ا) إلى إحداهما ويذهب الكروموزوم (ذ) إلى الأخرى أى أن نصف الخلايا يكون تركيبها (22 + ا) والنصف الآخر (22 + ذ) . عندما يتصل زوج بزوجته فإن البويضة التي تنتجها في كل شهر قمرى تركيبها دائما (22 + ا) ولكن الزوج ينتج في كل مرة ملايين من الحيوانات المنوية نصفها (22 + ا) والنصف الآخر (22 + ذ) وتتسابق الحيوانات جميعها لكي يصل أحدها

بطريق الصدفة (إذا كان الزوج سليما) إلى البويضة لإخصابها فإذا وصل الحيوان المنوي (22 + ا) واتحد بالبويضة كان تركيب جنين المستقبل (44 + اا) وهذا بالطبع جنين أنثوي، أما إذا كان السابق أحد الحيوانات المنوية (22 + ذ) كان تركيب الجنين (44 + ا ذ) وهو جنين ذكر.

مما تقدم نرَى أن احتمال أن تنجب المرأة ذكرا (أو أنثى) يكون 50 ٪ في كل ولادة على حدة بصرف النظر عما لديها من أبناء ـ ذلك إذا كان الزوج سويا ، إذ أن وصول أحد الحيوانين يعتمد على الصدفة المحضة، ولكن بعض الأزواج قد ينتج أحد النوعين أكثر من النوع الآخر أو أقل حيوية من النوع الآخر ومثل هؤلاء يميل إلى إنجاب أحد الجنسين (البنين أو البنات) أكثر من إنجاب الجنس الآخر نتيجة لاختلاف حيواناته المنوية في القوة أو في الكثرة . ألا ترَى معي اذن أن مريم وخديجة وسوسن وستوتة المتهمات بإنجاب البنات لا مسؤولية عليهن في ذلك وأن المسؤول الأول هو حسنين ومحمدين وأبناء جنسهما من الذكور.

« لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور » (الشورَى 49) .

وبعد لقد كان من حظي (لا أدرى الحسن أم السيئ) أنني كنت مولودا ذكرا فتى ظهرت عليّ علامات « الرجولة » ـ يقول علماء الأجنة أن ذلك ظهر عندما كان طولي اثني عشر ملليمترا بعد أن أمضيت في مسكني بالرحم ستة أسابيع . عندئذ تشكلت غدتاي التناسليتان إلى خصيتين لا مبيضين وفي تلك السن أخذ ذيلي في الاختفاء وبدأت أصابعي في الظهور ثم أصبح شكلي آدميا في نهاية الأسبوع الثامن إذ كنت « عملاقا » يبلغ طوله ثلاثين ملليمترا وسبحان الخلاق القدير الذي يقول :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتّى يتبين لهم أنه الحق » (فصلت 53) .

والآن كيف خلقت أنا مختلفا في الشكل والمضمون عن باقي إخوتي الذين ينتسبون معي إلى أم واحدة وأب واحد بل يشتركون معي في الانتساب إلى نفس الجذور حتّى آدم عليه السلام ، بل كيف أختلف ويختلفون هم أيضا عن باقي الأناس من خلق الله أجمعين؟

إن رجال الإحصاء يمكنهم الإجابة على هذا التساؤل بحساب هو البساطة بعينها .

إن عدد الكروموزومات في خلايا جسم الإنسان هو 23 زوجا ، فرد واحد من كل زوج منها قد أخذه من أمه والفرد الثاني قد أخذه من أبيه . عندما يبلغ المراهق سن الحلم يبدأ في تكوين حيوانات منوية في الخصية من خلايا تسمّى بالخلايا الأمية،كل منها تنقسم بما يسمّى انقساما اختزاليا إلى حيوانين منويين كل حيوان منها يحتوي على 23 فردا فقط من الكروموزومات إذ أن فردا واحدا من كل زوج من الكروموزومات يذهب إلى أحد الحيوانين الجديدين،ويكون ذلك بطريقة عشوائية فقد يتكون حيوان من كروموزومات 1 ، 2 ، 10 من الأم وباقي الكروموزومات أصلها من الأب،ويتكون آخر من الكروموزوم 9 من الأم والباقي من الأب ، ويتكون ثالث من الكروموزومات 5 ، 6 ، 9 ، 13 ، 20 من الأم وباقي الكروموزومات من الأب وهكذا . هل تعلم ما هو عدد الاحتمالات المختلفة لتكوين تلك الحيوانات في كل فرد ذكر من بني الإنسان،إنه 2^{23} وهذا الرقم يساوي 608، 388، 8 أي مايقرب من ثمانية ملايين وأربعمائة ألف حيواناً منوياً يختلف بعضه عن البعض وبنفس الطريقة عندما تصل الأنثى إلى سن الإحاضة تكون بويضة واحدة كل شهر قمري ولكن تلك البويضة هي واحدة من بين ثمان ملايين وأربعمائة ألف بويضة محتملة التكوين ـ من ذلك نرى أن رجلا واحدا وامرأة واحدة يمكنهما أن ينجبا طفلا ذا شكل معين من بين

8, 400, 000 × 8 400, 000 أى ما يقرب من 7000, 000000, 0000 00 شكلا محتملا من الأطفال . وبعبارة أخرى أن كل رجل وزوجته يمكنهما نظريا إنتاج هذا العدد الضخم المذهل من أشكال لأطفال مختلفة في حياتهما . هل يمكن للعقل البشري أن يدرك تلك الحقيقة ... قدرة مبهرة خلاقة قد أودعها الله سبحانه في رأس ذلك الحيوان المنوي وفي نواة تلك البويضة التي لايمكن أن نرى أيا منهما إلا تحت آلات التكبير لألوف المرات . تلك النطفة أو الماء المهين التي عن طريقها يختلف ملايين الملايين من البشر الحاليين والسابقين واللاحقين في صفاتهم وطباعهم وأشكالهم حتى في بصمة أصابعهم .

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (فصلت 53) .

في 24 أكتوبر المذكور بعد أن أخرجت من سجني الخاص إلى سجن الحياة صاحت المولدة الله أكبر الله أكبر هناك مولود آخر ومدت يدها لتجذب أخي التوأم، وبذلك بدأ التوأمان الحسن والحسين في الصياح. كيف أنجبتهما أمهما ؟؟؟

للإجابة على هذا يقول العلماء .. هل أنت تشبه أخاك التوأم، فأجيب كلا إطلاقا ليس فقط في الشكل بل ولا في الطباع . إذن فأنتما توأمان ولكن شأنكما شأن الأشقاء الآخرين . إن الزوجة التي تنتج عادة بويضة واحدة في كل شهر قد تنضج نتيجة لأحد العوامل الوراثية التي تحملها أكثر من بويضة واحدة وبذلك يمكنها أن تحمل أكثر من جنين واحد إذ أن الحيوانات المنوية للزوج متوفرة بأعداد لا حصر لها ـ إن التوأمين غير المتشابهين هما شقيقان كانا يتزاحمان في المسكن والمأكل في وقت واحد .

عندما التحقت أنا وتوأمي الحسين في مدرسة القاصد الإبتدائية بطنطا كان معنا في نفس الفصل أخوان توأمان (أحمد وحمزة) لا يمكن حتى

لكل ذي عينين فاحصتين أن يفرقها عن بعضهما .. ويجيب العلم على ذلك بأنهما توأمان متطابقان أو صنوان، وهما ينتجان عن بويضة واحدة من الأم وحيوان منوي واحد من الأب اندمجا ليكونا خلية واحدة هي النطفة الأمشاج ثم انقسمت تلك الخلية إلى خليتين لتكون كل خلية جنينا بذاته، ولذلك ينشآن من نفس الجنس (ذكرا كان أو أنثى) كما يكونان متشابهين لأنهما يحملان نفس الكروموزومات وبالتالي نفس الصفات .

والسبب في تكوين الأجنة المتطابقة في الإنسان غير معروف ، غير أنه في حيوان الأرماديللو (وهو حيوان من الثدييات ، كالإنسان) وجد أن سبب تكوين الأجنة المتطابقة هو تأخر البويضة في التعلق بجدار الرحم عن المدة المعتادة وهي خمسة أيام في جميع الإناث الحوامل سواء كانت الحوامل امرأة أو إحدى الفئران. وعلى هذا الأساس ربما كان السبب في تكوين صديقيّ أحمد وحمزة هو تلكؤهما عندما كانا نطفة أمشاجاً واحدة في التعلق بجدار المسكن الذي أعد لمعيشتهما فانقسمت تلك النطفة إلى خليتين كونتا جنينين متشابهين .

هل يمكن للبويضة أن تنتج جنينا دون حاجة إلى الحيوان المنوي ؟ يجيب العلماء بأن ذلك يحدث في ملكات النحل فإن الملكة تضع بيضا غير مخصب لم يمسه حيوان منوي ، وهذا البيض ينتج ذكورا،كما أنها تضع بيضا مخصبا بالحيوانات المنوية وهذا ينتج إناثا إما أن تصبح شغالات أو تصبح ملكات . وقد تمكن العلماء من دفع إناث بعض الحيوانات البحرية والضفادع والأرانب إلى ولادة عذرية بدون حاجة إلى ذكور بتعريض البيض إلى بعض الأحماض العضوية الخفيفة مثل حامض البيوتريك أو تسخين البيضة تسخينا هينا أو تبريدها أو شكها بطرف دبوس يحمل أحد البروتينات مما يدفع البيضة إلى الانقسام والتشكل والتوصل في النهاية إلى جنين صحيح معافى ينمو بدوره إلى حيوان طبيعي،وغني عن الذكر أن

ذلك الكائن الناتج عن الولادة العذرية يحمل مجموعة واحدة من الكروموزومات هي كروموزومات الأم .

أنا عبــر الحيـــاة

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير » (العنكبوت 19 ،20) .

يقول لنا المولى سبحانه إننا لا شك نرى معجزة الخلق على الدوام ساعة بعد ساعة بل لحظة بلحظة في مخلوقات تترى من مختلف النبات والحيوان والإنسان يموت منها أفراد ويعيد الله سبحانه خلق أفراد أخـــر في تلاحق مستمر إلى يوم الدين وما أيسر ذلك على قدرته سبحانه .

ثم يطلب منا المولى جلّ جلاله أن نفتش في الأرض لنرى كيف بدأ الله الخلق ، ولا شكّ أن الخلاف في قوله سبحانه في الآيتين واضح جلي . في الأولى يقول كيف يبدىء الله الخلق وفي الثانية يقول كيف بدأ الخلق . في الأولى يوضح لنا استمرار الخلق بدءا واعادة حتّى قيام الساعة وفي الثانية يوضح بدء الخلق بداية واحدة في الماضي وفي ذلك دليل على إعادته مستقبلا إعادة واحدة بجميع مخلوقاته هي النشأة الآخرة يوم البعث . وليس البدء ولا البعث على قدرة الله بأمر عسير إذ هو على كلّ شيء قدير

سيروا في الارض فانظروا كيف بدأت الخلق .

هكذا ترى يا عزيزي القارىء أن الله سبحانه يطلب منا أن نبحث وأن نقب لكي نرى كيف بدأت الحياة. يطلب منا المولَى أن نفتش في الأرض وأن نحفر في أعماقها في باطنها في أغوارها في ماضيها السحيق لا ندخر وسعا ولا نترك ثغرة ولا نألو جهدا ولا نبخل بمعرفة ـ في أي فرع من فروع المعرفة ـ لكي نجيب على هذا السؤال . على هذا اللغز المحير على هذا الطلسم الذي تتوه في التوصل إلى حله جهابذة العقول ـ يقول لنا علام الغيوب سيروا في الأرض ـ أحفروا وابحثوا وواصلوا البحث واعملوا الفكر والعقل والمقدرة والرأي لكي تحصلوا على الجواب فلعل في الوصول إليه أن تؤمنوا بقدرة العليم الخبير المسيطر الجبّار الذي إن أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون . ابحثوا لعلّ في توصلكم إلى الإجابة نبراساً يهدي قلوبكم وينير عقولكم إلى الإيمان بالواحد الأحد الذي لم يكن له كفوا أحد .

لم يقل لنا الله سبحانه وتعالَى ان بدء الخلق سرّ من أسراري لا تحاولوا أن تطلعوا عليه أو تتوصلوا إليه كما قال عن الرّوح « قل الرّوح من أمر ربّي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا[1] » بل قال سبحانه ابحثوا وانظروا كيف بدأ الخلق.

من ذلك نرى أن البحث في أصل الحياة والتوصل إلى سر بدئها وسيرها ومسارها ليس فقط قد أحله الله بل يطالبنا به ويثيب من يتوصل إليه جزاء مشكورا لأنه سبحانه يقول :

« قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (الزمـــر 9) .

« وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » (العنكبوت 43) .

« إنما يخشَى الله من عباده العلماء» (فاطر 28) .

هذا ويقدر رجال العلم من الجيولوجيين عمر الأرض بحوالي أربعة آلاف وستمائة مليونا من الأعوام (4600 مليون سنة) . يطلب منّا الله سبحانه وتعالَى أن نفتش فيها لكي نصل إلى بدء الحياة . ألا تتفقون معي الآن أن

(1) ربما كانت هذه الآية لا تنهي عن البحث والتوصل إلى ماهية الروح .

الأجدر بنا والأصوب إلى عقولنا أن نترك ذلك الأمر إلى المتخصصين في العلوم التي تتصل بهذا الموضوع لكي يجيبونا على ذلك وأنه لا يسعنا إلا قبول ما يقولون طالما يتفقون هم على رأي ما وطالما لا تتعارض إجابتهم مع أي نص من نصوص القرآن، واسمحوا لي أن أؤكد قولي أي نص من نصوص القرآن ولا أقول أي تفسير للقرآن. إن أقدر من يجيب على هذا التساؤل ـ كيف بدأ الله الخلق ـ هم علماء الجيولوجيا وعلماء الحفريات والمشتغلين بعلوم الحياة وعلوم الإنسان وغيرهم.

ربّ قائل يقول كيف قدر العلماء عمر الأرض بألوف الملايين من السنين وكيف يقيس العلماء هذه الملايين من السنين. يجيب العلم على ذلك بأنه في بعض مناطق العالم قامت بعض العوامل الطبيعية المسماة عوامل التعرية بالكشف عما يسمّى العامود الجيولوجي وهو عبارة عن طبقات الصخور المختلفة التي تكونت منذ الماضي السحيق بعضها فوق بعض، ومن الواضح أن أي طبقة تكون أقدم من التي فوقها وأحدث من التي تحتها طالما أحتفظت تلك الطبقات بترتيب تكوينها ولم تغيرها العوامل الطبيعية المختلفة ومن أهمها البراكين والزلزال.

وقد أمكن معرفة عمر كل طبقة بطرق مختلفة، وكان أحدث تلك الطرق التي ثبت أنه يمكن الاعتماد عليها وأن نتائجها قريبة جدا من الحقيقة هي طريقة الإشعاع وتعتمد على بعض المعادن المشعة وعلى رأسها اليورانيوم الذي يوجد في بعض الصخور. هذا المعدن المشعّ يتحول نتيجة لإشعاعه إلى سلسلة متتابعة من معادن أخرى آخرها الرصاص. وبقياس نسبة الرصاص إلى اليورانيوم في الصخر الذي يوجد به يمكن معرفة عمر ذلك الصخر إذ أن 50 ٪ من اليورانيوم تتحول إلى رصاص في مدة يبلغ طولها أربعة آلاف وخمسمائة مليون سنة. ولقياس المدد القصيرة نسبيا تستعمل طريقة أخرى هي الكربون 14 وأساسها أن كل كائن حي يحتوي في

جسمه على كمية من الكربون 14 وعندما يموت هذا الكائن يتحلل هذا الكربون تدريجيا، ويحتاج 50 ٪ منه لكي يتحلل إلى فترة زمنية قدرها خمسة آلاف وخمسمائة وثمانية وستون عاما (5568 سنة). ويعتمد العلماء أيضا على الحفريات وهي عبارة عن أجسام أو أجزاء من أجسام الكائنات التي كانت تعيش في حقبة من الحقب أو آثارها أو بصماتها دفنت ثم حفظت وتحجرت في الصخور تحت العوامل الطبيعية . وهناك شروط معينة يجب أن تكون قد توافرت لتكوين الحفريات أولها أن يكون جسم الكائن الحي محتويا على بعض الأجزاء الصلبة التي تقاوم التلف مقاومة شديدة مثل العظام والأسنان ومثل الأجسام القرنية والكيتينية كالقرون والأظافر والغطاء الخارجي للمحار والأصداف وجلود الحشرات وكذلك مثل الأوعية الخشبية للنباتات. وثانيها عدم وجود عوامل تؤدي إلى سرعة تلف الكائن سواء بالتحلل أو بالتهشيم أو بالتعرض إلى ظروف طبيعية قاسية. وثالثها أن يدفن الكائن بسرعة في مادة تعمل على حفظه أو على تأخير تحلله ومن أمثلة ذلك رماد البراكين الذي قد يغطي غابات أو مدن بأسرها كما يشاهد الآن في الغابات المتحجرة في وايومنج (بالولايات المتحدة الأمريكية) حيث توجد الأشجار متحجرة وقائمة بحالتها التي كانت عليها.. كما توجد غابات متحجرة أيضا في أسكوتلاندا وفي أنجلترا ومن أمثلتها أيضا مدينة بومبييه في إيطاليا التي كشف عنها بإزالة الرماد البركاني الذي غطاها والذي تصاعد من بركان فيزوف .

كما أن من المواد الحافظة أيضا قاع المحيطات حيث تسقط فيه الحيوانات البحرية بعد موتها فتحفظ في الطين الذي يتحول فيما بعد إلى حجر جيري يحتفظ بأمانة بأجسام تلك الكائنات التي قد تكون رقيقة مثل حفريات بعض الحشرات والأسماك والطيور المائية ـ ومن أمثلة المواد الحافظة أيضا القار أو القطران الذي يعتبر من المواد المطهرة أو القاتلة للميكروبات، فقد وجد في لوس أنجلوس في كاليفورنيا حفائر لحيوانات كثيرة عملاقة من النمور

ومن حيوانات تسمّى Sloths وأخرى ذات أسنان مقوسة Saber Toothed وقد ساعد على حفظ تلك الحيوانات التي انقرضت من زمن بعيد وقوعها في برك من القطران .

كما لا ننسى الجليد الذي يقوم بحفظ الكائنات بأكملها حتّى أنسجتها الرقيقة،ومن أمثلة ذلك الفيلة أو الحيوانات الشبيهة بها التي يغطي جسمها وبر كوبر الجمال عثر عليها في ألاسكا وفي سيبيريا ـ تلك الحيوانات قد عاشت منذ حوالي خمس وعشرين ألف سنة ولا زالت لحومها قابلة لأن تؤكل كما بيع الكثير من أنيابها .

ذكرنا أن العلماء يقدرون عمر الأرض بحوالي 4600 مليونا من الأعوام ـ وهم يقسمونه إلى حقب وعصور بناء على أنواع الصخور التي تكونت في الأزمنة المختلفة وكذا أنواع النباتات والحيوانات التي ظهرت فيها عن طريق دراسة حفرياتها .

فتَى بدأت الحياة،متَى وكيف بدأ تحول الطين إلى طين لازب الذي ربما اعتبرناه مقدمة للكائنات الحية أو بلغة العلم المادة الخام التي يبنى منها البروتوبلازم الذي يمكنه أن يكاثر نفسه بنفسه . يقول العلماء إن الأرض كانت كتلة ملتهبة لا يمكن للحياة أن تنشأ عليها ثم أخذت تبرد شيئا فشيئا لمدة ألف مليون من السنين تكوّن عليها غازات من أول وثاني أكسيد الكربون والنوشادر والميثان وربما غاز سيانور الأيدروجين .

بعد انقضاء تلك الفترة أي منذ حوالي ثلاثة آلاف وستمائة مليون سنة (3600 مليون) أخذت عوامل البرق وأشعة الشمس فوق البنفسجية تعمل في مياه المحيطات لكي تحيل الغازات المذكورة إلى جزيئات عضوية هي حلقات صغيرة من الأحماض النووية من جانب والأحماض الأمينية من جانب آخر ويقول العلماء إن مياه المحيطات قد تحولت حينئذ إلى ما يشبه

« العصيدة » أو « الشوربة السميكة القوام » (وأرجح أن ذلك هو الطين اللازب) .

وقد استمرت تلك العملية مدة خمسمائة مليون عاما أمكن خلالها لتلك الجزيئات العضوية أن يرتبط جانباها الأميني والنووي وأن تكاثر نفسها مستخدمة الطاقة الناتجة من التخمر إذ أن الأكسجين لم يكن قد تكون بعد . (ولعل ما يعرف به الطين اللازب أنه الطين اللزج المتخمر من طول مجاورته للماء ما يرجح اعتبار أن « العصيدة » السابق ذكرها هي الطين اللازب) ، عندما ما أمكن لهذا الطين اللازب أن يكاثر نفسه بنفسه كان ذلك هو مبدأ تكوين الخلية البروتوبلازمية التي أودعها الله سبحانه وتعالى سرّ الحياة ذلك السرّ الغامض الذي لم يتوصل العلماء إلى كشفه . الذي يحيل مادة ميتة من مكونات معروفة إلى كتلة من الحياة وسبحان من يقول « يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » (يونس 31) .

ويقول العلماء إن الحياة جميعها بجميع مخلوقاتها بدأت بداية واحدة لا أكثر والدليل على ذلك أن جميع الأحياء من البكتريا إلى الذبابة إلى الفيل إلى الإنسان تتركب من أربعة أنواع من النيوكلوتيدات Nucleotides وعشرين نوعا من الأحماض الأمينية ، وبالإضافة إلى ذلك فإن طريقة تصنيع تلك المخلوقات واحدة .. فلو كانت الحياة بدأت بدايات مختلفة لكانت مواد بنائها مختلفة أو لكانت طريقة تصنيعها مختلفة . وسبحان الخلاق الذي يقول « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

وكما ذكرنا كانت الطاقة اللازمة لتكاثر المخلوقات الأولى ناتجة عن عمليات التخمر التي أدت بدورها إلى تكوين ثاني أكسيد الكربون بكثرة .. وكان تكوين ثاني أكسيد الكربون هو العامل الأساسي في بدء الحياة النباتية بظهور النباتات التي يمكنها أن تمتصه من الجوّ وتحوله في وجود ضوء الشمس إلى مصدر للطاقة من المواد السكرية كما تحوله إلى بروتوبلازم

جديد تبني به أجسامها وكانت الطحالب هي البداية .

وبظهور الطحالب وتكاثرها بدأ عصر ظهور الأكسجين في الجوّ الذي أدّى تعرضه إلى الأشعة فوق البنفسجية إلى تكوين طبقة الأوزون التي كان لا بدّ من تكوينها لاستمرار الحياة على الأرض وفي المياه الضحلة للبحار، إذ أن طبقة الأوزون تقي الكائنات الحية من الأثر الضارّ للأشعة فوق البنفسجية ـ وبظهور الأكسجين أمكن للكائنات الحيوانية أن تبدأ في العيش .

وجدير بالذكر أن ما ذكره العلماء عن بداية الخلق كان يعتمد فقط على الإستنتاج المؤيد ببعض التجارب العلمية التي أمكن منها تحويل مزيج من الغازات المختلطة بالماء إلى جزيئات عضوية باستعمال التيارات الكهربية . وقد ظلّ هذا الاستنتاج نظريا فقط إلى عهد قريب إذ لم يتمكن العلماء من العثور على حفريات في صخور تلك الحقبة الأولى الموغلة في القدم التي تمثل بدء الحياة .

وفي سني الخمسينات من القرن الحالي أمكن للعلماء تأكيد صدق استنتاجهم بالعثور على حفريات ميكروسكوبية شبيهة بالبكتريا وبالطحالب في صخور هذه الحقبة في أستراليا وكندا وجنوب أفريقيا وكان عمر تلك الكائنات حوالي ثلاثة آلاف مليون عاما في صخور جنوب أفريقيا وألفي مليون عاما في صخور كندا .

وقد قدر الجيولوجيون عمر الحقبة الأولى بحوالي ثلاثة آلاف مليون عاما (بعد الألف مليون عديمة الأحياء) كانت الحياة فيها قاصرة على الماء . ويدلل العلماء على صحّة ما يقولون عن ظهور الطحالب وانتشارها لهذه المدة البالغة في الطول بأن خامات الحديد في معظم أنحاء العالم توجد في طبقات سميكة في صخور تلك الحقبة وهي صخور تتراوح أعمارها بين 1800 إلى 3200 مليونا من الأعوام وكان العامل الأول في تكوينها هو

وجود الأكسجين الذي تطلقه تلك الطحالب بعد أن تحصل على ثاني أكسيد الكربون من الجوّ إذ أن هذا الأكسجين قد قام بتحويل أملاح الحديدوز الذائبة في مياه المحيطات إلى أملاح الحديديك التي لا تذوب.

ذكرنا أن الحياة استمرت قاصرة على الماء في تلك الحقبة التي استمرت حوالي ثلاثة آلاف مليونا من الأعوام وسبحانه العلي القدير حين يقول «وهو الذي خلق السماوات والأرض في ستّة أيام وكان عرشه على الماء» (هود 7) وإن ظهور الطحالب قد أدّى بالتالي إلى بدء ظهور المخلوقات الحيوانية التي تعتمد في حصولها على الطاقة على أجسام تلك النباتات وعلى الأكسجين الذي تلفظه. لقد بدأت تلك المخلوقات بحيوانات أولية من خلية واحدة وعندئذ بدأ تكوين مملكة جديدة من الأحياء هي «المملكة الحيوانية» تنفصل عن «المملكة النباتية» وبدأ اعتماد كل منهما على الآخر في غذائه، وفي تبادل عاملي الحياة الرئيسيين ثاني أكسيد الكربون للنبات والأكسجين للحيوان وأجسام النبات كغذاء للحيوان ومتخلفات الحيوان كغذاء للنبات. وفي أواخر تلك الحقبة بدأ ظهور بعض حيوانات الإسفنج والمرجان والأسماك النجمية والديدان البحرية.

ويقول العلماء أيضا إن صخور تلك الحقبة تدل على أنها كانت فترة نشاط شديد للبراكين ولتكوين الجبال كما أن أعمدة مستمرة من البخار كانت تتصاعد نتيجة لسقوط الصخور المنصهرة في البحار ونتيجة لسقوط الأمطار الشديدة على الصخور الملتهبة وسبحانه وتعالَى إذ يقول:

«وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (فصلت: 10 ـ 11).

لقد قسم الجيولوجيون الزمن الذي مرت به الأرض إلى حقب وعصور وأوقات منذ بدء تكوين الأرض إلى اليوم، كما قام علماء الحفريات

بدراسة أشكال الحياة الحيوانية والنباتية من حفريات تلك الأزمنة وكانت النتيجة بصفة عامة كما يلي :

الحقبة قبل العصر الكمبري وهي أطول الحقب بدأت بعد حوالي ألف مليون عام من تكوين الأرض واستمرت حوالي ثلاثة آلاف مليونا من الأعوام (3000 مليون سنة) وجميع أحيائها كانت مائية ، بدأت بالكائنات الأولية والطحالب والبكتريا وانتهت ببعض الحيوانات والنباتات بسيطة التركيب مثل الإسفنج والمرجان والديدان البحرية والنباتات السرخسية،تلا ذلك الحقبة القديمة التي استمرت حوالي ثلاثمائة وسبعون مليونا من الأعوام (370 مليون سنة) بدأت بعصر اللافقاريات تلاها عصر الأسماك ثم عصر البرمائيات . بعد ذلك أتت الحقبة المتوسطة التي استمرت حوالي مائة وسبعة وستين مليونا من الأعوام (167 مليون سنة) واحتوت على عصر واحد هو عصر الزواحف ، وتلا ذلك الحقبة الحديثة وعمرها حوالي ثلاثة وستين مليون عاما (63 مليون سنة) وتشتمل على عصر الطيور والثدييات الذي ظهر في نهايته الإنسان .

لقد لاحظ العلماء أن الحياة بدأت بكائنات بسيطة تكوّن أجسامها من خلية واحدة ثم تطورت إلى كائنات عديدة الخلايا ازدادت في التعقيد شيئا فشيئا كما أن الحياة بدأت في الماء وعند انتقالها إلى الأرض لم تنتقل دفعة واحدة بل كان ذلك بطريق البرمائيات التي تقضي حياتها متنقلة بين الماء والأرض ، بين البحر واليابسة،وعند ظهور الحيوانات الأرضية أمكنها أيضا أن تغزو الجوّ المحيط عن طريق الطيور . ورغم أن الأرض قد خلقها الله سبحانه منذ حوالي 4600 مليونا من الأعوام خلق خلالها جلت قدرته ملايين الأنواع من الأحياء من النبات والحيوان إلا أن الإنسان لم يظهر على الأرض إلا منذ ما يقرب من مليون واحد من السنين أو أكثر قليلا .

إنني ادعو علماء الجيولوجيا وغيرهم إلى دراسة قوله تعالى :

« قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك ربّ العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين » (فصلت 9 ، 10) .

خلق الله الأرض في يومين وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام وربما أمكننا بالبحث التوصّل إلى مقدار كل يوم منها وما يساويه من الزمان . إذ يبدو أن اليوم[1]؛[2] فترة لها مقدارها الخاص بها في كل حالة على حدة . فقد جاء قوله تعالى : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » (الحج 47) . كما جاء أيضا « تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (المعارج 4) . بارك الله الأرض وقدر فيها أقواتها بأن وضع جلّ شأنه الناموس الذي تعيش عليه الأحياء في ميزان تتساوى كفتاه النبات والحيوان . فالنبات يأخذ غذاءه من المواد البسيطة الّتي يفرزها الحيوان ومن ثاني أكسيد الكربون في الجوّ ، ويستخدم ضوء الشمس في تكوين « جسده » وفي الحصول على الطاقة اللازمة لحياته ويطرد الأكسجين في الجوّ ، والحيوان يتغذى على النبات ليكوّن نفسه ويحصل على الطاقة اللازمة لحياته مستعملا الأكسجين الذي يلفظه النبات وفي نظير ذلك يمد النبات بالمواد البسيطة يمده بفضلاته وبرفاته المتحلل كما يمده بزفراته من ثاني أكسيد الكربون الذي هو ليس في حاجة إليه. تبادل

---

(1) يقول موريس بوكاي (دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة) بينما التوراة تتفق مع القرآن الكريم على أن الله سبحانه خلق السماوات والأرض في ستة أيام إلّا أن التوراة تحدد اليوم بيومنا الحالي بعكس القرآن الذي يتّضح مع آياته أن المقصود ستة مراحل أي فترات طويلة أو عصور » وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف في القرآن أي خطأ » .

(2) أقول ـ هل اليوم هو 24 ساعة دائما ؟ ـ اليوم على الأرض يقدر بالمدة الّتي تنقضي بين بزوغ الشمس (أو غروبها) مرتين متتاليتين وعلى هذا الأساس فإن اليوم في القطبين الجنوبي والشمالي يساوي سنة واحدة . وربما كان اليوم قبل أن تتّخذ الأرض مدارها وتأتي طائعة للرحمن يُعَدُّ بملايين السنين .

وتكامل في النفع وقسمة عادلة وميزان سوي ألم يقل المولى سبحانه « وقدر فيها أقواتها سواء للسائلين » . سواء لكل من يسأل ، كل كائن يجد غذاءه وقوت يومه سواء أكان هذا الكائن نباتا أم حيوانا.لقد بارك الله الأرض وما عليها ثم استوى إلى السماء بعد أن قدر سبحانه لمخلوقاته أقواتها ووضع فيها سرّ البقاء سرّ العيش سرّ التقدم سرّ التغلب على كل صعب سرّ إيجاد الحل لكل ما يعرقل مسيرة خضم هائل من الأحياء في طبيعة جبارة متقلبة إلى يوم الدين إلى أبد الآبدين .

نتنقل الآن إلى لبّ القضية ، هل خلق الله سبحانه مخلوقاته بما فيها الإنسان كل نوع على حدة ؟؟ .. يقول داروين ببساطة إن أنواع الكائنات الحية قد خلقها الله سبحانه وتعالى متسلسلة من بعضها البعض أي أنها تطورت من بعضها البعض عن طريق الانتخاب الطبيعي .

ويفسر ذلك بقوله إن الطبيعة أي الظروف البيئية في تغيير مستمر وتحت هذه الظروف المتغيرة يكون بقاء الأحياء للأصلح ، فالأنواع التي تحمل صفات ملائمة للبيئة الجديدة تبقى وتعيش وتخلف ، أما الأنواع التي لا تتلاءم الصفات التي تحملها مع تلك البيئة فتموت وتندثر ولا تنسل .

أسمع الآن صوت المعترضين صوتا عاليا مزمجرا بل زئيرا صاخبا مستنكرا ولكن مهلا قبل أن نناقش صلب القضية أود أولا أن نحتكم إلى البلاغة والأدب في لغة العرب،يقول جلّ شأنه :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

فبالله عليكم ألا يعني ذلك القول أن الخلق جميعه أي مخلوقات الله جمعاء من نبات وحيوان وإنسان مهما تعددت أشكالها وأنواعها وصفاتها قلّ هذا العدد أم كثر وهو بحمد الله وبفضله ونعمته كثير لا يحصى . ألا يعني أن جميع تلك المخلوقات لها بداية واحدة. ولما كان من البدهي أن لكلّ بداية نهاية أو عدة نهايات،أفلا يعني ذلك أن تلك النهاية أو النهايات لا بد أن

تكون قد تفرعت عند نقطة ما أو عند نقط متعددة من أصل يعود إلى الوراء إلى نقطة الانطلاق ، نقـطة البدايــة ؟ ؟ ولأسهل عليكم تخيل ما أقول: لو افترضنا أن لدينا شجرة من الأشجار نبتت من بذرة واحدة أخرجت ساقاً تفرعت إلى فروع كبيرة كل منها تفرع إلى فريعات أصغر وأصغر ثم إلى أغصان تحمل عددا لا نهائيا من الأوراق والبراعم والأزهار والثمار أفلا يمكننا أن نجزم الآن بأن أي ثمرة أو ورقة أو زهرة أو غصن يمكن أن نعود بها إلى الوراء خطوة بخطوة لتتصل بالأصل لكي تصل إلى نقطة البدء إلى بذرة وضعت في الأرض .

ولنضرب مثلا آخر، إذا قلت لك على سبيل المثال والآن سنبدأ القصة : ألا يعني ذلك أن هناك أحداثا معينة قد حدثت وأن تلك الأحداث بدأت بداية واحدة وأن تلك الأحداث مهما تعددت وتفرقت وتشعبت ومهما طال بها الأمد ألف ليلة وليلة أو ألف سنة وسنة فإنها تتصل ببعضها البعض في سلسلة وربما في سلاسل عديدة ولكنها متصلة سواء أكان ذلك الاتصال قريبا من النهاية أم قريبا من البداية لكي تتبع جميع أحداثها من نقطة البداية .

هذا بالضبط ما يعنيه قوله تعالى انظروا كيف بدأ الخلق .. إنه يعني أن مخلوقات الله جميعا التي لا تعد ولا تحصى بما فيها الإنسان بدأت بداية واحدة ثم تفرعت عدة فروع ورغم ذلك تتصل جميعها ببعضها البعض ، إذ لو كان كل نوع من تلك المخلوقات خلق منفردا لا اتصال بينه وبين غيره لتعذر علينا معرفة أي منها قد سبق غيره وأي منها كان بداية الخلق . لقد قال سبحانه سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأت الخلق ولم يقل عزّ شأنه أنظروا كيف بدأت المخلوقات .. فيكون في ذلك ظل من الشك في أن المخلوقات بدأت بدايات منفصلة .. إن هذه الآية الكريمة وحدها تعني صحة ما ينادي به داروين الذي يقول إن المخلوقات جميعها قد تطورت

من بعضها البعض ولو كان داروين مسلما أو لو كان اطلع على القرآن لشهر تلك الآية الشريفة في وجه المعترضين على نظريته ولقال بصوت جهوري إن ما أقول به قد جاء في كتاب الله الكريم على لسان نبيه الأمين محمد صلوات الله عليه . إن ما جاء بالقرآن الكريم يعني أن مخلوقات الله جميعا من القطط والكلاب من الخيل والحمير والبغال، من النمور والأسود والفهود، من السحالي والثعابين، والدناصير والحرباء، من الحدأة والغربان، من الفئران والجرذان والإنسان ، في كل زمان ومكان، تتصل ببعضها البعض وتنحدر جميعها من أصل واحد، كما ينحدر منه العنب والرمان والريحان واللؤلؤ والمرجان .. فبأي آلاء ربكما تكذبان .

يقـــول سيد قطـــب (في ظـــلال القران) :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » إن التعبير هنا بلفظ الماضي كيف بدأ الخلق بعد الأمر بالسير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق يثير في النفس خاطرا معينا . ترى هنالك في الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى وكيفية بدء الخليقة فيها كالحفريات التي يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط الحياة كيف نشأت ؟ وكيف انتشرت ؟ وكيف ارتقت ؟ ... وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سرّ الحياة : ماهي ؟ .. ومن أين جاءت الأرض ؟ .. وكيف وجد فيها أول كائن حي ؟ .

ويكون ذلك توجيها من الله سبحانه وتعالى للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال عند معرفتها على النشأة الآخرة ...

ويقوم بجانب هذا الخاطر خاطر آخر ..

ذلك أن المخاطبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثا ، فلم يكونوا بمستطيعين يومئذ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به ـ لو كان ذلك هو المقصود ـ فلا بد أن القرآن كان

يطلب منهم أمرا آخر داخلا في مقدورهم . يحصلون منه على ما ييسر لهم تصور النشأة الآخرة ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان ويكون السير في الأرض كما أسلفنا لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة ودعوتها إلى التأمل والتدبر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظة من الليل والنهار .

وهناك احتمال أهم يتمشّى مع طبيعة هذا القرآن وهو أنه يوجه توجيهاته التي تتناسب وحياة الناس في أجيالهم جميعا ومستوياتهم جميعا وملابسات حياتهم جميعا ووسائلهم جميعا ليأخذ كل منها ما تؤهله ظروف حياته ومقدراته ويبقَى فيها امتداد يصلح لقيادة الحياة ونموها أبدا ومن ثم لا يكون هناك تعارض بين الخاطرين. هذا أقرب وأولى » .

لقد أثارت نظرية داروين العالم بأسره من علماء الدين إلى رجال العلوم . نشر داروين كتابه « نشوء الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي » في عـــام 1859 وكان عمره حينذاك واحدا وخمسين عاما غير أنه أسس نظريته بعد أن قام برحلة حول العالم في باخرة تدعَى « بيجـــل » وكان عمره وقتذاك تسعة وعشرين عاما ظلّ بعدها مدة اثنين وعشرين عاما يبحث وينقب ويجمع الأدلة على صدق نظريته .

استمد داروين نظريته من أسس معينة جمع خيوطها من نواح عدة :
أولها : أساس جيولوجي إذ أن قشرة الأرض التي نعيش عليها الآن هي نتيجة تغيرات مضت وتلاحقت حقبة وراء حقبة منذ ملايين السنين فمياه الأنهار ومجاري المياه تدفع في حركتها المستمرة أجسام الشواطيء والجبال وتنحت فيها وتقوم بترسيب تلك الأجسام في قاع المحيطات والبحار التي تتحول تحت الضغط الهائل والزمن الطويل إلى صخور كما أن البراكين الثائرة واندفاع الصخور والحمم من باطن الأرض ينشأ عنها الجبال كما ينشأ عنها الزلازل.

الثاني : مستمد من علوم الأحياء إذ أن المشتغلين بتلك العلوم قد رأوا منذ زمن بعيد أن الحيوانات وكذا النباتات يمكن ترتيبها في سلسلة متدرجة من البساطة إلى التعقيد ومن العمومية إلى التخصص. علاوة على ذلك فإنه توجد علاقة بين الكائنات تعتمد على صفاتها التشريحية وعن طريق تلك الصفات يمكن ترتيب تلك الكائنات ترتيبا متصلا يدلّ على قرابتها لبعضها البعض ومن أمثلة ذلك أن ذراع الإنسان والرجل الأمامية للحصان أو القط وجناح الخفاش والزعنفة الأمامية لكلب البحر تماثل عظامها بعضها البعض عظمة وراء عظمة . مما يدل على قرابة هذه الكائنات .

علاوة على ذلك فإنه في بعض أنواع الحيوانات قريبة الشبه من بعضها أمكن العثور على معابر أو كباري بين تلك الأنواع .. ومن أمثلة ذلك الغنم والماعز فقد اكتشفت أنواع من الماعز البرية قريبة الشبه بالغنم ومن أمثلة ذلك المعابر التي اكتشفت بين الفئران والجرذان .. كما وجدت تلك المعابر في كائنات أخرى من الحشرات والطيور والقشريات .

نقول إن علماء الحيوان والنبات قد لاحظوا ـ وقبل أن ينشر داروين عن نظريته بوقت طويل ـ أوجه الشبه وأوجه الخلاف بين الكائنات فمنها ما هي شديدة الشبه مثل الحصان والحمار أو الكلب والذئب ، أو القط والنمر .. ومنها ما هي بعيدة الشبه مثل الحصان والدجاجة ، أو الثعبان والسمكة ، أو أم الخلول والفراشة . ومن البديهي أن الحيوانات شديدة الشبه لبعضها البعض تكون في نفس الوقت أكثر قرابة وبمعنى آخر تنحدر من أصل أكثر قربا بنفس الطريقة التي يكون فيها الأشقاء الذين ينحدرون من أب واحد أشدّ شبها من أبناء العم الذين ينحدرون من جد واحد وهؤلاء أشدّ شبها من أبناء أبناء العم الذين ينحدرون من جد أكثر بعدا وهكذا.

وعلى هذا الأساس قد أمكن لعلماء الحيوان والنبات أن يقسموا الأحياء إلى مملكتين « النبات والحيوان » ، وكل مملكة قسمت إلى تحت

مملكة ثم إلى قبائل وهذه إلى تحت قبائل ثم إلى رتب فعائلات فأجناس إلى أن نصل إلى النوع كالحصان أو الكلب أو التمساح إلى غير ذلك من الحيوان أو الكمثرى والقطن والعدس والبصل وغيرها من النبات .

علاوة على ذلك فقد تأكد لعلماء الحفريات أن أنواع النبات وكذا الحيوان التي عاشت في طبقات الأرض السحيقة القريبة من المركز وبالتالي أقدم الكائنات كانت أولية بسيطة التركيب .. وكلما اتجهنا إلى الطبقات العليا وبالتالي إلى الأحدث كلما كانت تلك الكائنات أكثر تعقيدا . هذا بالإضافة إلى ما وجدوه من أن كثيرا من تلك الكائنات قد انقرضت في طبقة معينة ليظهر بعدها كائنات جديدة وكان ظهور الكائنات الجديدة مرتبطا بتغيير جوهري في سطح الكرة الأرضية حدث في تلك الأزمنة أدى بالتالي إلى تغيير جوهري في الظروف البيئية .

إن الآلاف من الحفريات التي عثر عليها وأمكن دراستها قد لوحظ فيها تدرجا في صفاتها وقد اشتملت هذه الحفريات على العظام أو الأسنان أو الأصداف أو الحيوانات الكاملة التي عثر عليها في الجليد وكذا الجمال والزراف والنمور التي وجدت في حفر القطران والنباتات المتحجرة . وكذا السرخسيات التي وجدت في مناجم الفحم، ومنها أيضا الحشرات والعناكب التي وجدت محفوظة في الكهرمان من إفراز بعض الأشجار وكلها توضح التطور الذي حدث للمخلوقات. ولعل أكثر هذه الأنواع إيضاحا كان التطور التدريجي الذي حدث للحصان . لقد بدأ ذلك المخلوق بحجم يقرب من الكلب له رأس قصير وله أربعة أصابع في رجليه الأماميتين وثلاثة في رجليه الخلفيتين وقد أخذ ذلك الكائن يكبر في الحجم تدريجيا ، كما فقد ثلاثة أصابع من رجليه الأماميتين واثنين من رجليه الخلفيتين لينتهي به المطاف في مدة تقدر بستين مليونا من الاعوام إلى الحصان الحالي الذي يزهو بجماله وسرعته .

هل لهذا القول الذي ينادي به علماء الجيولوجيا وعلماء الحفريات سند من القرآن الكريم . فلنستمع إلى قول العليم الخبير « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير » (الطلاق 12) .

فما تفسيرأن الله سبحانه خلق سبع أراض . يقول العلامة محي الدين بن عربي (تفسير القرآن الكريم الجزء الثاني) « إن أخذنا السماوات بمعناها الظاهر فالأراضي السبعة هي طبقات العناصر المشهورة فإنها قوابل بالنسبة للمؤثرات فهي أرضها التي نتزل عليها منها الصور الكائنة وهي النار الصرفة والطبقة الممتزجة من النار والهواء المسماة كرة الأثير التي تتولد فيها الشهب وذوات الأذناب والذوائب وغيرها وطبقة الزمهرير وطبقة الصعيد والماء المشمولة للنسيم ، الشاملة للطبقة الطينية التي هي السادسة وطبقة الأرض الصرفة عند المركز ، وإن حملناها على مراتب الغيوب السبعة المذكورة من غيب القوى ، والنفس ، والعقل ، والسر ، والروح ، والخفاء ، وغيب الغيوب . أي عين جميع الذات ، فالأرضون هي الأعضاء السبعة المشهورة» .

ويقول عبد الكريم الخطيب (الإنسان في القرآن الكريم من البداية إلى النهاية) « الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن . هو عرض لقدرة الله وبسطة سلطانه على هذا الوجود وأنه سبحانه خلق سبع سماوات ومن الأرض سبع أرضين . وليست المثلية التي بين السماوات والأرض مثلية في القدر والحجم وإنما هي مثلية في التنوع والاختلاف فكما أن لكل سماء نظاما مختلفا عن الأخريات كما وكيفا كذلك لكل إقليم من أقاليم الأرض أو كل طبقة من طبقاتها نظام يختلف عما سواه قدرا وكيفا » .

وجاء في مختار بتفسير القرطبي (توفيق الحكيم 1977) « والله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن ».. ومن الأرض مثلهن يعني سبعا

واختلف فيهن على قولين : أحدهما وهو قول الجمهور .. أنها سبع أرضين طباقا بعضها فوق بعض بين كل آرض وأرض مسافة كما بين السماء والسماء وفي كل أرض سكان من خلق الله. وقال الضحاك «ومن الأرض مثلهن» أي سبعا من الأرضيين ولكنها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السماوات.والأول أصح لأن الأخبار دالة عليه في الترمذي والنسائي وغيرهما. قال الماوردي: وعلى أنها سبع أرضين بعضها فوق بعض تختص دعوة أهل الإسلام بأهل الأرض العليا ولا تلزم غيرها من الأرضين وإن كان فيها من يعقل من خلق مميز. قول ثالث حكاه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنها سبع أرضين منبسطة ليس بعضها فوق بعض تفرق بينها البحار وتظلّ جميعها السماء».

وفي رأيي أن الله سبحانه وتعالى يقول إنه « خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » كما يقول « الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » (الملك 3) ويقول أيضا « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا » (نوح 15) .

ويعني ذلك أن السبع أراضي لا بد أن تكون أيضا سبعا طباقا وبذلك تكون فوق بعضها البعض . وهذا مشابه لما يقوله الجيولوجيون والحفريون إذ أن كل حقبة أو عصر من الأحقاب أو العصور كانت تعلو حقبة أو عصرا سابقا وكل منها كان لها أحياؤها التي تعيش في أرضها وأقدم هذه الأراضي هي التي كانت فيها الحياة قاصرة على الماء وآخر هذه الأراضي هي أرضنا الحالية التي نعيش فيها . كان الله سبحانه يغير الأرض غير الأرض بالعوامل المختلفة من براكين وزلازل وغيرها تأتي بعاليها سافلها ويعيش عليها أحياء جدد يمكنهم أن يعيشوا في بيئتهم الجديدة. هل يعني ذلك أنه لا يوجد ارتباط بين هذه الأحياء وأن كل أرض لا صلة لأحيائها بأحياء الأرض التي تليها.الإجابة على ذلك، هو أنه يوجد ارتباط وذلك الارتباط هو التطور

فالبرمائيات مثلا نشأت من الأسماك وتطورت إلى الزواحف وتلك إلى الطيور والثدييات . هل يعني ذلك أن ديناصورا من الزواحف قد انقلب بين يوم وليلة وتضاءل في الحجم حتّى أصبح دجاجة تصيح أو ديكا يؤذن . نقول كلا .. ونقول هنا يبرز عمل الخالق الأكبر عمل المخطط الأعظم الذي يخطط الكون ويخلق ما لا تعلمون . فعند نهاية عهد الزواحف مثلا كانت توجد زاحفات ليست هي ديناصورات بل تشترك معها في صفاتها الزاحفة كما كانت تمتلك صفات أخرى ليست موجودة في تلك الديناصورات وتلك الصفات كانت تؤهلها أكثر من غيرها لأن تعيش في بيئة جديدة ستتغير إليها طبيعة الأرض، أي أن الله سبحانه كان يعد تلك المخلوقات الزاحفة التي لم يكن لها شأن يذكر بجوار الديناصور الجبار لكي ترث الأرض في المستقبل قريبا أو بعيدا . كان يعد حيوانات ما ، تحمل بعض صفات الزواحف ، وتحمل صفات مبدئية للطيور أو الثدييات لكي تكوّن حيوان المستقبل والذي ستبدأ منه أنواع جديدة متعددة تتطور هي الأخرى من بعضها البعض ولذلك يقول لنا جلت قدرته (رغم أن الأرض هي في الواقع سبع أراضي) سيروا في الأرض وانظروا كيف بدأ الخلق لم يقل سبحانه سيروا في كل أرض لأن الحياة فيها جميعها متصلة غير متقطعة. لقد عثر الحفريون على سبيل المثال على طائر يسمى أركيوبتركس Archaeopteryx في بافاريا.. يحمل أجنحة كالطير ، ولكن تلك الأجنحة تحمل مخالبا كما أن فمه يحمل أسنان الثعابين والتماسيح .. ويمثل هذا الطائر وأشباهه حلقة بين الزواحف والطيور .

وفي ديسمبر (1938) عثر أحد الصيادين على سمكة في أحد سواحل جنوب أفريقيا طولها حوالي خمسة أقدام ووزنها حوالي مائة رطل كان لها أرجل تمشي بواسطتها في الطين خارج الماء وكان لها رئات تتنفس بها الهواء،

انقرض هذا الحيوان منذ سبعين مليونا من الأعوام واعتبر ذلك الكائن حلقة بين الأسماك والبرمائيات .

نتحدث عن عصر الزواحف أو عصر البرمائيات مثلا .. فهل يعني ذلك أنه لم يوجد في كل منهما غير الزواحف أو البرمائيات .. الإجابة كلا طبعا بل يعني ذلـــك أن الغالبية العظمى للأحياء كانت من أي منهما. وإذا انتهى عصر الزواحف وبدأ عصر الطيور أو الثدييات فهل يعني ذلك أن جميع الزواحف قد انقرضت ... نجيب كلا أيضا إذ أن الزواحف التي تمتلك من الصفات ما يمكنها من العيش في البيئة الجديدة تستمر في العيش دون أن تتطور مثل الثعابين أو السحالى أو التماسيح أو غيرها التي لا زالت موجودة إلى الآن بل أن الطحالب وكذا البكتريا وعمرها حوالي 3500 مليونا من الأعوام لا زالت موجودة للآن . ولعلّ هذا يجيب على من يتساءل هل الثعبان سينقلب إلى حمامة أو إلى طاووس ؟ ؟ .

بقيت نقطة هامة يجب أن نعيها في أذهاننا وهي أن ذلك التطور الذي تسير في طريقه الأحياء لا يحدث في سنة أو عشرة أو خمسين بل يحدث في ألوف وربما في ملايين السنين ولذلك لا يمكن للإنسان أن يلحظ خطاه .. إنني أدعو علماء الجيولوجيا والحفريات إلى التدبر في قول المولى سبحانه إنه خلق سبع أراضي لعل في ذلك القول هداية لهم في تأكيد تقسيمهم للأحقاب والأزمنة عبر الحياة .

ربّ قائل يقول حتّى لو كان هناك شبه بين ذراع الإنسان والرجل الأمامية للكلب أو للقط وجناح الخفاش ، وشبه آخر بين الفقرات في ظهور الحيوانات الفقارية وبين فقرات الإنسان وحتّى لو كان هناك شبه آخر في الأجهزة الهضمية والدورية والتناسلية وغير ذلك في الحيوانات الثديية وفي الإنسان فإن ذلك لا يعني أن تلك الكائنات تطورت من بعضها البعض أو أن لها أصلا واحدا في الماضي السحيق ويرد العلماء

المشتغلون بعلم التشريح المقارن بقولهم لو أن هذه الكائنات خلقت خلقا منفردا كل نوع على حده فلماذا نفسر وجود ما يسمّى بالتراكيب الأثرية وهي أعضاء توجد تامة التكوين في حيوانات معينة ولكنها توجد ضامرة غير عاملة في حيوانات أرقى منها،ومن أمثلة تلك الأعضاء العضلات التي تحرك الأذن في الحيوانات الثديية مثل الخيل والحمير والأرانب .. إذ أن تلك العضلات موجودة في الإنسان ولكنها أثرية لا تستطيع أن تحرك الأذن (إلا في النادر من الأفراد) . ومن أمثلتها أيضا الذيل فهو عضو له أهميته ووظيفته في معظم الثدييات ولكنه أثري في الإنسان تدل عليه الفقرات العصعصية .. كما أن بعض الأفراد يولدون بأذيال تزال بعملية جراحية بسيطة . إن وجود هذا الذيل الأثري في الإنسان دليل على أنه قد انحدر من أصل له ذيل ، ولو أن الإنسان خلق أول ما خلق على صورته الآدمية الحالية لما كان هناك ما يدعو إلى خلق تلك الأعضاء المضمحلة التي لا وظيفة لها .

ولنستمع أيضا إلى علماء الأجنة الذين يقولون إن جنين الإنسان في رحم أمه في أدوار حياته الأولى لا يمكن تمييزه عن جنين الدجاجة أو السمكة أو الضفدعة أو الفيل فهو يمتلك فتحات خيشومية شأنه شأن جنين السمكة ويمتلك ذيلا شأنه شأن جنين باقي الحيوانات الثدية فتلك الأجنة جميعها تبدأ بنطفة أمشاج من الذكر والأنثى تثبت نفسها في جدار الرحم في الحيوانات الولودة لتصبح علقة ثم مضغة ثم يظهر بعد ذلك قضيب من الخلايا يصبح فيما بعد السلسة الفقرية ويتلو ذلك تشكل الجنين كل حيوان حسب نوعه .

وسبحان من يقول « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » (النور 45) ، ومن يقول « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم

جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر» (المؤمنون 12 ـ 14) .

هل تعتقد يا عزيزي القارىء أنك أنت الوحيد من مخلوقات الله الذي خلق بهذه الطريقة.. كلا.. فالله سبحانه يقول إنه خلق كل دابة من ماء وهو الماء المهين.. هو النطفة .. لكل حيوان نطفته .

شكرا لله جلت قدرته الذي أخفَى ذيولنا في بطون أمهاتنا ولكن ينبغي لنا ألاّ نتيه زهوا وخيلاء فننسَى في غمرة الفرح منشأنا من الحيوان .

* * * من كل ما تقدم ... هل يمكننا أن نجيب على السؤال الخالد «كيف بدأ الله الخلق ؟ » . لعلّ الإجابة :

لقد بدأ سبحانه الخلق جميعه بداية واحدة من الترّاب من الطين من الأرض ، كشجرة واحدة انقسم ساقها إلى جذعين أحدهما «النبات» والثاني « الحيوان » وتفرع كل جذع إلى فروع وتلك إلى فريعات أصغر وأصغر انتهت بالأنواع ومن الطبيعي أن تلك الأنواع منها ما هو قريب لبعضه البعض ، ومنها ما هو أشد قرابة ، ومنها ما تنتمي قرابة أحد أنواعه لنوع آخر إلى جدّ بعيد . والإنسان أحد أنواع الحيوان شأنه شأن غيره من تلك الأنواع .. له أقرباؤه المقربون من الذين ينحدرون معه من أصل واحد قريب ويعود إلى الوراء، إلى الماضي البعيد، إلى مبدأ الحياة جميعها إلى كائنات خلقت من الطين ، خلقت من خلية واحدة هي أصل الحياة هي بداية الخلق . وفي ذلك يقول العزيز الحكيم :

«والله أنبتكم من الأرض نباتا » (نـــوح 17) .

« مالكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا » (نـــوح 13 ـ 14) .

كيـــــف يحدث التطور ؟ ؟ ؟

يجيب العلماء على ذلك بأن الطريق الرئيسي والدعامة الأساسية للتطور هو تكاثر الأحياء تكاثرا جنسيا بالذكور والإناث .

« سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض » (يس 36) .

« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى » (النجم 45 ـ 46) .

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا » (فاطر 11) .

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها » (الروم 21) .

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الأحياء في كل نوع ذكورا وإناثا بحيث يختلف أفرادهم بعضهم عن الآخر ومعنى ذلك أن كل فرد من كل نوع يحمل صفات تختلف عن صفات الفرد الآخر من نفس نوعه .. وتلك الصفات تنشأ من العوامل الوراثية التي تحمل على كروموزومات زوجية في الخلايا ، وعندما يصل الكائن الحي إلى دور البلوغ مكونا الخلايا الجنسية التي يسمّى كل منها بالنطفة ويمثلها الحيوان المنوي في الذكر والبويضة في الأنثى ، تتفرق تلك العوامل في النطف ثم تتجمع ثانيا في النطف الأمشاج التي تنتج أفراد الجيل التالي .. وبتفرق عوامل الوراثة واعادة تجمعها تتكون في الأجيال التالية صفات جديدة كمثل زوج وزوجة عيناهما بنيتان ينجبان ولدا أزرق العينين .. وقد سبق أن أوضحنا .. كيف أن رجلا واحدا وامرأة واحدة يمكنهما من الوجهة النظرية أن ينجبا من الأطفال أشكالا مختلفة يبلغ عددها سبعة آلاف مليون مليون شكلا .

يقول العلماء .. علاوة على ذلك .. إن العوامل الوراثية للصفات تختلف في ثباتها فبعضها يميل إلى التغيير أكثر من غيره وعلى ذلك فعدم ثبات

تلك العوامل يؤدي إلى ظهور صفات جديدة وتلك الصفات تسمّى « الطفرات » .. ولما كان جيل الآباء في كل نوع ينتج عادة عددا أكبر من الأبناء فإنه يتلو ذلك أن يزداد تعداد المجتمع في النوع الواحد جيلا بعد جيل مما يؤدي إلى التزاحم والتنافس وعندئذ يتغلب في هذا الصراع من يحمل الصفات الأنسب للبيئة فإذا ظهرت طفرة جديدة مفيدة يعيش من يحملها ويندثر في النهاية من لا يحملها وهذا ما يعبر عنه بتنازع البقاء أولا .. ثم البقاء للأصلح ثانيا . لنضرب لذلك مثلا بسيطا لقد وجد مربّو ذباب الدروسوفيلا في معامل التربية أن كثيرا من الطفرات تظهر في الأجيال المختلفة ، وتتضمن هذه الطفرات أن تظهر أفراد بغير أجنحة.فلو فرضنا أن ذباب الدروسوفيلا قد انتقل إلى شاطىء جزيرة من الجزر حيث الرياح الشديدة تهب بين الحين والحين لتأخذ الكثير من الكائنات وتلقي بها في عرض البحر، عندئذ نرى أن أفراد الذباب التي لا تملك أجنحة لديها الفرصة في العيش والتكاثر في تلك البيئة أفضل من الأفراد المجنحة التي تذروها الرياح بسهولة إلى عرض البحر وهذا يؤدي في النهاية إلى ظهور نوع من الذباب غير المجنح في تلك الجزيرة .

وهذا بالضبط ما وجده داروين في رحلته البحرية على الباخرة « بيجل » حيث لاحظ الخلافات بين الحيوانات والطيور التي تعيش في داخل الجزر عن أقربائها الذين يعيشون على شواطئها أو الشواطىء المقابلة لها . وبالمثل قد اتضح أن الحيوانات التي تعيش في مناطق منعزلة تحيطها الصحاري أو الجبال أو الأودية السحيقة أو غيرها تختلف عن أقربائها في المناطق التي تجاورها . فإذا علمنا أن وجه الكرة الأرضية كان في تغير وحركة دائمة فلا شك أن انعزال جزء من مجتمع أى نوع في بيئة جديدة يؤدي في النهاية إلى تغير في صفات النوع الأصلي وظهور نوع جديد .

وبذلك يمكننا أن نتصور أن ظهور طفرة جديدة في أسماك تعيش في

الماء بأن تمتلك زعانف ذات عضلات تمكنها من السير في الطين ورئات تمكنها من التنفس في الهواء سوف يؤدي شيئا فشيئا على فترة طويلة من الزمن إلى ظهور نوع من البرمائيات (يعيش في البر والبحر) سوف يتطور هو نفسه مستقبلا إلى أنواع عديدة أخرى . ذلك هو الإطار العام لعمليات التطور في الكائنات .

ويجب أن نوضح ثانيا أن دعامة التطور أن البقاء للأصلح وليس للأقوى ... يتساءل الدكتور « مصطفى محمود » (لغز الحياة) « لماذا يخرج من عائلة الحمار شيء كالحصان ، أو من فصيلة الوعل شيء رقيق كالغزال .. الحصان ليس أكثر احتمالا من الحمار بل هو على العكس أقل جلدا واحتمالا ، والغزال بالمثل أضعف وأرهف وأقل جلدا من الوعل ، وبالمثل الفراش الملون الرقيق أبطأ وأضعف وأقل قدرة من الزنبور الطنان الغليظ الشكل ، والحمام واليمام والطواويس والعصافير الملونة أكثر رهافة من الصقور والحدادى والنسور .. ونشوء هذه الأنواع لا يمكن أن يفسره بقاء الأصلح وإنما هو قانون آخر هو بقاء الأجمل ...
أى حوافز هذه التي تؤثر في التطور وتخلق هذه الصور الفاتنة وما دوافعها . داروين لا يتكلم ونظريته لا تجيب » .

ونجيب على لسان داروين .. إنه يقول البقاء للأصلح وليس بالضرورة أن يكون الأقوى هو الأصلح وإلا لما اندثر الديناصور الهرقل الجبار ولما استمرت السلحفاة في الحياة إلى الآن . أو لقضى الأسد على جميع حيوانات الأرض ، وقضى النسر على طيورها .

إننا نعلم في تاريخ تطور القرود أنه عندما ظهرت الأنواع التي كانت تستعمل يديها وسيلة للانتقال بالتأرجح بين فروع الأشجار كانت القرود القوية الضخمة تسقط على الأرض نتيجة تكسر الفروع تحت وطأة وزنها الثقيل فتتلقفها الوحوش الضارية التي كانت تنتظرها على الأرض. ومعنى

ذلك أن القرود الصغيرة كانت أصلح للبقاء.

إذا كان الحمار أكثر جلدا من الحصان فإن الحصان أكثر سرعة ، وإذا كانت الفراشة الملونة الرقيقة أضعف من الزنبور الطنان فإن لون الفراشة الجميلة الرقيقة يمكنها من تضليل أعدائها لمحاكاتها للزهور والأوراق . إن لكل كائن بيئته الخاصة الضيقة التي يعيش فيها،فالأسد لا يمكنه أن يعيش في الصحراء منافسا للجمل والحمار لا يمكنه أن ينافس الحصان في العيش في البراري .

وقياسا على ذلك .. هل يتمكن رجل قوي البنية مفتول العضلات « مبروم الشنبات » مزهو بقوته أن يسكن رغم أزمة المساكن الطاحنة في بيت نملة ضعيفة أو حتّى في واد للنمل . ومن قال إن ضعيف البنية لا بد أن ينقرض من الوجود .. ألا يعني هذا أن ينقرض القوي عندما يأتي اليوم الذي لايجد فيه فريسته الضعيفة فيموت جوعا .

وإذا تحدثنا عن الحصان والحمار والوعل والغزال .. فهل انقرض الحمار بظهور الحصان ، أو الوعل بظهور الغزال .. وهل كل مخلوقات الله جميلة ؟ .. أين هو الجمال الذي نراه في القنفد أو في القملة أو البقة أو الحدأة .. وهل تبدو الضفدعة ملكة من ملكات الشياكة والجمال .

إن الله سبحانه قد خلق القبح كما خلق الجمال بل لا بد من وجود القبح لنتمتع بالجمال . ولو كان الله سبحانه قد خلق جميع النساء سابحات فاتنات أو جميعهن « مارلين مونرو أو اليزابيث تيلور » لما كان للجمال أى معنًى ولما أحسسنا بوجوده وبنعمة خلقه .

ان داروين يقول إذا كان الأجمل هو الأنجح للعيش في بيئة معينة فسوف يندثر القبيح ويبقَى الجميل بصرف النظر عن جماله ، وبنفس القدر إذا كان الأقبح هو الأصلح للبقاء في تلك البيئة فسيبقَى القبيح ويندثر

الجميل رغم جماله .. إن الحوافز والدوافع التي يتساءل عنها الدكتور مصطفَى محمود هي نفسها دوافع خلق هذا الكون بأحيائه المتعددة المتنوعة، كل يجد مسكنه ومأواه وكل يجد غذاءه في توازن داخلي في النوع الواحد وتوازن خارجي بين الأنواع .. تلك الحوافز والدوافع تكمن في قول العزيز الحكيم :

« وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (الأنعام 38) .

« إنّا كل شيء خلقناه بقدر » (القمر 49) .

« وخلق كل شيء فقدره تقديرا » (الفرقان 2) .

« قد جعل الله لكل شيء قدرا » (الطلاق 3) .

« وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » (العنكبوت 60) .

من كل ذلك نرى أن الله سبحانه وتعالى خلق كل كائن حـي وزوده بصفاته التي تمكنه من الحياة ومن التطور المستمر لملاءمة العيش في بيئة متغيرة غير مستقرة . فبالله عليكم من الذي أوجد تلك الصفات ومن الذي خلق عواملها ومن الذي يخطط لمسارها . أليس هو الله خالق الكون وخالق الأحياء . إنني أتساءل أيهما أقدر وأمهر؟ من يخلق شجرة تزهر وتينع في الربيع والصيف فإذا حل الشتاء ماتت وذهبت إلى خالقها فيقوم بخلق غيرها من جديد .. أم من يخلق شجرة إذا حل عليها الشتاء تكيفت مع بيئتها فنامت واستكانت وخلعت رداءها من الأوراق ثم استردت بعد ذلك نشاطها واستيقظت وتزينت بثوب جديد عندما يزول عنها غمة البرد والجليد . أيهما أقدر وأمهر؟ من يخلق أحياء يمكنها بنفسها أن تتغلب على عقباتها وصعابها بما يخلقه فيها من صفات بحيث يسير ركبها من البدء إلى المنتهَى .. أو من يخلق أحياء تموت عند أول عثرة ليضطر إلى خلق أحياء

أخرى تموت عند كل عقبة تالية . أيهما أقدر وأمهر ؟ من « يصنع الشربات أو من يصنع من الفسيخ شربات » كما نقول في أمثالنا البلدية .. مع المعذرة .

إنني أقول لمن يدعي أن الله سبحانه وتعالى قد خلق كل نوع من مخلوقاته بمنأى عن النوع الآخر .. إذا كانت مسيرة الحياة وركبها تقتضي أن ينشأ الثعبان من السمكة أو ينشأ الإنسان من القرد أو من الغراب .. فإن ذلك لا يتعارض مع ما وضعه الخالق البارئ من سنة للحياة .. أقول لهم « مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا » .

أَناسـيّ وأُنـاس

« مالكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا » (نوح 13 ، 14) .

يقول رجال العلوم إن الإنسان الحالي هو حلقة أخيرة من سلسلة من الكائنات التي تسبقه ، ومن الطبيعي أن تلك الكائنات كلما كانت أكثر قربا منه كانت أشد شبها به وكلما زاد بعدها عنه قلّ ذلك الشبه،وتعود تلك الكائنات إلى الوراء إلى من هم ليسوا ناسا وإن كانوا يشتركون مع الناس في صفات معينة ويختلفون عنهم في صفات أخرى . فماذا يقول الخالق جل علاه .. لقد ورد في القرآن الكريم ألفاظ « البشر والإنس والإنسيّ والناس والأناس والأناسيّ » .. ويتفق أساطين اللغة العربية وتتفق معاجمها على أن تلك الألفاظ جميعها ذات مدلول واحد هو الإنسان من بني آدم فردا أو جمعا .

ولكن بعد أن تقدمنا في العلم والمعرفة ألا يمكننا تحت ضوء العلوم الحديثة أن نتعمـق النظر في الآيات التي وردت بها تلك الألفاظ [1] علنا

---

(1) يقول فضيلة الشيخ الشعراوي في كتابه معجزة القرآن :

« فالله سبحانه وتعالى لا يستخدم لفظين لأداء نفس المعنَى ولكن كل لفظ له معناه ... كلّ لفظ يعبر بدقة عن المعنَى المراد منه » (ص 55) .

« فليس هناك شيء في القرآن الكريم اسمه توارد ألفاظ ... ولكن هنـاك دقة بالغة في التعبير واختيار اللفظ (ص 57) .

نأتي منها بقبس . لنستمع إلى قوله الكريــم :

« وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسيّ كثيرا * ولقد صرفناه بينهم ليذّكّروا فأبى أكثر الناس إلا كفـورا » (الفرقــان 48 ـ 50) .

تقول معاجم اللغة إن الأناسيّ جمع إنسان أصلها أناسين وأبدلت النون ياء وأدغمت والإنسان يطلق على الذكر والأنثى من بني آدم ـ أو هي جمع إنسيّ والإنسيّ منسوب إلى الإنس والإنس هم الناس وعلى هذا الأساس تتفق المعاجم على أن الأناسيّ هم الإنسان من بني آدم .

غير أن لنا أن نتساءل .. إذا كانت كلمة أنعام (في الآية 49) تدل على جمع للجمع (جمع نعم) أى جمع لأنواع تشمل الإبل والأبقار والغنم وغيرها أفلا تدل كلمة أناسيّ هي الأخرى بعد عطفها على أنعام على جمع للجمع لتشمل أنواع مختلفة . أرى أن الإجابة بالإيجاب،ويؤيد ذلك قوله سبحانه وتعالى مستطردا « فأبى أكثر الناس إلا كفوراً» مما يعني أن الناس هم بعض من أناسيّ متعددة وأكثر من ذلك وأهم منه أن من الأناسيّ من هم ليسوا ناسا . إنهم أشباه للناس يمتون للناس بصلة لا شك أنها اشتراكهم معا في صفات معينة باشتراكهم معا في صلة الرحم،وبعبارة أوضح أن المولى سبحانه الخالق البارىء قد خلق أنواعا غير الناس كما خلق الناس وأن هؤلاء وأولئك يجمعهم رباط واحد لأنهم جميعا أناسيّ وبالتالي فإن كل أنواع هؤلاء الأناسيّ من الناس ومن غير الناس قد انحدروا من أصل واحد (كما ينحدر الأشقاء من أب واحد وينحدر الآباء من جد واحد وينحدر الجدود من جد أبعد وبذلك يكون الأفراد الذين ينتمون إلى العائلات التي تنحدر من العشائر الذين ينحدرون من القبائل إلى غير ذلك وجميع هؤلاء قد نشأوا عن أصل واحد) .

ونـنـتـقل الآنِ خطوة أخرى لننظر إلى قول علماء الإنسانيات وعلماء الحفـائـر إن الإنسان الحالي قد نشأ عن أنواع أخرى من الإنسان قد يكون البـعض منهم قد عاش مع البعض كما أن البعض قد انحدر عن البعض بل أكثر مـن ذلك.. أن جـمـوع الـناس تحتوي على كائنات لا يمكن اعتبارها إنسانا.

أقول لهؤلاء العلماء وأقول لغير العلماء بل لأهل الأرض جميعا الله أكبر الله أكبر. لقد جاء في الكتاب المجيد « ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » (الكهف 54) .

ألا يعني ذلك القول الكريم أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من الناس أمثلة عدة وأن الإنسان أحد تلك الأمثلة وأن من الناس من هو ليس إنسانا .

من الآيات الثلاث السابقة في سورتي الفرقان والكهف نرى أن الإنسان بعض من الناس وهؤلاء بعض من الأناسيّ كما تؤكد كذلك أن الأناسيّ تحوي الناس وأشباه الناس .. كما أن الناس تشمل الإنسان وأشباه الإنسان .. تطابق رائع بين ما جاء في كتاب الله الكريم وبين ما يقوله العلماء ربما في السنين القليلة الأخيرة فقط (هويـل 1966) .

إن لفظ HOMINOIDS يعني الأناسيّ وهم الناس وأشباه الناس وهؤلاء الأخيرون هم ما يسمون بالقردة العليا (الجيبون ، والأورانج أوتان ، والشمبانزي ، والغوريلا) .

أما لفـظ HOMINIDS فهم الناس وهم يحتوون الإنسان وأشباه الإنسان ويعتبر ما عثر عليه من حفائر أطلق عليها القرد الجنوبي الأفريقي أو الإنسان القرد Australopithecus أحد هؤلاء الأخيرون .

أما الإنسان HOMO فقد وجد منه أنواع مختلفة منها إنسان جاوا وإنسان بكين والإنسان معتدل القامة وآخرهم الإنسان العاقل .. الإنسان البشر. وهو الإنسان الحالي .

وأخيرا هل يختلف لفظ أناسيّ فيما يعنيه عن كلمة أُناس .. لا شك في ذلك ... إن كلمة أناسيّ لها مدلول يختلف عن كلمة أُناس ولا يصح ترادفهما . إذ بينما وردت كلمة أناسيّ في القرآن الكريم مرة واحدة فقط [1] في الآية السابقة (رقم 49 من سورة الفرقان) بالمعنَى الذي وضحته فإن كلمة أُناس قد وردت في أكثر من موقع لتدل على جمع من البشر من بني آدم . إذ قد وصف بها قوم موسَى وأتباع لوط وأبناء آدم عامة .

فعن قوم موسَى يقول سبحانه :

« وإذ استسقَى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أُناس مشربهم » (البقرة 60) .

« ومن قوم موسَى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما وأوحينا إلى موسَى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أُناسٍ مشربهم » (الأعراف 159 ـ 160) .

وعن أتباع لوط عليه السلام :

« وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون » (الأعراف 82) .

« فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أُناس يتطهرون » (النمل 56) .

وعن أبناء آدم عامـــة :

---

(1) ورد مفردها « إنـــسيّ » مرة واحدة أيضا في قوله سبحانه : « فإمّا ترين من البـشر أحـدا فقولي إنّي نـذرت للرحمـن صوما فلـن أكلّمَ اليوم إنسيّـا » (مريم 26) .
ربّ سائل يقـول ، وهل أوتيت مريم منطق الأناسيّ من غير البشر ، فنقول ربّما ـ غير أن ذلك القول هو قول العليم الخبير يأمر أن تردده مريم .

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا * يوم ندعوا كل أناس بإمامهم » (الإسراء 70 ، 71) .

ومن تلك الآيات الكريمة يتضح أن أناس هي جمع أفراد من الإنس من بني آدم من البشر .. بينما أناسيّ هي جمع لأنواع من الناس وأخرى من أشباه الناس البشر في الأولى ويقول رجال العلوم الإنسانية إن القردة العليا هي الثانية .

إن اختلاف مدلول تلك الألفاظ : أناسيّ وناس وانسان لهو في ذاته دليل على تطور الإنسان من أصول سابقة .. إنه يعني أن الله سبحانه قد خلق الأناسي من أصل واحد هو مخلوقات تسبقها ثم انقسمت فرعين أحدهما الناس والثاني أشباه الناس (القردة العليا) ، ثم امتد فرع الناس عبر الزمان فأخرج منه المولى سبحانه فروع عدة _ أمثلة عدة _ أحدها هو الإنسان ، ولقد امتد فرع الإنسان وتفرع ألوف السنين وفي النهاية يصورنا منه الخالق المصور _ يصورنا نحن الإنسان البشر .

وفي اختلاف تلك المخلوقات التي ننحدر منها طورا عن طور يقول لنا المولى جل جلاله « مالكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا » (نوح 13 ، 14) .

كما يعود بنا الخالق المهيمن بعيدا بعيدا إلى الوراء في قوله الكريم « والله أنبتكم من الأرض نباتا » (نوح 17) .

بل يعود بنا خالق الأزل أكثر بعدا .. إلى بدء الحياة فيقول : « وبدأ خلق الإنسان من طين » (السجدة 7) .

صـــدق الله أصـــدق القائليـــن

آدم أبو البشـر؟ ولكن هل هو أبو الإنسان ؟؟ والنـاس ؟؟؟

اتفق العلماء على أن آدم عليه السلام هو أبو البشر لما جاء في قوله تعالى :

« وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقفوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبَى أن يكون مع الساجدين » (الحجر 28 ـ 31) .

إذ يتفقون أن هذا البشر هو آدم عليه السلام حيث يقول المولَى عز وجل :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبَى واستكبر وكان من الكافرين » (البقرة 34) .

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الّا إبليس لم يكن من الساجدين » (الأعراف 11) .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدواإلّا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا » (الإسراء 61) .

« وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » (الكهف 50) .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس أبَى » (طه 116) .

لا شك أننا بشر إذ أننا من أبناء آدم حيث يخاطبنا الله جلت قدرته :

« يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم » (الأعراف 26) .

« يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي » (الأعراف 35) .

« وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم » (الأعراف 172) .

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات » (الإسراء 70) .

« أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم » (مريم 58) .

« ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان » (يـــس 60) .

وقضيتنا الآن إذا كان آدم أبا للبشر فهل هو أب للأنسان؟ والناس؟؟ يقول المفسرون جميعاً : نعم .

ولكني أرى أن نبحث هذه القضية بحثاً متأنياً .. فبعد أن وضحنا أن الإنسان جزء من الناس فعلينا أن نبحث موضع البشر من الإنسان . فإذا ثبت لنا أن البشر بعض من الانسان فهم بذلك بعض من الناس .

في علاقة آدم بالبشر والإنسان هناك احتمالات ثلاثة لا رابع لها : إما أن يكون البشر هم الإنسان جميعهم وبذلك يكون البشر والإنسان لفظين مترادفين فيكون أبوهما واحدا وإما أن يكون البشر جزءا من الإنسان وفي هذه الحالة يكون أبو البشر ليس هو أبا الإنسان .؛ وإما أن يكون الإنسان جزءا من البشر وفي هذه الحالة يكون أبو البشر أبا الإنسان.

لقد ورد لفظا البشر والإنسان في كتاب الله الكريم في آيات كثيرة جدا ولكني أرى لنظر تلك القضية أن نستعرض أولا الآيات التي يجتمع فيها اللفظان أو مشتقاتهما في سورة واحدة إذ أن وجود اللفظين في سورة واحدة قد يوضح الفرق بينهما :

يقول الله سبحانه في سورة الأنعـام :

« وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » (91).

« وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن » (112) .

« ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض » (128).

« يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » (130) .

ويقول سبحانه في سورة هود :

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليئوس كفور » (9) .

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلّا بشرا مثلنا » (27) .

ويقول عز وجل في سورة يوسف :

« قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين » (5)

« وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلّا ملك كريم » (31) .

وفي سورة إبراهيم يقول سبحانه :

« قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمّى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا

تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا » (10) .

« قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم » (11) .

« وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار » (34) .

وفي سورة النحل يقول جل شأنه :

« خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين» (4) .

« ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي » (103) .

وفي سورة الإسراء :

« ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا » (11) .

« وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه » (13) .

« إن الشيطان ينزع بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا » (53) .

« فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفورا » (67) .

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه » (83) .

« قل سبحان ربي هل كنت إلّا بشرا رسولا » (93) .

« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلّا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » (94) .

« قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكتم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتورا » (100) .

وفي سورة الكهف يقول سبحانه :

« ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر

شيء جدلا » (54) .

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إليّ أنما إلهكم إلّه واحد » (110) .

وفي سورة مريم يقول عز شأنه :

« قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر» (20) .

« ويقول الإنسان أئـذا ما مـت لسـوف أخـرج حيا » (66) .

« أو لا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (67) .

كما يقول سبحانه في سورة الأنبياء :

« هل هذا إلّا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » (3) .

« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » (34) .

« خلق الإنسان من عجل » (37) .

ويقول جل جلاله في سورة المؤمنون :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (12) .

« ما هذا إلّا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » (24) .

«ما هذا إلّا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون» (33) .

« ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون » (34) .

« فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون » (47) .

ويقول المولى جل شأنه في سورة يس :

« قالوا ما أنتم إلّا بشر مثلنا » (15) .

« أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » (77) .

وفي سورة فصلت يقول العلي القدير :

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحَى إليّ أنما إلهكم إلّه واحد » (6) .

« لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط » (49) .

« وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه » (51) .

كما جاء في سورة الشورَى :

« وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة فرِحَ بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » (48)

« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحيا » (51) .

من كل تلك الآيات السابقة نرى أن الله سبحانه يستعمل كلمة بشر للتحدث عن إنسان بعينه ومن أمثلة ذلك « ما نراك إلّا بشرا » ، « ما هذا بشـــر » « إن أنتم إلّا بشر » ،«إن نحن إلّا بشر» ، « إنما أنا بشر » ، « أنؤمن لبشرين » .

أما عند الحديث عن الإنسان وعن الناس فإن استعمال هذين اللفظين أو ما يماثلها يعطي المضمون الأوسع والأشمل والأعم ومن أمثلة ذلك قوله تعالى :

« شياطين الإنس » ، « أولياؤهم من الإنس » ، « يا معشر الجن والإنس » ، « أذقنا الإنسان منا رحمة » ، « إن الشيطان للإنسان عدو » ، «إن الإنسان لظلوم » ، «كان الإنسان كفورا » .. إلى غير ذلك .

ومما سبق يمكننا أن نرجح أن الإنسان والبشر ليسا لفظين مترادفين فيحملان نفس المعنَى .

كما يوجد دليل آخر يوحي بأن كلمة بشر ليست مردافة لكلمة إنسان ... لقد أرسل الله سبحانه وتعالَى الرسل والأنبياء إلى بني آدم لهدايتهم .. فهل أطلق سبحانه على أي من هؤلاء الرسل أو الأنبياء من آدم

عليه السلام إلى خاتم المرسلين محمد صلوات الله عليه لفظ « إنسان » ؟؟ .. فلنستمع معا إلى قوله سبحانه عن نوح عليه السلام :

« ولقد ارسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين * أن لا تعبدوا إلّا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الّا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلّا الذين هم أراذلنا » (هود 25 ـ 27) .

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره أفلا تتقون * فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » (المؤمنون 23 ـ 24) .

وعن هـــود عليه الســـلام :

« ثم أنشأنا من بعدهم قرنا[1] آخرين * فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إلّه غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون » (المؤمنون 31 ـ 34) .

عن صالح عليه السلام :

« كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون * إني لكم رسول أمين » (الشعراء 141 ـ 143) .

« قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشرمثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين » (الشعراء 153 ـ 154) .

عن شعيب عليـــه الســـلام :

« كذب أصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيـــب ألا تتقون * إني

---

(1) قوم عاد أرسل إليهم سيّدنا هـود (تفسير الجلالـين) .

رسول لكم أمين » (الشعراء 176 ـ 178) .
« قالوا إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين » (الشعراء 185 ـ 186) .

عن موسَـــى وهارون عليهما الســـلام :
« ثم أرسلنا موسَى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين * إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكانوا قوما عالين * فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون »(المؤمنون 45 ـ 47) .

عن يوســـف عليه الســـلام :
« وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » (يوسف 31)

عن محمّــــد صلوات الله وسلامه عليه :
« وما قدروا الله حقّ قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء » (الأنعام 91) .
« ولن نؤمن لرقيك حتّى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربّي هل كنت إلا بشرا رسولا * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » (الإسراء 93 ـ 94) .
« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ أنما إلهكم إله واحد » (الكهف 110 ، فصلت 6) .
« هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون » (الأنبياء 3) .
« وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون » (الأنبياء 34) .

عن رســـل أخـــر : « واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالو إنا إليكم مرسلون * قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمـٰن من شيء إن أنتم الا تكذبون » (يـــس 13 ـ15)

وعن الرســـل عامة الذين أرسلوا بعد آدم :

«وقال موسَى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن اللهَ لغني حميد * ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شكّ مما تدعوننا إليه مريب * قالت رسلهم أفي الله شكّ فاطر السماوات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمّى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريـــدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم » (إبراهيم 8 ـ 11) .

«ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبيانات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنَى الله والله غني حميد » (التغابن 6) .

من كل تلك الآيات نرى أن الله سبحانه لم يستعمل لفظ «إنسان » على نبي أو رسول من رسله صلوات الله عليهم إلى أبناء آدم بل كان يصفهم بأنهم بشر مما يزيدنا تساؤلا عن مدى مطابقة الإنسان للبشر.

وبعد إذا لم يكن لفظ بشر مرادفا لكلمة إنسان، فهل البشر يشمل الإنسان، أم يشمل الإنسان البشر، هل البشر جزء من الإنسان .. أم الإنسان جزء من البشر؟؟ .

إن الآيات السابقة التي ذكرت عن الإنسان والبشر توحي بأن البشر جزء من الإنسان ، ويعني ذلك أن كل بشر هو إنسان ولكن ليس من الضروري أن يكون كل إنسان بشرا .

وبعد إذا كان هذا الاستنتاج صحيحا فلا بد أن يكون خلق الإنسان سابقا لخلق البشر لأن الإنسان يشمل البشر.

فهل بكتاب الله الكريم ما يوحي بأنه سبحانه وتعالَى قد خلق الإنسان قبل البشر يقول جلّ شأنه « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ

مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربّك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (الحجر 26 ـ 29) .

يقول سبحانه إنه قد خلق الإنسان وأتم خلقه كما أنه قد خلق الجان قبل أن يخلق الإنسان .. ثم جاء قوله للملائكة أنه خالق بشرا من نفس مادة الانسان من صلصال من حمأ مسنون أي إنه يخلق الآن أو سيخلق في المستقبل ذلك البشر وهو لم يسوه بعد وعند إتمام سوائه فعلَى الملائكة أن تسجد لهذا الوافد الجديد .. يقول الله إنه قد خلق الإنسان فعلا وأنه لم يتم خلق البشر بعد .. ألا يدل ذلك على أن البشر قد خلق بعد الإنسان وأن أحدهما لا يطابق الآخر تماما .

سوف يقول اللغويون إن اللفظ « إذ » في قوله سبحانه « وإذ قال ربّك للملائكة » ظرف للزمان وأن الواو واو للعطف ولا تفيد الترتيب وإن هذا القول الأخير لا يعني أنه قد جاء بعد خلق الإسنان وإننا لازلنا نعتبرَ أنَ البشر هو الإنسان بعينه.

وأقول إن حديث المولَى سبحانه في تلك الآيات له صفة الاتصال ببعضه البعض . ولو لم يكن القصد أن البشر مختلف عن الإنسان لقال الله سبحانه إني خالق إنسانا .. قد يقول البعض إن ذلك يعد تكرارا يقلل من جمال العبارة وأقول إن التكرار في تلك الحالة ضروري وإلا فإن هناك ظلّ من الشكّ في مطابقة البشر للإنسان ، إن تكرار اللفظ لا يقلل من جمال العبارة بل أن تكرار ألفاظ بشر وإنسان وناس وغيرها قد وجد في آيات متتالية أو في نفس الآية مرات عديدة من أمثلتها :

« قالوا إن أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين * قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم » (إبراهيم 10 ، 11) .

« ماهذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون » (المؤمنون 33 ، 34) .

« قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا * وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » (الإسراء 93 ، 94) .

«ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا » (الإسراء 11) .

« وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور » (الشورى 48) .

« إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » (غافر 61) .

« ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا » (الأسراء 89)

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (سبـــأ 28)

« إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للناس عدوا مبينا » (الإسراء 53) .

من الآيات السابقة نرى أن تكرار لفظ بشر أو إنسان أو ناس أو غيرها في آية واحدة أو في آيات متلاحقة في حديث متصل يقصد به تأكيد ذلك اللفظ بحرفيته إذ أن غيره من الألفاظ القريبة منه لا يطابق نفس معناه[1] .

وبالمثل فإن عدم تكرار لفظ معين واستعمال لفظ آخر في قول متصل يقصد به اختلاف في معنى اللفظين وإن تقاربا[1] .

---

(1) راجع حديث الشيخ الشعراوي ص 89

دعونا نعيد الاستماع معا إلى الآيات التالية متمعنين :

« ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسيّ كثيرا * ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفروا » (الفرقان 49 ، 50) .

« ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » (الكهف 54) .

« ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا » (الأسراء 89) . إن عدم تكرار كلمة أناسيّ واستبدالها بكلمة ناس في سورة الفرقان دليل على اختلاف معنيهما ، وبالمثل فإن عدم تكرار كلمة ناس واستبدالها بكلمة إنسان في سورة الكهف دليل على عدم تطابقهما . يؤيد ذلك تكرار كلمة ناس في سورة الإسراء ... في سورة الكهف يؤكد العزيز الحكيم أن القرآن الكريم قد صرف للناس من أمثلة عدة فكان الإنسان من هؤلاء الناس أكثر جدلا .. أما في سورة الإسراء فيؤكد العزيز الحكيم أن أمثلة عدة من القرآن الكريم قد صرفت للناس فأبى أكثر هؤلاء الناس إلا أن يكفروا بها . تأكيد واضح ودقة بالغة في اختيار الألفاظ في مواضعها لتؤدي معان لا تحيد عنها ولا عجب فهو تنزيل العلي القدير .

نعود الآن إلى لفظي بشر وإنسان .. يقول العليم الخبير سبحانه في سورة الحجر (26 ـ 29) .. إنه خلق الإنسان من صلصال من حمأ مسنون ، كما يقول للملائكة إنه خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون .. وفي عدم تكرار لفظ إنسان كما ذكرنا سابقا دليل على عدم مطابقة البشر للإنسان ويزيد ذلك تأكيدا قوله سبحانه مستطردا في نفس السورة :

« فسجد الملائكة أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون » (الحجر 30 ـ 33) .

إن استعمال كلمة إنسان في الآية (26) وتكرار لفظ بشر في الآيتين (28 ، 33) تأكيد من الحق سبحانه في عدم تطابق المعنيين ، يؤيد ذلك أن إبليس قد أجاب لم أكن لأسجد لبشر ولم يقل لم أكن لأسجد لإنسان إذ أن الله قد أمره بالسجود لبشر لا لإنسان .

لا أكتمك أيها القارىء أن صوت أساطين اللغة لا يزال يرن في أذني ـ نريد دليلا لغويا على أن البشر يختلف عن الإنسان فأقول بل أن لفظ بشر هو بذاته دليل على اختلافه عن لفظ إنسان ، إن لفظ بشر كما جاء في معجم « تاج العروس من جواهر القاموس » مشتق من البشرة ، وهي أعلى جلدة الرأس والوجه والجسد وسمي الإنسان بشرا لتجرد بشرته من الشعر والصّوف والوبر ـ أما لفظ إنسان فقد اشتق من الفعل أَنَسَ وأَنُسَ وآنس .. والإيناس[1] خلاف الايحاش وذلك لأن الإنسان يعيش معيشة اجتماعية فيها يأنس الأفراد بعضهم لبعض . لا شكّ أننا نلاحظ أن ألفاظ أناسيّ وناس وإنسان وأناس وإنس وإنسيّ » كلها مشتقة من بعضها البعض ـ أما لفظ بشر فهو بعيد كل البعد عنها ولما كان ذلك اللفظ يقصد به بادي البشرة (أو ظاهر البشرة) وهي صفة فلا بد أن يسبقها الموصوف وهو الإنسان (اذ أن من الحيوان أيضا ما هو بادي البشرة) غير أن لفظ إنسان الذي يسبق لفظ بشر يحذف عادة اكتفاء بكلمة بشر.

ولذلك جاء في كتاب الله الكريم أن الله سبحانه خلق إنسانا من صلصال من حمأ مسنون ثم جاء قوله « إني خالق بشرا » مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق من الإنسان إنسانا بشرا .. ويؤيد ذلك علم الأجنة الذي نرى منه أن الجنين البشري في رحم الأم يكون ذا جسم مغطى

---

(1) جاء أيضا أن الإيناس هو الإبصار والعلم والإحساس ومن الإيناس اشتقّ الإنسان لوقوفه على الأشياء بطريق العلم ووصوله إليه بطريق الرؤية وإدراكه لها بطريق الحواسّ.

بالشعر ويزول ذلك الشعر قبل الولادة أو بعدها مباشرة ولا شكّ أن تغطية جسمه بالشعر صفة قد ورثها عن أبائه من الإنسان غير البشري ومن الناس والأناسى السابقين.

من كل ما تقدم يتضح لنا أن الله سبحانه وتعالى قد خلق البشر بعد أن خلق الإنسان، ومتطورا عنه وفي ذلك يقول :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» (الأعراف 11) . يقول المفسرون إن الله عزّ شأنه يقول: خلقناكم ثم صورناكم أي خلقنا أباكم آدم ثم صورناه ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم وفي التفسير الفريد في القرآن المجيد للدكتور محمد عبد المنعم الجمال:

« ثم حرف عطف يفيد الترتيب وردت هنا في أول الآية مرتين الأولى منهما تعني الترتيب الزماني وهو واضح فيها إذ التصور يكون بعد الخلق والثانية فيها إشكال إذ أمر الله الملائكة بالسجود ليس بعد خلقنا وأجيب بأن المراد بها الترتيب في الإخبار وقيل إن المعنَى وقد خلقنا آباءكم آدم ثم صورناه..»

وفي رأيي أن الله سبحانه وتعالَى يخاطبنا بأنه بعد أن خلقنا كإنسان ثم صورنا كبشر ببداية آدم أمر الملائكة بالسجود له باكتمال صورته البشرية .

تكلمنا عن الترتيب الزمني في خلق الإنسان وخلق البشر وبالإضافة إلى ذلك هناك أدلة أخرى على أن البشر نوع متقدم من الإنسان .

يقول الله سبحانه وتعالى في أول آية من سورة الإنسان :

« هل أتَى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » (الإنسان 1) . لنستعرض معا ما يقوله المفسرون لتلك الآية الكريمة ....

في تفسير الجلالين المقصود بالإنسان آدم وحين من الدهر أربعون سنة ولم يكن شيئا مذكورا ، كان فيه مصورا من طين لا يذكر أو المراد بالإنسان الجنس وبالحين مدة الحمل . في تفسير أوضح التفاسير لابن الخطيب « حين من الدهر مدة لبثه في بطن أمه أو في صلب أبيه أو أريد

بالإنسان آدم ، والحين الزمن السابق على خلقه وإيجاده » ... في تفسير محمد فريد وجدي « لقد أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن فيه شيئا يمكن ذكره أي كان عدما محضا ، ثم خلقنا آدم وأخرجنا منه ذريته » .

من ذلك نرى أن بعض المفسرين يقولون إن كلمة الإنسان تعني آدم ، وفي رأيي أننا لا يمكننا موافقة السادة المفسرين على هذا الرأي إذ أنه في تلك الحالة يكون جزء من حياة آدم شيئا غير مذكور أي شيئا عديم القيمة وبذلك نقسم آدم إلى جزء عديم القيمة وجزء ذي قيمة وهذا غير جائز إذ أن آدم هو آدم منذ بدء خلقه إلى مماته كما أن محمدا صلوات الله عليه هو محمد سواء قبل الرسالة أو بعدها ، وموسَى هو موسَى سواء قتل نفسا حرم الله قتلها أو أصبح رسولا ... وكيف نعتبر جزءا من آدم عديم القيمة في حين يقول المولَى عزّ شأنه :

«إن الله اصطفَى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » (آل عمران 33) . فهل الله اصطفاه رغم أنه نعته بأنه كان شيئا غير مذكور شيئا لا قيمة له.

وكيف نعتبر أن حينا من الدهر تقدر بأربعين سنة ؟ . حقيقة أن كلمة حين هي الوقت أو المدة من غير تحديد ولكنها إذا اقترنت بالدهر الذي هو مدة الحياة كلها أو هو مرور الزمن (كما جاء في معجم الألفاظ والأعلام القرآنية . محمد اسماعيل ابراهيم) عندئذ فلا نستبعد أن حينا من الدهر يمكن أن يقدر بآلاف وربما بملايين السنين أو بما يقرب منها ـ في تفسير الجلالين لم يكن شيئا مذكورا، إنه آدم عندما كان مصورا من طين لا يذكر ، فإذا قبلنا ذلك التفسير لكان معناه أن الطين يعتبر شيئا غير مذكور لفظا ومعنَى.أما من حيث المعنَى فإن الطين هو أساس الحياة الذي خلقت منه جميع المخلوقات وخلق منه الإنسان .. أما من حيث اللفظ فقد ورد في كتاب الله العزيز في آيات كثيرة .

« إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين » (ص 71)
« قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » (الأعراف 512، ص 76)
« هو الذي خلقكم من طين ثم قضَى أجلا » (الأنعام 2)
« إنا خلقناهم من طين لازب » (الصافات : 11)
« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (المؤمنون 12)
«الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين» (السجدة 7)

أما قول كل من ابن الخطيب ومحمد فريد وجدي بأن « حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » يقصد بها الزمن السابق لوجود آدم إذ كان عدما محضا فلا يمكننا الأخذ به فهناك فرق واضح بين أن يقال إن الإنسان لم يكن شيئا ذا قيمة وأن يقال إنه لم يكن شيئا على الاطلاق ، بين أن يقال إن الإنسان كان شيئا عديم الذكر وأن يقال إنه كان عدما ، بل أن كلا القولين باختلاف مدلولها قد جاءا في قول العليم البصير في سورتي الإنسان ومريم ... في الأولى يقول سبحانه :

«هل أتَى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا».

وفي الثانية يقول :

« أولا يذكر الإنسان أنّا خلقناه من قبل ولم يك شيئا » (مريــم 67) .

ومن تلك الآيتين يمكننا أن نقول إن الإنسان بالإضافة إلى أنه لم يكن شيئا قبل أن يخلق (كما جاء في سورة مريم) فإنه أيضا لم يكن شيئا مذكورا لفترة من الدهر بعد أن خلق (كما جاء في سورة الإنسان) .

أما القول بأن « حين من الدهر » هي مدة لبث الإنسان في بطن أمه أو نطفة في صلب أبيه .. فلا يمكن الأخذ به فهل تسعة أشهر من الحمل

يمكن أن نعدها حينا من الدهر وهل النطفة تعد شيئا غير مذكور .. تلك الآية المبهرة[1] التي عن طريقها تستمر الأحياء جميعها من إنسان (وحيوان) جيلا بعد جيل وخلقا وراء خلق. لقد ذكرها المولى في كتابه العزيز مرات ومرات فهل بعد ذلك نعتبرها شيئاً غير مذكور.

« وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى » (النجم 45 ، 46) .

« من نطفة خلقه فقدره » (عبس 19)

« ألم يك نطفة من مني يمنى » (القيامة 37) .

« أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة » (يس 77) .

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة » (فاطر 11) .

« هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة » (غافر 67) .

« أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة » (الكهف 37) .

« ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة » (المؤمنون 13 ، 14) .

وفي مثل ذلك لا يصحّ أن نعتبر أن تطور الإنسان جنينا في بطن أمه هو شيء لا قيمة له ، بل أن حياة هذا الجنين وتشكله يوما بعد يوم هي من آيات الله ومعجزاته الكبرى :

« هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا » (غافر 67) .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » (المؤمنون 12 _ 14) .

« يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم

(1) راجع صفحات

مـن نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمّى (الحج 5) .

إنني أرى أن قول الله العلي العظيم « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » هو أحد الأدلة القوية على أن هناك إنسانا قد خلق قبل البشر الآدميين ، أي قبل أن يخلق آدم عليه السلام ، وقد استمر ذلك الإنسان حينا من الدهر لم يكن خلاله ذا قيمة ما. فلا هو كالأنعام التي خلقها الله لفائدة الإنسان ولا هو قد وصل إلى مرتبة الإنسان بمفهومنا الحالي بشرا ذا عقل وإدراك وذلك بالضبط ما ينادي به العلم والعلماء إذ قد أثبت العلماء في حفرياتهم وجود « أنواع » متعددة من الإنسان مثل إنسان بكين وإنسان جاوه ... وغير ذلك كانت تعيش قبل ظهور الإنسان الحالي .. وفي كتاب الله العزيز ما يؤيد ذلك القول فيقول سبحانه :

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون » (البقـرة 30) .

لقد حار العلماء في تفسير قول الملائكة أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وذلك لأن الملائكة لاعلم لهم بالمستقبل وفي ذلك يقول القرآن الكريم على لسانهم :

« سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا » (البقرة 32) .

يقول بعض المفسرين إن الملائكة علموا ذلك بعلم خاص فنرد عليهم ما هو يا ترى هذا العلم الخاص ؟ ؟ ولماذا لم يعلمهم ذلك العلم الخاص الحكمة من إيجاد ذلك الخليفة ؟ . نقول إن كان لديهم علم خاص بذلك ما سألوا المولى عزّ وجلّ ذلك السؤال .

ويقول آخرون إن الملائكة علموا ذلك بما فهموه من الطبيعة البشرية فإن الله

سبحانه قد أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون . فهل خلقه من حمأ مسنون يعني أنه سوف يفسد في الأرض ويسفك الدماء ؟ ! ! وفي مثل ذلك أيضا يقول الطبري استفهم الملائكة عن سرّ ذلك قائلين أتجعل فيها من يفسد فيها بالمعاصي ويريق الدماء بالعدوان والقتل لما في طبيعة الإنسان من شهوات .كما أن مفسرين آخرين يقولون إن الجان كانوا يسكنون الأرض وكانوا يسفكون الدماء ويقتل بعضهم بعضا فبعث الله إليهم إبليس في جسد من الملائكة فقتلهم إبليس ومن معه حتّى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال (تفسير ابن كثير) ونرد على ذلك فنقول هل نمـا إلى علم أحد منّا أن أجسام الجان تحتوي على دماء ؟ ؟ .. إن الله خلقهم من مارج من نار فَأنّى لنا أن نقول إنهم كانوا يقتلون بعضهم بعضا ويسفكون الدماء ! ! .

وأخيرا فقد ورد في التفسير الفريد للدكتور محمد عبد المنعم الجمال أن هناك رأي بأن الله جعل آدم خليفة عن نوع آخر كان في الأرض بعد أن أفسد فيها وسفك الدماء . وفي رأيي أن هذا التفسير الأخير هو التفسير الصحيح . وأنه كان على الأرض ... إنسان .. قبل أن يخلق الله الإنسان البشري ، وكان هذا الإنسان يسفك الدماء بل إن هذا بالضبط ما عثر عليه في الحفريات .. إذ اتضح أن بعض أنواع الإنسان الأولى كان صائدا لأنواع من جنسه وكان يأكل من جماجمهم المخ ومن عظامهم النخاع .

لا شك أن الملائكة قد شاهدوا ذلك الإنسان الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء ولذلك قد سألوا الله عزّ وجلّ كيف يجعل ذلك الإنسان خليفة له في الأرض ورد عليهم سبحانه بأنه يعلم ما لا يعلمون ، إذ أنه كان في طريقه إلى خلق الإنسان البشر الذي ينفخ فيه من روحه وبذلك تكتمل الصورة .

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإٍ مسنون * والجان خلقناه

من قبل من نار السموم * وإذ قال ربّك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » .

من ذلك يتضح أن البشر نوع من الإنسان قد خلقوا من نفس مادته من صلصال من حمأ مسنون وأنهم خلقوا بعد خلق الإنسان ولذلك فإن آدم (أبا البشر) لا يمكن أن يكون أبا للإنسان السابق لوجوده بل لا بد أن يكون ابنا له .... وهناك دليل آخر يشير إلى صحة ذلك .. يقول المولَى سبحانه :

« إن الله اصطفَى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » (آل عمران 33 ، 34) .
ولا شكّ أننا نتفق جميعا على أن نوحا وآل إبراهيم وآل عمران هم من ذرية آدم وأنهم جميعا من البشر . غير أن السميع العليم ينص على أن آدم أيضا واحد من الذرية [1] . إذ لم يستثنه في الآيتين السابقتين من أن ينطبق عليه ذلك اللفظ مثله كمثل نوح وآل إبراهيم وآل عمران .

فإذا عرفنا الذرية بأنها النسل فعلى هذا الأساس نرى أنه كما أن نوحا وآل إبراهيم وآل عمران هم من نسل آدم فإن آدم هو أيضا من نسل سلف سابق .. وبعبارة أخرى ذرية لأب سابق إذ أن لفظ ذرية يشمل الأبناء فقط ، ولا يشمل الآباء .. كما جاء في قوله سبحانه :
« ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم » (الأنعام 87) .
« جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب » (الرعد 23) .

---

(1) ذرية : ولد الإنسان الذكر والأنثى ، ويقال للجمع أيضا ذريـة وتجمع الذرية على الذريات والذراري (معجـم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية 1390 هـ / 1970 م) .

« ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم» (غافر 8) . من ذلك نرى أنه كما أن لآدم ذرية لاحقة فهو نفسه ذرية لانسان يسبقه لتشمل تلك الذرية آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران .

ننتقل الآن إلى خطوة أخرى:إن آدم أبو الآدميين فهل هو أبو البشر أجمعين. في رأيي أننا لا يمكننا أن نجزم بذلك .. إن الله يقول للملائكة « إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون » وكلمة بشر تحتمل المفرد كما تحتمل الجمع ، كما أن الله سبحانه يقول « إن الله اصطفَى آدم » وهذا الاصطفاء يمكن أن يكون من بين الإنسان وبذلك يكون آدم أبا للبشر كما يمكن أن يكون اصطفاء من بين البشر وبذلك يكون آدم أبا للآدميين دون سائر البشر[1] .. كما يذهب بعض المفسرين في قوله تعالى» إني جاعل في الأرض خليفة» إلى أن ذلك يعني قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ، ولا يعني آدم فقط .. وبناء على ذلك يكون قوله تعالى «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» تعني أنه سبحانه قد خلقنا نحن الإنسان وأتمّ صورتنا كبشر وبعد ذلك اصطفَى من البشر آدم ليكون أبا لنا نحن الآدميين .

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المجال أنه قد نقل عن الإمامية والصوفية (تفسير المنار) أنه قبل آدم المشهور عند أهل الكتاب وعندنا آدمون كثيرون . ذكر صاحب جامع الأخبار من الإمامية أن الله تعالَى خلق قبل آدم ثلاثين آدما بين كل آدم وآدم ألف سنة وأن الدنيا بقيت خرابا بعدهم

---

(1) يقول فضيلة الإمام الشيخ محمد عبده : « ليس في القرآن نص أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم » (تفسير المنار مجلد 4 ص 267) .

خمسين ألف سنة ثم عمرت خمسين ألف سنة ثم خلق أبونا آدم عليه السلام . وروى ابن بابويه في كتاب التوحيد عن الصادق أنه قال « لعلك ترى أن الله لم يخلق بشرا غيركم » بلَى والله لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين .

ونقل عن محمد ابن علي الباقر أنه قال « قد انقضَى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر » . وذكر الشيخ الأكبر ـ قدس ـ سره ـ في فتوحاته ما يقتضي بظاهره أن قبل آدم بأربعين ألف سنة آدم غيره .. إذا صح ذلك فماذا يعني تعدد الأوادم ؟ ألا يعني خلقها من نسل بعضها البعض .

أما الكاتب الاسلامي المعروف عبد الكريم الخطيب (الإنسان في القرآن من البداية إلى النهاية) فيقول « المراد هنا بآدم الإنسانية كلها وآدم الذي واجه الملائكة قد لا يكون أول السلالة الإنسانية بل لعله في حلقة متأخرة شيئا ما عن الحلقة الأولى لهذه السلالة إن لآدم في نظرنا مفهوما غير هذا المفهوم الذي تحدثت عنه روايات المفسرين التي تعتمد في هذا على الإسرائيليات ، وعلى ما بقَى من آساطير الأقدمين من قصة الخلق ومكان آدم فيها » .

ونخلص من هذا بأن آدم أب للآدميين والأرجح أنه واحد من البشر وربما كان أبا للبشر أجمعين ولكنه في كل الحالات ابن للإنسان وليس أبا له وبالتالي فهو أحد الناس .

غير أنه لازال لتساؤلنا سؤال .. إذا كنا نحن الآدميين بشرا ولسنا الإنسان كله ولا الناس كافة .. فلِمَ يخاطبنا الله عز وجل بقوله أيها الناس أو يا أيها الإنسان ولا يخصنا دائما بالبشر... الإجابة يجيبها رجال العلم في تطابق رائع بين العلم والقرآن . يقول علماء الإنسانيات ANTHROPOLOGY إن ما يعيش في الأرض (في زماننا الحالي) من

جميع أنواع الناس الذين خلقهم الله سبحانه هو الإنسان البشر فلا يوجد في الأرض الآن إنسان ولا ناس آخرون . فإذا خاطبنا المولَى عز وجل مرات كثيرة بقوله أيها الإنسان أو يا أيها الناس فلأنه لا يوجد في الأرض إنسان ولا ناس سوانا وعلى عكس ذلك لم يخاطبنا إطلاقا (ولو مرة واحدة) بقوله أيها الأناسيّ لأنه يعيش في الأرض معنا الآن بل حتّى هذه اللحظة أناسيّ آخرون لا يمكن أن يوجه المولَى لهم خطابا .. فهم لا يعقلون . ولعل في ذلك تأكيدا آخر على اختلاف مرمَى اللفظين الناس والأناسيّ .

وهنا يبرز سؤال آخر .. إذا كنا جميعا بشرا فلم لم يخاطبنا الله بقوله أيها البشر؟ الإجابة أن في ذلك دليلا آخر على صحة التطور . فإذا كنا جميعا بشرا فهل يمكن لأحد منّا أن يتكهن بمستقبل البشر حتّى يوم الدين . ألا يقول سبحانه في كتابه الذي لا كتاب بعده

« إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين » (النساء 133) .

« إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » (إبراهيم 19) .

فلو خاطبنا الخالق الفاطر بقوله أيها البشر لتعارض ذلك مع الآيتين السابقتين ولكان في القرآن اختلاف كثير.

ومن ذلك يتضح أن عدم مخاطبتنا بأيها البشر هو آية أخرى على صحة التطور الذي يقول فيه الخالق المصور « مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا » .

الآن وقد اتضحت لنا الصورة بجميع جوانبها المرئية والخفية .. يمكننا أن نجيب على السؤال ــ هل آدم أب للبشر وللإنسان وللناس جميعا ؟ .

الإجابة نعم هو أب لكل هؤلاء ولكن للحاليين فقط وليس أبا للإنسان وللناس قاطبة . إن من هؤلاء أنواعا قد خلقها الواحد المصور قبل

خلقته بألوف السنين فهو بذلك ابن للسابقين وأب للاحقين والبشر والإنسان والناس الحاليون هم الأخيرون ، وهم جميعا بشر.

آدم ...... كيـف خلـق ؟؟؟

يقول علماء الدين بل وربما الأديان جميعها إن آدم أبو الإنسان والناس كافة ، خلقه الله بدون أبوين بعد أن جمع قبضة من جميع الأرض وقال لتلك القبضة بعد أن أحالها إلى طين ثم إلى صلصال كوني آدم فكانت ، وإن حواء قد خلقت من ضلع آدم .. وفي رأى البعض من فضل طينته أى ما تبقى من الطين الذي خلق آدم منه ويستند علماء المسلمين إلى قوله تعالَى :

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (النساء 1) .

« هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها » (الأعراف 189) .

« خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها » (الزمر 6) .

« وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » (الأنعام 98) .

يكاد يجمع المفسرون على أن « من نفس واحدة » هي آدم .. في تفسير الإمامين الجلالين .. نفس واحدة أى آدم وخلق منها زوجها أى حواء بالمد من ضلع من أضلاعه اليسرَى وفي تفسير السيد عبد الله بشر « نفس واحدة هي آدم وجعل منها أى من ضلعها أو فضل طينتها أو

جنسها حواء . وفي المصحف المفسر (محمد فريد وجدي) نفس واحدة آدم وجعل منها زوجها أى من جنسها وفي الجواهر في تفسير القرآن الكريم (الشيخ طنطاوي جوهري) خلقكم من نفس واحدة (آدم) وخلق منها زوجها حواء . وفي مختار تفسير القرطبي (توفيق الحكيم 1977) « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا » جعل بمعنَى خلق وقد تقدم من أنفسكم أزواجا يعني آدم خلق منه حواء وقيل المعنَى جعل لكم من أنفسكم أي من جنسكم ونوعكم وعلى خلقتكم ».

كما قال لقد جاءكم رسول من أنفسكم أي من الآدميين وفي هذا رد على العرب التي كانت تعتقد أنها كانت تزوج الجن وتباضعها..

من ذلك نرى أن المفسرين يعتبرون « نفس واحدة » أنها آدم ولكنهم عند تفسيرهم « خلق منها زوجها » فإنهم يختلفون .. فبعضهم يقول خلق من آدم حواء من أحد أضلاعه اليسرَى والبعض يقول خلق حواء من جنس آدم ومن طبيعته أى من جنسه البشري . وهؤلاء الأخيرون يقعون في حرج إذ أنهم يفسرون نفس واحدة بتفسيرين مختلفين في وقت واحد في آية واحدة (نفس واحدة خلق منها زوجها) مرة على أنها آدم ، والثانية على أنها الجنس البشري.. وذلك لأن ضمير الهاء في كلمة منها وفي كلمة زوجها يعود ويعود فقط على نفس واحدة .

وفي رأيي أننا، لكي نحل تلك المشكلة، يجب أن نعرف أولا ما هي النفس .... النفس لغة هي ذات الشيء وعينه والجمع نفوس وأنفس (معجم الألفاظ والعلوم القرآنيـــــة) وعلى ذلك فكلمة نفس تدل على ذات معينة أو شيء معين مهما تعددت الأنفس أو الأشياء .

وإذا تحدثنا عن النفس الإنسانية نجد أن بعض الباحثين لا يفرق بين النفس والروح والعقل والقلب ـ يقول لسان الدين بن الخطيب (الإنسان في القرآن الكريم . عبد الكريم الخطيب) « القلب والروح والنفس والعقل

مدلولاتها واحدة فهي وإن تعددت الأسماء هي إدراكات نور واحد والخلاف اللفظي لا يعارض غرضا وقد جعلناها بمعنًى واحد » .

وجاء في نفس الكتاب « فالإنسان عند الغزالي يشارك الكائنات الحية من نبات وحيوان في تطورها أطوارا فيمضي الإنسان مثلها من البذرة ـ وهي النطفة أو اللباب ثم يكون علقة ثم مضغة ثم عظاما ثم لحما يكسو هذه العظام .. حيث تشتمل عليه وتلمسه روح حيواني كسائر الأحياء ثم ينفخ فيه الخالق سبحانه من روحه فإذا هو خلق آخر له إدراك ووعي يخرجانه من منطقة الحيوان إلى عالم الإنسان ، وهذا الإدراك والوعي أو هذا الخلق الآخر هو النفس وبذلك يقرر الغزالي أن النفس هي روح في درجة عليا تتجاوز بها الروح التي في الحيوان » .

كما يقول عبد الكريم الخطيب في كتابه المذكور « القرآن الكريم » يتحدث عن النفس بأنها جوهر لطيف يغاير الإنسان أو بمعنًى آخر يغاير الجسد الإنساني فيموت الجسد ويبلَى وتبقَى النفس تنتظر إلى يوم البعث لتلتقي بالجسد الذي يبعثها الله تعالَى فيه وهذا ما يشير إليه قوله تعالَى مخاطبا النفس « يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » .. وما يشير إليه قوله تعالى على لسان الملائكة الذين يقبضون أرواح الكافرين والملحدين وأهل الضلال « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم من آياته تستكبرون » ويقول سبحانه في بعث الأموات « وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد » فالنفس في القرآن الكريم هي جوهر الإنسان ولبابه وإليها وبها يكون صلاح الإنسان أو فساده وهداه أو ضلاله ونعيمه أو شقاؤه .

إنني أخالف من ذكرت من الباحثين .. أقول ببساطة إن النفس كما وردت في القرآن الكريم هي الكائن بمشتملاته ، هي الذات بكل مكوناتها من

جسد وروح بكل مكوناتها من مبنَى ومعنَى بكل أعضائها التي تمارس وظائف الحياة التي نعلمها جميعا ، وكذلك بأعضائها التي لانعرفها وربما نعرف مظاهرها من تعقل وتفكر وتصور وتخيل ويقين وخير وشر وضلالة وهدًى وغلظة ورقة وغير ذلك من الصفات . إن النفس تأكل وتشرب وتمارس الجنس أو تهم به فهي ذكر وأنثى وهي تقتل وتُقتَلْ تحيا وتموت تخلق وتُبْعَثْ تعمل وتكسب وتخسر تظلم وتُظْلَمْ تخادع وتُخْدَعْ ترى وتهوَى وتشتهي وتتغير.

وكتاب الله العزيز مليئ بالآيات التي وصفت النفس بكل هذه الصفات : « ليجزي الله كل نفس ما كسبت » (ابراهيم 51) .

« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » (آل عمران 145) .

« فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله » (المائدة 30) .

« من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » (المائدة 32) .

« وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف » (المائدة 45) .

« يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلّا أنفسهم » (البقرة 9) .

« لبئس ما قدمت لهم أنفسهم » (المائدة80) .

« وإن يهلكون إلّا أنفسهم » (الأنعام 26) .

« أن تبسل نفس بما كسبت » (الأنعام 70) .

« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا » (الأعراف 23) .

« لا نكلف نفسا إلّا وسعها » (الأعراف 42) .

« يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت » (النحل 111) .

«كفَى بنفسك اليوم عليك حسيبا» (الإسراء 14).

«لتجزَى كل نفس بما تسعَى» (طه 15).

«وهم فيما اشتَهت أنفسهم خالدون» (الأنبياء102).

«ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله» (البقرة207).

«واتقوا يوما لا تجزَى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل» (البقرة 48).

«ولم يكن لهم شهداء إلّا أنفسهم» (النور 6).

«واستيقنتها أنفسهم» (النمل 14).

«فلا تعلم نفس ما أخفي لهم» (السجدة 17).

«فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم» (السجدة 27).

«فاليوم لا تظلم نفس شيئا» (يس 54).

«ووفيت كل نفس ما عملت» (الزمر 70).

«اليوم تجزَى كل نفس بما كسبت» (غافر 17).

«ولتنظر نفس ما قدمت لغد» (الحشر 18).

«ولكنكم فتنتم أنفسكم» (الحديد 14).

«ولا تخرجون أنفسكم من دياركم» (البقرة 84).

«ومن يوق شح نفسه» (الحشر 9).

«بئس ما اشتروا به أنفسهم» (البقرة 90).

«ونهَى النفس عن الهوَى» (النازعات 40).

بل أن النفس ستبعث في الآخرة بما خلقت عليه في الدنيا

«ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة» (لقمان 28).

كما أن النفس إذا قدر لها أن تدخل الجنة فستمارس الأكل والشرب والجنس :

« نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون » (فصلت 31) .

« ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون » (الزخرف 70 ، 71) .

«فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان» (الرحمن 56) .

« حور مقصورات في الخيام » (الرحمن 73) .

« كذلك وزوجناهم بحور عين » (الدخان 54) .

من كل تلك الآيات نرى أن النفس في كتاب الله العزيز هي واحدة ، من الناس من قتلها بغير حق فكأنما قتل الناس جميعا . النفس اذن هي الذات البشرية هي الإنسان بكامل خلقته .

كما أن الله يخاطب رسوله ﷺ ويقول .

« فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن الله عليم بما يصنعون » (فاطر 8) .

ولا بد أن يكون لهذه النفس البشرية صفات معينة تميز جميع أفرادها وتختلف بواسطتها عن غيرها من الأشياء ، والأنفس . وبعبارة أخرى فإن الإنسان مهما تعدد لونه أو حجمه أو ثقافته أو سنه أو جنسيته أو لغته أو صحته أو مسقط رأسه بماضيه وحاضره ومستقبله (الذي نعلمه) مهما تعددت ملايينه هو نفس واحدة تميزه عن غيره من الأنفس .

تلك النفس لها شكلها المعين يتمثل في جسدها ، ولها طبيعة معينة ، قد يكون مصدرها الروح التي لا نعرف كنهها والتي ربما كانت تتمثل فيما يقوم به العقل والقلب أي الفكر والفؤاد أو البصيرة والوجـدان .

« ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين * وهديناه النجدين »[1] (البلد 8 ـ 10) .

ممَّ تتكون تلك النفس التي يتميز بها الإنسان وينفرد بها عن غيره من المخلوقات الحية وغير الحية ؟؟.. نعود في ذلك إلى كتاب الله العزيز .. تلك النفس البشرية خلقت من صلصال من حمأ مسنون نفخ الله فيها من روحه العلية . هي مادة نعلمها ونعلم شكلها ومكوناتها ووظائف أعضائها وخصائصها ، داخلها روح لا نعلمها .. هي إذن جسد وروح .. هي جسد نراه ونلمسه ، ويمكن أن نميز اختلافاته بين الفرد وأخيه وأمه وزوجته وبنيه ولكن فيها في نفس الوقت روحا من أمر ربها لا يمكننا أن نميز اختلافاتها لأننا لا نعرف ما هيتها أو كنهها . ومن اجتماع الجسد والروح تتكون الأنفس وفي ذلك يقول سبحانه عن يوم القيامة :

« وإذا البحار سجرت * وإذا النفوس زوجت » (التكوير 6 ، 7) .

فان تزويج النفوس في يوم البعث هو فيما أرى أن تعاد كل روح إلى جسدها الذي فارقته بالموت .

فالنفس إذن هي كائن بذاته عبارة عن مكونات من الجسد والروح

---

(1) النجد لغة هو المكان المرتفع .. معظم المفسرين يقولون النجدين هما طريق الخير وطريق الشر . ولا أوافق على هذا التفسير فلو كان طريق الخير مرتفعا فلا شكّ أن طريق الشـرّ في أسفل سافلين . أرى أن النجدين هما العقل والقلب وكلاهما في مكان مرتفع من الإنسان. وليس المقصود بالقلب هنا عضلة القلب ولكن ما نعتقد أنه من مظاهـر القلب مثل الإيمان واليقين وغير ذلك كما جاء في قوله سبحانـه « ولو كنـت فظًا غليـظ القلب لانفضّـوا من حولـك » .

تؤثّر وتتأثر ببعضها البعض لتخرج في النهاية ذلك الكائن .. النفس .. وكما ذكرت ربما كان فعل العقل والقلب وغير ذلك مما لا نعلم من مظاهر أو من مكونات الروح .

ولكي أوضح تأثير مكونات النفس وتأثرها ببعضها البعض أقول : هب أن رجلا رأى سيدة جميلة فحاول الاعتداء عليها فقاومته فقتلها خنقا بيديه ، نرى بذلك أن الشرارة الأولَى أو العامل الأول في ذلك الحادث الذي أودَى بحياة المرأة بدأ من جسد الرجل (وربما من جسد المرأة) من أحد أعضائه من عينين رأتا الجمال فأرسلتا إشارة إلى مركز الإبصار في المخ .. والمخ بدوره أعمل الفكر الذي أشار على الرجل بمحاولة اغتصابها بالتقدم برجليه نحو المرأة والإمساك بها بيديه ومحاولة الاعتداء عليها بأعضائه .. فلما قاومته لم يرحمها قلبه الغليظ فأعمل فكره ثانيا الذي أشار عليه بقتلها فأصدر المخ إشارة إلى يديه بالضغط على عنقها ليقتلها . من هنا نرى كيف اشتركت أعضاء الجسد مع العقل والقلب فقامت نفس ذلك الرجل بارتكاب الجريمة غير أن الشرارة الأولَى في تلك القصة بدأت من عضو جسدي في الرجل (عينيه اللتين رأى بهما جمال المرأة) وقد يكون هذا العضو (أذنيه اللتين سمعتا صوتها الرقيق) أو (أنفه الذي شمَّ أريجها النفاذ) . والآن هب أن الرجل لص قد تسلق المواسير وقفز من نافذة المسكن الذي تسكن به السيدة بغرض السرقة ثم رآها داخل منزلها وتتابعت الأحداث إلى النهاية ، في هذه الحالة نرى أن الإشارة الأولى جاءت من العقل الذي أشار على الرجل بالسرقة فأصدر المخ أمره إلى رجليه ويديه بتسلق المواسير ثم تتابعت الأحداث . ولكننا إذا افترضنا أن هذا الرجل يحقد أصلا على الأغنياء فسولت له نفسه أن يذهب لسرقة أحدهم فتسلق مواسير المياه ثم رأى امرأة إلى آخر القصة عندئذ نرى أن الشرارة الأولَى صدرت من قلبه الأسود الذي يحقد على المجتمع الذي يعيش فيه .

من ذلك يتضح أن النفس هي المحصلة النهائية لجسد يتحرك وعقل يفكر وقلب يحس ويشعر ويختلف بطبيعته قسوة أو حنانا ورقة أو غلظة . ومن ذلك المزيج تختلف النفوس فنها ما يعمل فكرها وقلبها على أن تجبر جسدها على طاعة ربها ومراعاة ضميرها وتلك هي النفس النقية المطمئنة .

« يا أيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية » (الفجر 28 ـ 29) . ومنها النفس الفاجرة الشريرة التي تتغلب فيها شهوات الجسد ومتاع الحياة الدنيا ضاربة عرض الحائط بخشية الله أو مراعاة الضمير يخضع فيها العقل والقلب لصرخات الجسد الذي يبحث عن اللذة والاستمتاع حراما كان أم حلالا .

« ونفس وما سواها * فألهمها فجورها » (الشمس 7 ـ 8) .

ومنها النفس اللوامة التي تخطيء وترتكب المعصية ولكن يصحو فيها الضمير ويستيقظ العقل ويحس قلبها بالأسى والندم .

« لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة » (القيامة 1) .

ومنها تلك النفس الأمارة بالسوء التي يلح عليها فكرها وقلبها بارتكاب المعصية ومجافاة الخير .

« وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء » (يوسف 53) .

ونخلص من ذلك إلى أن أنفسنا مهما تختلف في ظاهرها وفي طبائعها وسلوكها فإن تركيبها جميعا واحد .. فقوله تعالى « خلقكم من نفس واحدة » تعني خلقكم من جنس ونوع وطبيعة واحدة بالضبط كما نقول مثلا إننا نقيم معرضا للكتاب فإن تلك الكتب التي نعرضها ربما بالملايين مهما تعدد أحجامها وأشكالها ولغاتها وكتّابها وموضوعاتها وأسلوبها وأماكن نشرها وطرق تغليفها فجميعها تشترك في أنها نوع واحد ـ الكتاب .

والنفس يمكن أن تتحول من نفس فاجرة إلى نفس نقية ، من نفس

شريرة إلى نفس خيرة ، من نفس مستهترة إلى نفس متمسكة بدينها وعقيدتها ، من نفس عاصية إلى نفس مطمئنة .

« إن الله لا يغير ما بقوم حتّى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد 11).

من ذلك أرى أن الله سبحانه وتعالَى حين يقول :

« يا أيها الناس اتّقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » .

فإن هذه النفس الواحدة لا تعني آدم ، كما أن خلق منها زوجها لا تعني خلق حواء من ضلع آدم .. ولكن المعنَى الذي يقصده سبحانه وتعالَى هو أني خلقتكم جميعا من نفس واحدة هي النفس البشرية ، وخلقت لكم أزواجكم من تلك النفس فاذا كنتم ذكورا فقد خلقت لكم الإناث وإن كنتن إناثا فقد خلقت لكن الذكور .. ودليل صحة ذلك هو قوله تعالَى :

« ما خلقكم ولا بعثكم إلّا كنفس واحدة » (لقمان 28) .

فإذا أخذنا بتفسير أن النفس الواحدة هي آدم خلقنا جميعا منها ، فهل سنبعث كنفس واحدة هي آدم ؟!! .. إن معنَى تلك الآية الكريمة هي أننا خلقنا نوعا واحدا من جسد وروح وأننا سنبعث أيضا جسدا وروحا وفي ذلك يقول المولَى أيضا :

« وإذا البحار سجرت * وإذا النفوس زوجت » (التكوير 6 ، 7) .

أما القول بأن حواء خلقت من أب هو آدم بدون أم استنادا إلى قوله سبحانه « وخلق منها زوجها » فهو في رأيي تفسير لا صحة ولا سند له .

وفي تفسير المنار (الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . تأليف السيد محمد رشيد رضا): وأما قوله تعالَى في سورة النساء

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها »

وفي سورة الأعراف :

«هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها »
فقد قال غير واحد من المفسرين أن المعنَى من جنسها كما قال في سورة الروم :

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .
فإن المعنَى هناك على أنه خلق أزواجا من جنسنا ولا يصح أن يراد أنه خلق كل زوجة من بدن زوجها كما هو ظاهر.

من كل ما تقدم أرى أن المولَى سبحانه حين يقول « خلقكم من نفس واحدة » أو أن خلقكم وبعثكم «كنفس واحدة » فإن تلك الوحدة لا تعني وحدة الكم بل تعني وحدة الكيف.. إنها لا تعني وحدة العدد (آدم) بل تدل علَى كثرة في العدد ووحدة في الصنف (النفس البشرية) تماما كما نقول إن الله قد خلق من الحيوان حصانا وكلبا ومن الطير طاووسا وغرابا .. فلا يعني ذلك حصانا واحدا أو غرابا واحدا ... بل أن استعمال كلمة (نفس) المفردة الدالة على الجمع قد وردت كثيرا في كتاب الله الكريم :

« وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله » (آل عمران 145) .
« أن تبسل نفس بما كسبت » (الأنعام 70) .
« لا نكلف نفسا إلا وسعها » (الأعراف 42) .
« فلا تعلم نفس ما أخفي لهم » (السجدة 17) .
« فاليوم لا تظلم نفس شيئا » (يس 54) .

« أن تقول نفس يا حسرتي على مافرطت في جنب الله »
(الزمـــر56)
« علمت نفس ما أحضرت » (التكوير 14)
« علمت نفس ما قدمت وأخّرت » (الانفطار 19) .
ونفس وما سـوّاها » (الشمس 7) .

تلك النفس وإن كانت كثيرة في العدد فهي واحدة في المظهـر والمخبر في الشكـل والمضمون في الخارج والداخـل ، في القشرة واللّباب ... جعل منها الذكر والأنثى ولكن هـؤلاء مهما كثر عددهم وتنـوّع أشتاتهم متشابهـون لأنهم من نفس واحدة وهم في نفـس الوقت مختلـفون عن غيرهم لأنهم من نفس بشريـة تختلف عن غيرها من الأنفـس وفي ذلك يقول عزّ وجل :

« فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجـاً » (الشورى 11) .

في هذا القول الكريم نجد أن أزواجنا تتمثّل جميعها في نفس واحدة في صنف واحد . أمّا أزواج الأنعام فتقع في أصناف شتّى .

وبعد ...

لو كان هذا الاستنتاج صحيحا وأن النفس الواحدة التي خلقنا منها هي النفس البشرية ، فلا بدّ من وجود أنفس أخرى .. فهل توجد أنفس غير أنفس البشر؟ .

نُجيب .. نعم . لقد خلق الله سبحانه أنفساً عاقلة أخرى [1] كما أطلـق في كتابه العزيز لفظ « أنفـس » على أشياء غير عاقلة .. لقد خلق الله الجنّ كائنات عاقلـة إذ يقول :

---

(1) رغم ان الملائكة مخلوقات عاقلـة إلّا أن الله سبحانه وتعالى لم يطلـق عليهم أبـداً لفظ « أنفـس » .

« يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي » (الأنعام 130) .

« قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الاسراء 88) .

فهل ذكر عن الجن أنهم أنفس ؟.. لنستمع إلى قوله تعالَى :

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا * ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » (الكهف 50 ، 51) .

إن « أنفسهم » في الآية الكريمة الأخيرة تعني إبليس وذريته من الجن ... أما الأنفس غير العاقلة فقد جاء في الذكر الكريم عن الآلهة التي كان الناس يعبدونها في الجاهلية مثل الشمس والنار والأوثان :

« واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا » (الفرقان 3) .

« قل أفتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا » (الرعد 16) . وفوق كل ذلك يجدر بنا أن نذكر أن الله جلّ وعلا الحي الذي لا يموت الذي ليس كمثله شيء .. قد أطلق على ذاته العلية كلمة نفس :

« ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » (آل عمران 28) .

« ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد » (آل عمران 30) .

« كتب على نفسه الرحمة » (الأنعام 12) .

« جئت على قدر يا موسَى * واصطنعتك لنفسي » (طه 40 ، 41) .

كما جاء على لسان عيسَى عليه السلام مخاطبا ربّه :

« تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » (المائدة 116) .

مما ذكرنا .. يتضح لنا أن النفس البشرية هي نفس واحدة قد خلقنا منها ، وتختلف عن غيرها من الأنفس ... ويجدر بي أن أشير إلى ما يقوله العلم في ذلك :

إن الله سبحانه يقول :

« خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء »

إنني لا يسعني كأحد المشتغلين بالعلوم إلا أن أسجد للرحمان في ذلك القول العلمي السديد وأن أقول للعلماء وفوق كل ذي علم عليم ... إن قوله سبحانه :

« وبثّ منهما رجالا كثيرا ونساء »

بعد قوله

«خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها »

فإنما يعني من الناحية العلمية أن تلك النفس الواحدة هي النوع .. إنه لكي ينجب ذكر وأنثى من أي من الأحياء سواء منها النبات أو الحيوان أو الإنسان نسلا مستمرا جيلا وراء جيل لا بد لذلك الذكر وتلك الأنثى أن يكونا نوعا واحداً . ولعلّ ما نعلمه جميعا عن تزاوج الحصان والحمار وما ينتج عن ذلك وهو البغل الذي تنقطع به سلسلة ذلك التزاوج إذ هو عقيم فلا هو بالذكر الكامل ولا هو بالأنثى الكاملة . هذا التزاوج وما ينتجه إنما هو دليل على أن الحصان والحمار نوعان مختلفان . وذلك يوضح قوله سبحانه إنه خلقنا نحن البشر من نفس واحدة ، أي من نوع واحد ، وخلق أزواجنا (ذكورا وإناثا) من تلك النفس - أي من نفس النوع - وهكذا ننجب نحن وأزواجنا رجالا كاملي الرجولة ونساء كاملات الأنوثة على مرّ الزمن .

وربّ قائل يقول إذا كنت تدعى أن آدم ليس أبا للإنسان (كما جاء في الباب السابق) وأن نفسا واحدة لا تعني آدم خلقها الله بيديه خلقا خاصا من تراب فماذا تفسر قوله تعالى :

« إن مثل عيسَى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » (آل عمران 59) .

أقول إن تلك الآية الشريفة تؤيد ما ذهبت إليه من رأي ... فرغم أننا جميعا نعلم أن عيسَى عليه السلام خلقه الله تعالى من نطفة من مريم العذراء أو بمعنَى آخر رغم أن عيسَى ولد من أم اسمها مريم فإن الله سبحانه يقول إنه خلقه كما خلق آدم من تراب ثم قال له كن فيكون فلماذا إذن نعتبر أن آدم وحده خلق من تراب .. بل أكثر من ذلك هل آدم وعيسى فقط هما اللذان نصّ القرآن على خلقهما من تراب ؟ .

إن الله سبحانه يخاطبنا جميعا .. رغم تأكدنا من أن لنا آباء وأمهات بأنه خلقنا من تراب فلنستمع معا :

« أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا » (الكهف 37) .

« والله خلقكم من تراب ثم من نطفة » (فاطر 11) .

« هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة » (غافر 67) .

« ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » (الروم 20) .

« وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد » (الرعد 5)

« إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة » (الحج 5)

كذلـــــك سوف يقول القائلون إن آدم خلقه الله سبحانه بيديه من

طين كما جاء في قوله :

« إذ قال ربّك للملائكة إني خالق بشرا من طين (ص 71) .

« قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » (ص 76 . الأعراف 12) .

فأقول وهل آدم وحده خصه الله بذلك ، يقول جلّ شأنه :

« وبدأ خلق الإنسان من طين » (السجدة 7) .

« هو الذي خلقكم من طين ثم قضَى أجلا » (الأنعام 2) .

« إنّا خلقناهم من طين لازب (الصافات 11) .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (المؤمنون 14) .

وسوف يقول المفسرون أيضا إن الله سبحانه خلق آدم خلقا خاصًا من الصلصال كما جاء :

« وإذْ قال ربّك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال » (الحجر 28) .

«قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال » (الحجر 33) .

فأقول إن الله لم يخص آدم فقط بذلك حيث جاء :

«ولقد خلقنا الإنسان من صلصال » (الحجر 26) .

« خلق الإنسان من صلصال كالفخار » (الرحمن 11) .

من جميع تلك الآيات أرى أن الله سبحانه حين يقول إن آدم أو عيسَى او الإنسان قد خلقوا من تراب أو طين أو صلصال .. فإنما يعني أن بدء خلقنا جميعا بل بدء المخلوقات جميعا هو التراب .

كيف خلق آدم إذن ؟

الإجابة أنه خلق من نطفة كما خلق عيسَى وكما خلق سائر البشر بل سائر الدواب. ألم يقل المولَى عزّ شأنه إنه خلق عيسَى من تراب ونحن على يقين بأنه خلق في أحشاء مريم .. هل هناك تعارض في القولين ؟؟..

لا تعارض.. لأن أساس خلق الإنسان جميعه في الماضي السحيق هو الطين.. وأن آدم خلق بعد خلق الإنسان فآدم من سلالة إنسان قبله والدليل على ذلك قوله سبحانه :

« وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (السجدة 7 ـ 9) .

لا شك أن المفسرين جميعا لا يختلفون في أن خلق آدم جاء بعد أن سواه الله سبحانه ونفخ فيه من روحه .. وبنص الآيات السابقة نرى أن بداية السواء والنفخ من الروح العلية جاءت بعد سلالة من الماء المهين كانت نسلا لإنسان بدأ خلقه من طين وذلك لأن حرف العطف « ثم » يفيد كما نعلم الترتيب مع التراخي .

دعونا نعيد معا المعنى الذي نستخلصه من قوله تعالى بتلك النصوص التي لا لبس فيها ...

يقول الله إنه بدأ خلق الإنسان من طين ، وهذا الإنسان كان ينسل أبناء ثم أحفادا في سلسلة .. فكيف كان يحدث ذلك النسل وذلك التكاثر ؟ كان يحدث بواسطة الماء المهين .. أي بواسطة النطفة جيلا وراء جيل إلى أن ظهر الإنسان السوي الذي أتم الله سواءه وعندئذ نفخ الله فيه من روحه فكان آدم وكان البشر .. إذ أن بداية آدم وبداية البشر كانت بظهور الإنسان الذي نفخ فيه الله من روحه .

ولكن ينبغي لنا أن نتساءل .. كيف وجد ذلك الإنسان الأول الذي أنتج في النهاية آدم البشر بواسطة النطفة من الماء المهين ؟ .

هنا يجيب المولى سبحانه بقوله :

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقاً آخر (المؤمنون 12 ـ 14) .

أي أن ذلك الإنسان الأول جد آدم والآدميين هو نفسه سلالة من أحياء سابقة مرجعها إلى الطين إلى أصل الحياة . ويؤكد ذلك دقة التعبير في قوله سبحانه « وبدأ خلق الإنسان من طين» في سورة السجدة .. وقوله « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين » في سورة المؤمنون ، في السورة الأولى يقول سبحانه. إن بدء خلق الإنسان هو الطين وفي السورة الثانية يقول إن خلق الإنسان كان من سلالة من طين أي نتج عن سلالة من طين . في الأولى يتحدث سبحانه عن بدء الخلق وفي الثانية عن الخلق ذاته .. ويعني ذلك أن هناك مرحلة بين بدء الخلق وبين الخلق كانت في سلالة مرجعها إلى الطين أصل الحياة .. وفي هذا تأكيد بخلق أحياء سابقة للانسان قد نشأ هو منها ونشأت هي من الطين . كان هذا الإنسان جدًّا لآدم ... أما عن المرحلة بين الإنسان السابق لآدم وبين الانسان البشري الآدمي فيدل على وجودها أيضا قوله سبحانه :

« ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر » (المؤمنون 14) .

إذ أن هذا القول بالإضافة إلى أنه يبين تطور الجنين في داخل الرحم فإنه إذا تمعنا فيه يدل أيضا على تطور الإنسان إلى إنسان آخر هو الإنسان الآدمي[1] إذ في قوله سبحانه :

« ثم أنشأناه خلقا آخر »

بعد قوله سبحانه في آية سابقة :

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين »

---

(1) من الغريب أن رجال العلم يقولون Ontogeny recapitulates phylogeny وهـذا يعني أن خطوات تطوّر الكائن الفرد تلخّص خطوات تطوّر الجنس كلّـه .

دليل على أن هذا الإنسان قد أنشأه المولى خلقا آخر خلقا آدميا يختلف عن الإنسان الذي نبت منه أصلا أى أن ذلك الإنسان الآدمي قد تطور عن إنسان يسبقه . وجدير بالذكر أن تطور الجنين في داخل الرحم من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام يكسوها اللحم .. هذا التطور تمر به كافة المخلوقات الولودة بما فيها الإنسان.ولكن في قوله سبحانه«ثم أنشأناه خلقا آخر»هو دليل التحول من الإنسان غير البشري إلى الإنسان البشري يوم بلوغ السواء والنفخ من روح الله سبحانه وتعالَى . ويجدر بي أيضا أن أشير إلى دقة التعبير في قوله سبحانه « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » إذ أن تلك الفترة تشمل كائنات غير ولودة بل تشمل أيضا كائنات لم تعرف التكاثر الجنسي بالذكر والأنثَى ولذلك لم يكن الإنسان قد وصل بعد إلى مرحلة التكاثر بنطفة في قرار مكين ويستدل أيضا على وجود مرحلة التطور من إنسان غير آدمي إلى الإنسان البشر من قوله سبحانه :

« هل أتَى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا * انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » (الإنسان 1 ، 2) .

إن ذلك الإنسان الذي لم يكن شيئا مذكورا (كما وضحت سابقا) إنسان سابق على وجود آدم ـ ونتساءل ثانيا كيف وجد ذلك الإنسان ؟ .. هنا يجيب المولى سبحانه مؤكدا ما سبق « إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » أى أن ذلك الانسان (وغيره) قد خلق من نطفة أمشاج من أبوين (ذكر وأنثَى) .

بل أنه بالإضافة إلى ذلك يمكننا أن نقول لمن يفسرون أن ذلك الانسان الذي لم يكن شيئا مذكورا هو آدم .. نقول لهم إذن قد وجب عليكم الاعتراف بأن آدم خلق من أبوين بنص الآية التالية مباشرة « إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » .

مما سبق نرى أن آدم عليه السلام قد خلق من نطفة شأنه شأن الدواب على سطح الأرض جميعا .

« والله خلق كل دابة من ماء فنهم من يمشي على بطنه ومهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » (النور 45) .

ورب سائل يقول هل تلك النطفة من أمه فقط كما خلق عيسَى سلام الله عليه أو أنها نطفة أمشاج من أبوين . الإجابة على هذا السؤال لا تفيدنا في شيء لأن ما يهمنا هو أن آدم ـسأ عن إنسان سابق فسواء كان لآدم أم فقط أو له أم وأب فإن ذلك لا يغير من الأمر شيئا .. ولكن الأرجح وربما من المؤكد أن آدم خلق من أبوين لأن معجزة عيسَى في خلقه من أمه فقط لا تصبح معجزة إذا سبقه من البشر من خلق بنفس طريقته حتّى ولو كان آدم ، كما أن الإنسان عامة قد خلق من نطفة أمشاج كما يقول المولى سبحانه .

أسمع الآن من يردد القول بأن قدرة الله لا حدود لها وهي قدرة مطلقة وأن طلاقة القدرة تتجلّى في خلق آدم بدون أبوين وفي خلق حواء من أب هو آدم بدون أم وأقول ردا على هؤلاء إن قدرة الله ليست موضع جدل وإن آيات الله لا نهاية لها ومن آياته أنه سبحانه قد وضع قوانين للكون قوانين تسير بدقة بالغة تسري على جميع المخلوقات فإرادته جل شأنه تتم تحت نواميس قد وضعها بإرادته هو نفسه بذاته العلية وفي ذلك يقول :

« سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » (الأحزاب 62) .

« فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » (الروم 20) .

ومن قوانين الله في خلقه هو أن تتكاثر مخلوقاته الحيوانية الولودة بما فيها الإنسان عن طريق نطفة من أبوين ولا بدّ لهذه النطفة من أم تعيش في رحمها وتتشكل خلقاً من بعد خلق حتّى يخرجها الله إنساناً كاملا. وإليكم

الدليل الساطع على ما أقول ، أليس الله سبحانه هو الذي يخاطب من يدعون بأن له ولدا بقوله :

« بديع السماوات والأرض أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » (الأنعام 101) .

أليس معنَى ذلك بعد أن أجمع المفسرون على أن كلمة صاحبة تعني زوجة.أن الله سبحانه لكي يكون له ولد فلا بد من زوجة ينمو في أحشائها ذلك الجنين أليس معنَى ذلك أنه لكي يولد ولد لوالد فلا بد من وجود الوالدة . فإذا كان ذلك القانون يسري حتّى على الله عز شأنه فهل لا يسري على البشر بما فيهم آدم . إن الله يقول بأنه ليس له ولد لأنه سبحانه ليس له زوجة تلد هذا الولد في الوقت الذي يقول فيه أيضا :

« وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون * بديع السماوات والأرض وإذا قضَى أمرا فإنما يقول له كن فيكون » (البقرة 116 ـ 117) .

أليس معنَى ذلك أنه رغم أن المولَى سبحانه إذا قضَى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ، إلا أن هذه الارادة وهذا القضاء لا يتم إلا تحت قوانين معينة هي أنه في حالة إنجاب ولد لوالد فلا بد من والدة .

أليس معنَى ذلك أن قدرة الله العلي القدير تتم تحت نواميس وضعها الله بنفسه وفي ذلك يقول سبحانه :

«إن ربي على صراط مستقيم » (هود 56) .

كما يقول سبحانه :

« أفلا يتدبرون القرآن ولوكان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء 82) .

إننا إذا قبلنا أن الله يصح أن يكون له ولد بكلمة كن فيكون فقط كما

يتحدث المتحدثون عن طلاقة القدرة لتعارض ذلك الفرض مع قوله سبحانه «أنّى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة» .. ولكان في القرآن اختلاف كثير، ولتعارض أيضاً مع قوله «إن ربي على صراط مستقيم» .

من كل ما تقدم نرى أن آدم لكي يوجد في هذا الوجود فلا بد لوجوده من والد ووالدة (أو على الأقل والدة) وكان هؤلاء من إنسان وُجِد قبله .. وبمثل ذلك وجدت حواء ولم توجد هي أيضا من والد هو آدم بدون والدة .

ورب قائل من أحد المشتغلين بالعلوم يقول ألا توجد حيوانات تتكاثر بدون حاجة إلى نطف من ذكور وإناث ... فأجيب نعم ولكن ذلك يتم بما يسمّى بالانقسام أو بالتجزؤ أو التبرعم في بعض الحيوانات الأولية وبعض النباتات ولا بد للذريات في هذه الحالة أن تماثل الأصل الذي نتجت عنه تماثلا كاملا .. وبعبارة أخرى لا بد « للوالد » في هذه الحالة أن ينجب ذريات تماثله تماما وبذلك لا يمكن لآدم الذكر أن ينجب حواء الأنثى عن ذلك الطريق .

أعلم أنكم ستقولون وكيف خلق المسيح عليه السلام من مريم العذراء بدون أن يمسسها بشر أليس ذلك بطلاقة القدرة ؟! أجيب على هذا القول .. إن ذلك قد تم أيضا بقوانين وضعها المولى جل شأنه وأن معجزة خلق عيسى هي بتطبيق قانون آخر لم يطبق على بشر سواه ، وهذا القانون قد أوجده الله في خلق آخر مثل ملكات النحل التي تنجب ذكورا بغير حاجة إلى نطفة من الذكر.

« وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (الأنعام 38) .

من كل ما تقدم نرى أن آدم وحواء قد خلقا شأنهما شأن سائر البشر أجمعين من إنسان يسبقهما في الوجود .

بقيت بعد ذلك قضية أخرى .. ألم يسكن آدم وحواء الجنة بنص قوله تعالَى :

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا » (البقرة 35) .

« ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما » (الأعراف 19) .

فهل تنطبق قوانين السماء التي لانعرفها على الأرض ؟؟.

نقول في ذلك ومن يستطع أن يجزم أن تلك الجنة كانت جنة السماء إن الحديقة الأرضية يطلق عليها اسم جنة .. وقد ورد ذلك في القرآن الكريم حيث ذكر من الجنات الأرضية الجنة والجنتان والجنات :

« كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين » (البقرة 264) .

« أيود أحدكم أن يكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار » (البقرة 266) .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون » (يس 33 ـ 34) .

« ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان » (الأنعام 99) .

« وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان » (الأنعام 141) .

« وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل » (الرعد 4) .

« وقالوا لن نؤمن لك حتّى تفجر لنا من الأرض ينبوعا * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا » (الإسراء 90 ـ 91) .

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا » (الكهف 32 ـ 33) .

« ودخل جنتيه وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا » (الكهف 35) .

« ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله » (الكهف 39) .

«فعسَى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك » (الكهف 40) .

« فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة » (المؤمنون 19) .

« أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها » (الفرقان 8) .

« فأخرجناهم من جنات وعيون » (الشعراء 57) .

« لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال » (سبأ 15) .

«كم تركوا من جنات وعيون » (الدخان 25) .

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد » (ق 9) .

بل ذكر أيضا في كتاب الله العزيز أن الجنة ربما تكون أشجارها ذات طعم كريه مر .

« فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط[1] وأثل وشيء من سدر قليل » (سبأ 16) .

---

(1) مر وبشع (تفسير الجلالين) .

من آيات الله البينات يتبين أن لفظ « جنة » لا يعني بالتحديد جنة السماء بل أن جنة آدم وحواء لا بد أن تكون جنة أرض إذ أن آدم خلق خليفة لله في الأرض وخلق من تراب الأرض وطينها .

وفي ذلك المجال يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (آدم أبو البشر بين المعصية والرسالة) .. « ويظن الكثيرون أن آدم بمعصية ربه أخرج نفسه وأخرجنا معه من الجنة . وكأن آدم هو الذي أخرجنا إلى التعب والكدح وكان من الممكن أن نظل في الجنة ننعم . وهؤلاء يظلمون أباهم لأن القضية تترتب على الإعلان الأول عن آدم فالإعلان الأول عن آدم لم يقل إني خلقت آدم للجنة ثم عصى ونزل إلى الأرض ولكنه قال : « إني جاعل في الأرض خليفة » .

إذن فمهمة آدم في الأرض وخلافته في الأرض ....

أخذ آدم وزوجه إلى الجنة .. ليست جنة الآخرة .. فالجنة يطلقها القرآن على مزرعة فيها كل أسباب الحياة ... فأوجده الله في مكان فيه كل متطلبات الحياة .. » .

ورب متسائل يسأل ولكن الله سبحانه وتعالى يقول :

« فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين » (البقرة 36) .

وهنا يجيب المفسرون أن قوله سبحانه اهبطوا لا يعني اهبطوا من السماء بل إنه مثل قوله تعالى «اهبطوا مصر».. وربما يكون المعنى أيضا اهبطوا من المنزلة التي أكرمكم بها بعد عصيانكم .

ورغم كل ما قدمت .. لازال هناك من يعترض قائلا إن الله سبحانه وتعالى يقول:

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة »

ولازلنا نصر على أن تلك النفس الواحدة هي آدم ولهؤلاء نقول إن الله سبحانه وتعالى يخاطب نفس هؤلاء الناس بقوله :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (البقرة 21) . أي أن هؤلاء الناس الذين خلقهم سبحانه وتعالى من نفس واحدة (هي آدم كما تعتقدون) قد خلق أيضا من هم قبلهم وهؤلاء الذين قبلهم من المحتمل أن يكونوا ناسا مثلهم ومن المحتمل أن يكونوا ناسا آخرين .. إذ يقول سبحانه إن الناس أمثلة عدة :

« ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل »

ومن المحتمل أيضا أن لايكونوا ناسا وفي ذلك يقول سبحانه :

« ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسيّ كثيرا »

وفي أي من تلك الحالات الثلاث يمكننا أن نرى أن آدم حتّى لو كان أبا للناس جميعا كما يتشبث المتشبثون فهو في نفس الوقت ابن لسلف سابق سلف من الأناسيّ لأن الناس جزء من الأناسيّ .

أما إذا اعتبرنا أن « نفسا واحدة » تعني نوعا واحدا (كما أنادي) فإن العليم الخبير سبحانه يقول للناس إنه خلقهم من نوع واحد كما خلق قبلهم من هم من نوعهم ومن هم من أنواع سابقة لهم .

وفي جميع الحالات نرى أن آدم ذرية لآباء سابقين يؤكد ذلك ما سبق أن ذكرنا من قوله سبحانه :

« إن الله اصطفَى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض »

صـــدق الله أصدق القائليـــن .

آدم .. في أساطيـــر الأوليـــن

يقول محمود شلبي (حياة آدم) .. (دار الجيل – بيروت . الطبعة الثانية ، القاهرة 1974) .. « المكان الذي صور الله فيه آدم عليه السلام هو الجنة : جنة المأوى – الجنة التي سيدخلها الصالحون بعد البعث ، التي وعد الرحمن عباده بالغيب » .

والزمان الذي خلق فيه آدم هو يوم الجمعة في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة قبض الله تعالى قبضة من جميع الأرض من كل عناصر الأرض . كمية كبيرة من أديم الأرض .. كمية من التراب وهذا هو الطور الأول ، ثم جعل الله تعالى ذلك التراب طينا وهذا هو الطور الثاني ، ثم ترك الله تعالى ذلك الطين حتى أنتن وتغير لونه وهذا هو الطور الثالث ، ثم ترك الله سبحانه وتعالى ذلك الطين المنتن المتغير حتى صار طينا لازبا أى ملتزقا بعضه ببعض . والمراد طين ملتصق يلزق باليد إذا مس بها وهذا هو الطور الرابع ، ثم بدأ تصوير الجسد من ذلك الطين المنتن المتغير الملتزق وهذا هو الطور الخامس . صوره سبحانه في أحسن صورة لأنه النموذج الأول للجنس البشري كله ، وجعل الله تعالى طوله ستين ذراعا وعرضه سبعة أذرع خلقا سويا جميلا . روى أحمد عن أبي هريرة مرفوعا «كان طول آدم ستين ذراعا في سبعة أذرع عرضا » والمراد ذراعنا نحن لاذراعه هو عليه السلام .. قال القرطبي « ويحتمل أن يكون هذا الذراع بأذرعتنا المتعارفة عندنا » .

وأتم الله سبحانه خلق ظاهره وباطنه وجميع الأعضاء وجميع التجاويف وجميع العضلات وجميع الأمعاء ... وهكذا .

وترك الله جسد آدم بعد أن صوره ملقى في الجنة حتى جف تماما وأصبح يصلصل كما يصلصل الفخار ويصوت إذا نقر وهذا هو الطور السادس ...

ترك الله الجسد ملقى في الجنة وجعل الملائكة يطوفون حولهوينظرون إليه كانوا يستغربون ويتعجبون من شأنه ما هذا الشيء الطويل وما هذا المنظر العجيب ؟ وكيف يتحول هذا الشيء الجاف الذي لا حركة فيه إلى مخلوق نسجد له ، لم يكونوا يعرفون بعد كيف يتحول إلى شيء يتحرك . وكان فيمن طاف بالجسد ونظر إليه ملك كبير سمي فيما بعد « إبليس » فلما رآه صاحب جوف ورأى له أحشاء وأمعاء وأعضاء عرف أن ذرية ذلك المخلوق من السهل عليه أن يضلها ويوسوس إليها ويدفعها إلى الشر...

فلما رآه أجوف ... الأجوف صاحب الجوف .. وقيل هو الذي داخله خال ... عرف أنه خلق خلقا لا يتمالك .. ومعنى لا يتمالك لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات . وقيل لا يملك دفع الوسواس عنه وقيل لا يملك نفسه عند الغضب والمراد جنس بني آدم ..

جف الجسد وصلصل كما يصلصل الفخار إذا نقر وأصبح مستعدا لإفاضة الحياة عليه واتجهت إرادة الله إلى خلقه إنسانا سويا فنفخ الله تعالى في الجسد من روحه جل وعلا أي من أمره فسرت الروح في الجسد وتحول الطين الجاف المصور إلى مخلوق حي جميل مدرك يشعر ويدرك ويبصر ويسمع ويشم ويشتهي ...

فلما سرت الروح في الجسد عطس آدم وقال « الحمد لله » فرد الله تعالى عليه « رحمك الله يا آدم » ونهض الجسم الجميل واعتدل قائما . ذهب وأتى ونظر إلى ما حوله إلى الجنة في جمالها وظلالها وروائها مخلوقا في

أحسن صورة وأكملها شاهق الارتفاع ستون ذراعا في السماء أي في الارتفاع عاريا حافيا أغرل أي لم يختتن على الفطرة لا يدري ما الخير وما الشر.. إنه لم يختبر بعد ...»

وجاء في تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) «وقال السدى في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش ... فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض إني أعوذ بالله منك أن تنقص مني أو أن تشينني فرجع ولم يأخذ وقال يارب إنها عاذت بك فأعذتها فبعث ميكائيل فعاذت منه فعاذها ، ورجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به فبل التراب حتّى عاد طينا لازبا واللازب هو الذي يلترق بعضه ببعض ثم قال للملائكة :

«إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدي ولم أتكبر أنا عنه بخلقه بشرا . فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه فكان أشدهم فزعا منه إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) ويقول لأمر ما خلقت ودخل من فيه فخرج من دبره وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنّه . فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له. فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت

الملائكة قل الحمد لله فقالها فقال الله « يرحمك الله » فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول الله تعالى « خلق الإنسان من عجل » فسجد الملائكة .. فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي ويقع فيه إسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم ... » .

وفي خلق حواء جاء ما يلي في الكتاب المذكور (حياة آدم)

« وكان حجم حواء هو حجم آدم ستون ذراعا في السماء ولكن تصغره في الجسم قليلا بنسبة ما تصغر الأنثى عن الذكر دائما . وكانت حواء عارية تماما كما كان آدم عاريا تماما ونظر إليها ونظرت إليه ولكنها لا ترى منه ما ترى الأنثى من الذكر ولا يرى منها ما يرى الذكر من الأنثى ، كانا عريانين إلا أنه لا يوجد بينهما الشعور بالشهوة شأنهم في ذلك شأن الأطفال الذين لم يبلغوا الحلم. يلعب ذكرهم مع أنثاهم ولكن لا يشعرون بالشعور الجنسي فيما بينهم ... ومن حق كل إنسان أن يعرف الصورة التي كانت عليها حواء والشيء الذي يقطع أنها كانت أجمل أنثى وجدت إلى يوم القيامة . إنها زوجة أول إنسان وأنها فطرت على أحسن صورة كما فطر آدم في أحسن تقويم ....

فمن جمال حواء التي تتفوق به على بناتها أنها أكبر منهن حجما فهي أنثى لرجل بلغ ارتفاعه ستين ذراعا فهي على الحجم الذي يناسب ذلك الارتفاع ويستتبع ذلك ضخامة أعضائها جميعا في تناسب وانسجام تام ...

وهي شيء جعل الله تعالى فيه سر الصنعة الأولى لبنات جنسها كلهن . فهل تكون إلا على أحسن صورة ؟ وقد فكرت طويلا في الصورة

التي كانت عليها أمنا حواء عند خـلقها لأول مرة فوجدت أنها شيئا غير بناتها . شيئا جميلا جدا فوق ما نتصور وما يدور بأذهاننا .... »

كما جاء في نفس الكتاب :

« عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : خلق آدم وطوله ستون ذراعا ثم قال اذهب فسلم على أولئك من الملائكة فاستمع لما يجيبونك تحيتك وتحية ذريتك .. فقال السلام عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن (البخارى) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة فإن استمتعت بها وبها عوج وان ذهبت تقيمها كسرتها. وكسرها طلاقها (مسلم) » .

ولا أجد ما أعلق به على أقوال مختلفة نسبت إلى الرسل والأنبياء ومنهم نبينا محمد صلوات الله عليه من مثل ما جاء أن آدم كان طوله ستين ذراعا أى أكثر من ثلاثين مترا أى أن ارتفاعه كان يقرب من بناء من أحد عشر طابقا . لا أجد ما أعلق به على هذا القول وأمثاله إلا قول المولى عز وجل :

« وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب » (المائدة 116) .

ولا ينبغي أن ننسى ما جاء في الكتاب المقدس عن كيفية خلق حواء :

« فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي هذه تدعى امرأة

لأنها من أمره أخذت لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان » (التكوين ــ الإصحاح الثاني) .

وأترك المجال لأحـــد| علماء الدّين المعاصرين ــ يقول عبد الكريم الخطيب (قصتا آدم ويوسف عليهما السلام) :

« ونعود إلى قصة خلق آدم فنقول إن الأساطير التي عرفها العرب في الجاهلية عن خلق آدم ثم ظلت متداولة بينهم في الإسلام ثم رفدتها روافد كثيرة من الأمم التي دخلت في الإسلام ـ نقول : إن هذه الأساطير قد ألقت على الآيات القرآنية التي ذكر فيها خلق آدم ظلالا متكاثفة أتاحت لأشباح هذه الأساطير أن تشغل المكان الذي كان ينبغي أن تشغله مفاهيم هذه الآيات ومعطيات دلالاتها ومن أجل هذا لبست تلك الآيات في أكثر كتب التفاسير هذه الصورة الأسطورية واعتبر ذلك مفهوما حقيقيا لها ....

يقول القرطبي مثلا .. فخلقه الله بيده فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدهم فزعا إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار تكون له صلصلة ويقول لأمر ما خلقت .

وهذا القول وأمثاله إن هو إلا من موارد قصص الأولين وأساطيرهم وليس في آيات القرآن الكريم دلالة عليه من قريب أو بعيد ...

وننتهي في هذا كلّه إلى قول واحد في هذه القضية وهو الاحتفاظ بها في الإطار القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فآدم مخلوق من طين أو من حمأ مسنون أو من طين لازب أو من سلالة من طين فهذا هو الذي يقول القرآن في خلق آدم . وليقل العلم ما يشاء من مقولات فإن مصير العلم وما يقع له من حقائق ثابتة في هذا الشأن لا بد أن ينتهي إلى تلك الصورة التي رسمتها الآيات القرآنية له » .

ولا شك أننا جميــعا نوافق الكاتب تماما على ما يقول ...

أنا ولوسي وأبناء العمومة القردة

قبل أن أبدأ حديثي أتوجه بالشكر إلى العلماء كافة الذين ساهموا في تعريفي بنفسي و في تحديد موقعي على خريطة الحياة . لقد أفاد العلماء بأنني أقف على فرع من فروع شجرة الأحياء التي تمتد جذورها في الأرض تأخذ منها المواد الأولية لكي تكون مادة الحياة التي تسري في جميع أجزاء تلك الشجرة . إذا كنت الآن أقف على فرع معين فهل أقف عليه أنا البشر وحيدا . ألا يوجد الآن نوع آخر من الأحياء يقف بجواري فيعتبر شقيقا لي فنكون نوعين من جنس واحد . يجيب العلماء لا .. إن جنس الإنسان يحتوي حاليا على نوع واحد هو أنت فقط ولا سواك أنت الإنسان البشر ، الإنسان العاقل Homo sapiens أنت من ورث الأرض من أناسي أخرى خلقت من نفس مادتك هم أجدادك وأقول سبحان القائل :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (الحجر 26 ـ 29) .

فأنا الإنسان البشر الذي خلق من صلصال من حمأ مسنون سواه الله ونفخ فيه من روحه سبقني إنسان آخر خلق من صلصال من حمأ مسنون ، إذن فمن هم هؤلاء الذين سبقوني ؟؟ .

مهلا ... ليست المسألة سهلة أو هينة فإن تاريخ الإنسان أو الحيوان السابق ليس مسجلا على شرائط التسجيل من الكاسيت أو الفيديو أو مكتوبا على الألواح أو الأوراق .. وإنما هو مسجل في حفريات وعظام متفتتة وأدوات حجرية تكاد تكون غير مميزة عن التربة التي توجد بها بل أن كثيرا من الأدلة التي تساعد على الإجابة على أسئلتنا لا يمكن اكتشافها على الإطلاق . والعثور على جمجمة أو على هيكل عظمي كامل لإنسان في الماضي يعتبر كشفا علميا رائعا .

منذ حوالي مائتين وثلاثين مليونا من الأعوام (230 مليون سنة) أي قبل ظهور الإنسان أو أي حيوان آخر يشبهه ، كانت عائلة الديناصورات هي صاحبة السيادة في الأرض وكان ملك الديناصورات كلها هو التيرانوصور كان بمثابة سحلية ضخمة يبلغ طولها حوالي خمسين قدما (حوالي 16 مترا) وحين يقف على رجليه الخلفيتين ويعدل قامته بالاعتماد على ذيله الهائل يبلغ ارتفاعه عشرين قدما أي ستة أمتار ، ولو وقف رجل إلى جانبه لما وصل إلى ركبتيه وكان له فكان ضخمان تضمان أسنانا يبلغ طول الواحدة منها ست بوصات (15 سنتيمترا) وكان يفتح فمه بمقدار يقرب من المتر وكان التيرانوصور شرها يقوم بافتراس أنواع الديناصورات التي تتغذى على النبات . ولم تكن جميع الديناصورات بتلك الضخامة ، بل كان يوجد منها أكثر من خمسة آلاف نوع منها ما كان بحجم التماسيح الصغيرة ولم تكن جميعها سكنت الأرض دفعة واحدة إذ أن عصر الزواحف كان شاسعا إذ استمر حوالي مائة وسبعة وستين مليون عاما (167 مليون) كانت الظروف البيئية خلالها مثالية بالنسبة للديناصورات حيث كان المناخ استوائيا وكانت المستنقعات والبرك مليئة بالغذاء النباتي وكان من الديناصورات ما يعيش في اليابسة ومنها ما يعيش في الماء وما يطير في الهواء ، ولم يكن هناك حيوان على ظهر الأرض من القوة بحيث يستطيع

أن يتحدّى سيطرتها ومع ذلك انقرضت هذه السحالي الضخمة وانتهت إلى الأبد اللهم إلا عظامها التي يتراكم عليها التراب اليوم في المتاحف في أنحاء كثيرة من العالم . لماذا انقرضت ؟؟ لقد كانت حيوانات لا يلائمها إلا أن تعيش في بيئة استوائية عالية الرطوبة ، لقد كانت ذوات دم بارد تعتمد على الشمس لتزود أجسامها بالحرارة ومن ثم فإن انخفاض الحرارة في جو الأرض بضع درجات يعني الحد الفاصل بين الحياة والموت .

حينما أخذ الجو يميل إلى البرودة والجفاف اختفت أيضا البرك والمستنقعات وبذلك اختفت موارد الغذاء النباتية فماتت الديناصورات آكلة النباتات وأعقبتها آكلات اللحوم ، وقد حلت الثدييات محل الزواحف تدريجيا ، والثدييات حيوانات دافئة الدم قادرة على الاحتفاظ بدرجة حرارة جسمها حتّى في أشد الأجواء برودة وعلاوة على ذلك فإنها تعنى بصغارها التي تلدها وتغذّيها من أثدائها .. ولعلّ الحيوان المسمّى « أكدنا » وكــذا « الأورنيثورتكس » وهما من الثدييات التي تضع بيضا يعتبران من الدلائل على تطور الثدييات من الزواحف حيث أن جهازيهما البولي والتناسلي يشبهان الجهاز المناظر لهما في الزواحف .

لقد ظهرت الثدييات على الأرض منذ حوالي ثلاثة وستين مليونا من الأعوام فإذا نظرنا إلى أثدائنا نحن البشر إناثا كنا أم ذكورا ونزعنا عن كاهلنا الغرور فلا بد أن نضع أنفسنا ضمن هؤلاء،ليس فقط بسبب امتلاكنا جميعا لتلك الأثداء بل لصفات أخرى نشترك فيها معا فأجسامنا مغطاة بالشعر وإن كان شعرنا أقل كثافة (ذكرنا أن سبب تسميتنا بالبشر هو أن بشرتنا تظهر بوضوح تحت هذا الشعر غير الغزير) وإذا نظرنا إلى أجسامنا نجد أننا جميعا نحمل حاجزا عضليا يفصل القلب والرئتين عن باقي الأحشاء كما أن لنا فكاسفليا عبارة عن عظمة واحدة ونملك ثلاث عظام صغيرة في آذاننا نسمع بواسطتها كما أن أعناقنا تحتوي على سبع فقرات

سواء كنا من الزراف أو بني الإنسان أو من الفيلة ، وفي حنجرتنا غطاء يسمّى لسان المزمار يمنع دخول الغذاء إلى الجهاز التنفسي عند التهامنا للطعام .

وتحتوي الثدييات على أنواع وأجناس كثيرة منها ما يحمل صغاره في كيس مثل الكانجارو ومنها ما يطير في الهواء مثل الخفاش ومنها ما يعيش في البحر مثل الحيتان وعرائس البحر ومنها ما يمزق فرائسه بالمخالب مثل الأسد والثعلب ومنها ما له حافر كالحصان والحمار وما له ظلف كالبقر والغزال . . .

فهل أضع نفسي مع واحد من تلك المجاميع .. الإجابة كلا .. إذن فهل أنا فريد في نوعي لا يشبهني أحد في أحياء هذا العالم من الثدييات .. الإجابة أيضا كلا .. فهناك ما يسميه العلماء الرئيسيات وتلك تشمل النسانيس والقردة والقردة العليا ـ إنني كثيرا ما أذهب إلى حديقة الحيوان وأقضي وقتا طويلا بين أقفاص تلك الحيوانات فلا أتمالك عند مراقبتي للشمبانزي أو الغوريلا لا أتمالك أن أسخر من نفسي . إن إدارة الحديقة لو سمحت لي أن أخلع ملابسي وأنزل بينهم ربما كان من الصعب على معارفي وأصدقائي أن ينتقوني من بينهم. إنني أشترك معهم في حملي لدماغ كبير ووجه عمودي غير مائل ممتد إلى الأمام كأنه أنف ذو فكين كأقربائنا من باقي الثدييات ، كما أن أيدينا تمتاز بأصابعها القابضة حيث يمكن للابهام أن يتحرك عموديا على باقي الأصابع ، ولذلك كرمني الله أنا وإخواني القرود بهذه اليد التي نتناول بواسطتها طعامنا بدلا من أن نمد أفواهنا إلى الطعام كما تفعل باقي الثدييات. وعلاوة على ذلك قد أمدنا الله سبحانه بأعين في وضع أمامي ترى الأشياء مجسمة في أبعاد ثلاثة تعويضاً لنا عن أنوف قل إحساسها، كما أنعم الله علينا نحن والقرود بأن رغباتنا الجنسية دائمة وليست قاصرة على موسم معين مثل غيرنا من الثدييات .

لقد عرفت الآن موقعي من شجرة الحياة فأنا من الرئيسيات ولكن هل

أقف مع القردة على فرع واحد من تلك الشجرة .. هل تسلسلت من أحد القرود . الإجابة قد أجابها داروين المفترى عليه حيث قال لا ـ بل يعني أنني والقرود نقف على فرعين متجاورين من تلك الشجرة ، فإذا رجعنا إلى الوراء وعادت عقارب الزمن ملايين السنين أجد أن أسلافي وأسلاف القرود قد التقيا عند نقطة واحدة هي أصلنا معا ومن هذا الأصل خرج فرعان أحدهما كانت نهايته القرود العليا التي تشمل الشمبانزي والغوريلا والأورانجوتان والجيبون .. والفرع الثاني كانت نهايته الإنسان البشر آدم وأبنائه .ولعل منبتنا نحن والقردة من أصل واحد في الماضي أدى إلى تشابه عظامنا وعضلاتنا وأعصابنا وأوعيتنا الدموية بل وقلوبنا وكليتينا وعيوننا وغير ذلك حتى خلايا أجسامنا لو فحصت تحت الميكروسكوب لكان من الصعب التفريق بينها وأكثر من ذلك فإننا نشاطر القردة العليا في فصائل الدم O و B و A ونصاب معهم بأمراض معينة(1) كما نستجيب معا لنفس الأدوية .

ولكن هناك فروقا كبيرة بيننا وبين القردة العليا فجمجمة هذه الأخيرة عظامها أكثر سمكا كما يمتد فوق قمتها طبقة كثيفة من العظم حيث ترتبط عضلات الرقبة الهائلة وفوق العينين بروز كثيف في موضع الحاجبين .. كما أن موضع الثقب الكبير حيث يلتقي الدماغ بالنخاع الشوكي أقرب إلى مؤخرة الجمجمة بينما يكون ذلك الثقب في الإنسان في منتصف السطح السفلي للجمجمة،علاوة على ذلك فإن العمود الفقري للقردة يأخذ شكل قوس واحد بينما يأخذ شكل حرف S في الإنسان (يولد الطفل بعمود ذي قوس واحد كالقردة)،وفك القرد بارز والأنياب كبيرة بعكس الفك الآدمي حيث تكون الأنياب مماثلة في الحجم لباقي الأسنان . وأهم من هذا وذاك حجم المخ الذي منحنا الله جلت قدرته إياه إذ أنه يشغل حيزا قدره 1425 سم^3 بينما في الغوريلا يبلغ حجمه 520 سم^3 ولعل مخ القردة

(1) منها الملاديا . وقد انتقل أخيراً مرض الإيدز من القردة إلى الإنسان .

الصغير هو السبب الرئيسي في عدم تمكنها من الكلام رغم امتلاكها لجميع الأعضاء اللازمة من اللسان والشفتين والأسنان والأنف والحبال الصوتية بل أن الغوريلا يمكنها أن تحدث جميع الأصوات التي يحدثها الإنسان ولكن عقلها لم يمكنها أن يحيل تلك الأصوات إلى كلمات .

وجميع أجناس القردة العليا بلا ذيول وتعيش في الغابات غير أن الشمبانزي والغوريلا تقضي معظم أوقاتها على الأرض تمشي بقامة شبه معتدلة وعند تنقلها من شجرة إلى شجرة تجدف بيديها ولا تسير على أربع . ولعل موضع الثقب المؤخرى وتركيب عظام الحوض وشكله المستطيل وكذا عظام الساقين والقدمين من الأسباب الهامة التي تمكن الشمبانزي والغوريلا من السير منتصبة القامة أو من الاستمرار في الوقوف على قدميها أو من العدو السريع كما يسمح بذلك موضع وشكل وتركيب تلك الأجزاء في الإنسان .

لقد ظهرت الثدييات لترث الأرض بعد أن انقرضت الديناصورات في عصر الزواحف منذ حوالي ثلاثة وستين مليون عاما بدء الحقبة الحديثة المسماة Cainozoic Era وفيها تكونت سلاسل الجبال الحديثة مثل الهمالايا والألب والبرانس وأطلس وجبال روكي في أمريكا الشمالية ـ ويقسم الجيولوجيون تلك الحقبة إلى خمسة عصور من الأقدم إلى الأحدث :

عصر الأيوسين (العصر الفجري)
عصر الأوليجوسين (العصر قليل الحداثة)
عصر الميوسين (العصر متوسط الحداثة)
عصر البليوسين (العصر كثير الحداثة)
عصر البلوستوسين (العصر الأكثر حداثة)

هذاوقد ظهرت الرئيسيات منذ عصر الميوسين منذ حوالي ثلاثين مليونا من الأعوام أما عصر البلستوسين فهو العصر الذي ظهر فيه الانسان منذ

حوالي مليوناً واحداً أو أكثر من الأعوام .

لا يـألو علـماء الإنسان وعلماء الحفريات جهدا في البحث والتنقيب في باطن الأرض بحثا عن الهياكل والعظام وكان لدراسة الحيوانات الثديية التي تعيش حاليا فائدة كبيرة في ربط الماضي بالحاضر . . فرغم اختلاف الحيوان الثديي الذي يعيش الآن عن مثيله منذ ثلاثة وستين مليون عاما إلا أن التصميم والتخطيط واحد فعدد عظام الجمجمة ونوعها مثلا واحد في الحالتين وطريقة اتصال كل عظمة بما يجاورها واحد . . ومع أن الجماجم تختلف في الشكل والحجم إلا أن هيئة أي جزء منها وحوافها تحدد أشكال باقي الأجزاء . كما أنه من عظمة من عظام الفخذ يمكن للعلماء أن يستنتجوا عظام الساق وأن يحددوا وزن الحيوان وكيف كان يتحرك .ولم يكن في الإستطاعة التوصل لذلك إلا بعد دراسة العلاقة بين العظام والعضلات في الحيوانات الموجودة حاليا . وعلى ضوء تلك المعلومات كان العثور على عظمة واحدة أو سن واحد يعني كثيرا وكثيرا جدا .

في عام (1924) قام العالم الأسترالي « ريمون دارت » بفحص جمجمة عثر عليها بالقرب من كمبرلي في جنوب أفريقيا وبدراستها تبين له أنه رغما عن أن حجم الدماغ 520 سنتيمترا مكعبا وهو معدل حجم دماغ الغوريلا إلا أن باقي صفاتها تشبه جمجمة الإنسان مثل شكل الأسنان وصورة الفك التي تشبه حدوة الفرس ، وعلاوة على ذلك فإن الثقب الكبير كان في منتصف الجمجمة،وجميع تلك الصفات هي صفات بشرية . أطلق العالم الأسترالي على تلك الجمجمة إسم القرد الجنوبي الأفريقي Australopithecus africanus وبعد ذلك عثر على حفريات أخرى في جنوب وشرق أفريقيا من نفس الجنس اتضح منها أن شكل الحوض وكـذا عظام الساق تشبه عظام البشر . لقد كان هذا القرد يمشي على قدميه منتصب القامة كما أنه كان يمكنه النظر إلى الأمام عيناه في عينيك ، ولو أن

حجم مخ ذلك الكائن مساو لحجم مخ الغوريلا إلا أن حجم الجسم كان أصغر من الغوريلا وبذلك يكون حجم مخه بالنسبة للجسم أكبر من نظيره في الغوريلا . . لقد كان عمر تلك الحفريات حوالي مليون سنة . . فهل كانت إنسانا ؟ ؟ .

يقول العلماء إنه بالرغم من العثور على جماجم لقردة الباتون مصاحبة لتلك الحفريات وأن الباتون من أقوى القردة التي لا تستسلم لحيوان غير الأسد.. وبالرغم من أن جماجم الباتون كانت مهشمة بأداة قوية يتضح منها أن الأوسترالوبثكس كان يستعملها للقضاء على الباتون، فإنه رغم تمكنه من التفكير واستعمال الآلة إلا أنه لا يعتبر إنسانا بل هو حلقة بين القرد والإنسان.. أي أنه قرد إنساني أو إنسان قردي... وقد عثر بعد ذلك في الهند على إنسان من نفس نوع الإنسان القرد أقدم بكثير مما وجد في إفريقيا يقدر عمرها ببضعة ملايين سنة وفي شهر يوليو سنة (1959) اكتشف الدكتور «ليكي وزوجته ماري» في تنزانيا حفريات لكائن لا يختلف كثيراً عن الأوسترالوبثكس أسمياه زنجانثروبس Zinjanthropus boisei (زنجا إسم أفريقي قديم لشرق إفريقيا) وكان يصاحبه أدوات من الحجارة يستحيل الظن بأن مخلوقاً خلاف الإنسان يمكنه صناعتها ، وبالرغم من صغر مخ زنجانثروبس ورأسه ووجهه الشبيهين بخلقة القردة العليا فقد كان رجلا يمشي على قدمين وكان مخه قادراً على التفكير غير أن حجم دماغه يدل على عدم امتلاكه للقدرات العقلية التي تمكنه من النطق والكلام وقد عاش زنجانثروبس على الأرض منذ حوالي ستمائة ألف عام .

في عام (1964) اكتشف الدكتور « ليكي وزوجته »أيضا وفي تنزانيا أيضا جماجم وفكوك وأعضاء لسبعة أفراد كانوا يعيشون في زمن زنجانثروبس وكانت تلك المخلوقات تقف وتمشي وتجري مثل البشر ، يدل على ذلك عظام سيقانها وأقدامها وكان طولها حوالي أربعة أقدام كما كان

حجم صندوق دماغها حوالي 685 سم³ أي حوالي نصف حجم صندوق دماغ الإنسان الحالي ،كما أن عظام جمجمتها تشبه في رقتها عظام جمجمة الإنسان إذ لا يوجد في سقفها طبقة العظام الكثيفة التي تميز عظام القردة العليا . . كما تدل عظام اليد على أن تلك المخلوقات كانت ماهرة مهارة كافية لصناعة الأدوات التي عثر عليها في نفس المكان ولذلك سماها مكتشفوها Homo habilis أي الإنسان الماهر . . وكان هذا الإنسان آكلا للحوم وربما كان يقوم :باصطياد جاره زنجانثروبس وافتراسه .

في عام (1891) اكتشف يوجين دوبوا وكان طبيبا في الجيش الهولندي بالقرب من نهر سولو في جاوه إحدى الحفريات لكائن يبلغ طوله حوالي خمسة أقدام كان يمشي على قدمين تماما كما يفعل الإنسان الحديث وكان دماغه أصغر بكثير من دماغ هذا الأخير ولكنه أكبر من دماغ زنجانثوروبس أو أسترالوبثكس إذ كان حجمه حوالي 825 سم³ وقد أطلق يوجين على هذه الحفرية اسم Homo erectus أي الرجل القرد معتدل القامة (إنسان جاوه) وكان بجوار تلك الحفرية حفريات لكائنات منقرضة منها سلحفاة هائلة كان وزنها حوالي طنين وقشرة لأحد الأصداف يبلغ طولها سبعة أقدام وفيل أولى وحيوان هائل غريب الشكل له رأس صغير مثل رأس الحصان ورقبة طويلة ورجلان أماميتان طويلتان وأخرتان خلفيتان قصيرتان في كل منها مخالب بدلا من الحوافر. وقد عاش إنسان جاوه منذ حوالي خمسمائة ألف عام .

لم يكن إنسان جاوه يعيش بمفرده في قارة آسيا إذ أنه في عام (1927) عثر الدكتور « دافيد ســون بلاك » وهو عالم تشريح كندي في قرية قرب بكين عاصمة الصين على سن واحدة لنوع من الإنسان وبعد عامين عثر على جمجمة كاملة وبعد مواصلة الحفر أمكن العثور على بقايا خمسين شخصا وكان حجم الدماغ لديها يتراوح بين 850 ، 1300 سم³ وقد أطلق على تلك الحفريات اسم Homo erectus peckinensis أي إنسان

بكين .. ومن المرجح أن هذا الإنسان كان يأكل بعضه بعضا إذ لوحظ في كثير من الجماجم أن الثقب المؤخرى بها موسع باستعمال أدوات حادة للحصول على محتويات الجمجمة كما أن عدد الجماجم التي عثر عليها في المغارة كانت نسبته تفوق نسبة العظام الأخرى مما يدل على أن سكان تلك المغارة لم يجلبوا تلك الرؤوس معهم لمجرد تعليقها على الجدران كتذكار للغنيمة ولكنهم أفرغوا ما بداخلها بمهارة وربما التهموا محتوياتها . وكانت الأدوات المستعملة مصنوعة من الحجارة والعظام والكوارتز .. وعلاوة على ذلك فإن إنسان بكين قد عرف استخدام النار في طهو الطعام إذ قد وجدت مواقد كثيرة بها عظام حيوانية محروقة .

في نفس الزمن الذي عاش فيه إنسان جاوه وبكين في آسيا عاش إنسان مماثل في أوروبا وأفريقيا ففي سنة (1907) عثر على حفريات مماثلة لها في هيدلبورج في ألمانيا وفي سنة (1955) عثر على حفريات أخرى مثلها في الجزائر وربما كان ذلك الإنسان الذي عاش في آسيا في منتصف العصر الجليدي في ظروف مناخية قاسية قد تغلغل إلى أوروبا وأفريقيا وكان يعيش على صيد الحيوانات الأخرى وعلى صيد بني جنسه وسبحان الله إذ يقول :

« وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » (البقـــرة 30) .

في سنة (1856) عثر بعض العمال في أثناء قطعهم حجارة جيرية عند جانب وادي نياندر بالقرب من دسلدورف في ألمانيا على جزء من جمجمة ينقصها عظام الوجه والفكين ولم تثبت أهمية ذلك الكشف إلّا بعد ثلاثين عاما عندما عثر عالمان بلجيكيان على هيكلين عظميين كاملين لرجلين في ربوة بالقرب من تنجور في بلجيكا وقد وجد بالقرب منهما عدد من الأسلحة الحجرية المختلفة وعظام حيوانات منقرضة من الماموث والوعول

وقطع من الأوعية والعاج ورؤوس سهام مصنوعة من العظام .

وفي سنة (1908) اكتشف هيكل عظمي لإنسان مماثل في كهف في لاشابل بأوسانت بفرنسا . وقد اعتبرت جميع هذه الحفريات لإنسان واحد أطلق عليه اسم إنسان « نياندرتـــال » وكان هذا الإنسان قصيرا بالنسبة لإنسان اليوم يبلغ طوله خمسة أقدام وبوصة واحدة وكان قوي البنية ذا رقبة قوية العضلات وصدر واسع وذراعين وساقين قويتين أما قدماه فهما شديدا الشبه بأقدام إنسان اليوم ، وكانت جمجمته كبيرة وثقيلة ذات عظام قوية بارزة فوق فتحتي العينين وفكاه سميكين وذقنه منحسرة وجبهته منخفضة .

ولم يقتصر وجود إنسان نياندرتال على أروبا فقط ففي سنة (1921) عثر على جمجمة وبعض أجزاء من هيكل عظمي لإنسان مشابه في كهف أبروكن هل ، بشمال روديسيا في أفريقيا. ولقد وصل ذلك الإنسان إلى الشرق الأقصى أيضاً ففي عام 1836 عثر على حفريات تشبه إنسان النياندرتـــال على طول ضفتي نهر سولو في جاوه كما عثر على سقف جمجمـــة وقطعة من عظام الجبهة لإنسان مماثـل في مغارة بالزيتية غربي بحيرة طبرية بفلسطين ، ويقدر أن إنسان نـاندرتـــال ظهر لأول مرة في أوروبا منذ حوالي مائة وخمسة وسبعين ألف عام وأنه استمر على هذا الكوكب ما بين مائتي ألف وبين خمسين ألف عام . ما مدى ذكاء إنسان نياندرتال ؟ إذا كان الذكاء يقاس بحجم الدماغ فإن حجم دماغه كان يتساوى مع الإنسان الحالي بل أنه في حالات كثيرة كان أكبر إذ أن الإنسان الذي عثر عليه في لاشابل بفرنسا بلغ حجم دماغه حوالي 1600 سم^3 في حين أن معدل الإنسان الحالي 1425 سم^3. لقد عاصر النياندرتاليون فترة الاعتدال بعد الدورة الجليدية الثالثة ثم عاشوا في الدورة الجليدية الرابعة وكان هذا الإنسان يعيش في الكهوف في الفترة الأخيرة وكان يعيش على الصيد .. وربما يكون قد توصل إلى استعمال الفخوخ في صيد فرائسه وربما كان يصطاد

أيضا بني جنسه إذ أن الحفريات التي عثر عليها في جاوه على ضفتي نهر سولو قد اشتملت أيضا على إحدى عشرة جمجمة من نفس الإنسان مهشمة عند القاع بطريقة تدل على محاولة استخراج محتوياتها .

منذ حوالي خمسين ألف سنة بدأت الكتل الجليدية التي كانت قد غطت مناطق شاسعة من أمريكا الشمالية وأوروبا في الانحسار البطيء عائدة إلى القطب الشمالي ويبدو أن إنسان نياندرتال في تلك الفترة قد بدأ يختفي من على وجه الأرض ليحل محله إنسان جديد .

في عام (1868) كان يجري مد خط للسكك الحديدية في وادي نهر فيزر باقليم دوردون في جنوب غرب فرنسا ، وذات يوم بينما كان العمال يقومون بالحفر عثروا على أجزاء من هياكل عظمية لرجلين وامرأتين وطفل .. ثم وجد في السنوات التالية حفريات مماثلة لذلك الانسان في كل من تشيكوسلوفاكيا وانجلترا وألمانيا وإيطاليا .. وقد أطلق على هذا الإنسان « الكروماجنون » نسبة إلى المكان الذي عثر فيه على حفرياته الأولى في فرنسا . كان هذا الإنسان يختلف عن إنسان نياندرتال .. كانت بعض الهياكل تزيد على ستة أقدام في الطول ، وكانت الجمجمة ذات ذقن محددة كما كانت الجبهة عالية غير منحسرة وعظام الحاجبين غير بارزة والفكان أصغر حجما وجدران الجمجمة أقل سمكا أما عظام اليدين فكانت أطول وأرشق .

وبالجملة فإن إنسان الكروماجنون لا يختلف في شكله عن إنسان اليوم الأمر الذي يستنتج منه العلماء أننا نحن أبناء آدم ربما قد بدأنا العيش على هذه الأرض منذ حوالي أربعين أو خمسين ألف سنة .

كيف كان يعيش الكروماجنون ؟ ؟ .. عندما ظهر هؤلاء الرجال في أوروبا خلال الدورة الجليدية الأخيرة كان الجليد ما يزال يغطي مناطق شاسعة من القارة، وكان هؤلاء الرجال يصطادون الثيران والماموث (الفيلة

المغطاة بالصوف) والخراتيت الصوفية . وعندما بدأت طبقات الجليد في الانحسار اختفت تلك الحيوانات وظهرت حيوانات جديدة مثل الفيل والبيسون والماشية البرية والخيول كما يبدو أن هؤلاء الرجال كانوا يحبون لحم الخيل ، إذ قد عثر في أحد مناطق معسكراتهم في ليون بفرنسا على عظام خيول أحصى عددها فبلغ أكثر من مائة ألف حصان .

ولقد كانوا حرفيين ماهرين يصنعون أنواعا عديدة من الأدوات والمهمات من بينها الإزميل والفارة والسكاكين والمناشير والرماح كما كانوا يصنعون رؤوسا دقيقة حادة للرماح يبلغ طولها أربع عشرة بوصة . كما كان الكروماجنون يصنعون الملابس من الجلود والفراء ويشيدون المخيمات والأكواخ ويصنعون الحلي من أسنان الحيوانات والأصداف المثقبة والكهرمان .. غير أنهم لم يتعلموا كيف يزرعون الأرض أو يستأنسون الحيوان .

هل مارس هؤلاء الرجال الفنون ؟ ؟

الإجابة نعم .. فقد عثر في أحد الكهوف في أسبانيا على لوحات ملونة مرسومة على الجدران كما اكتشفت بعد ذلك لوحات أخرى في أوروبا وفي شمال أفريقيا .

كيف انقرض النياندرتاليون وحل محلهم الكروماجنون . . ربما يشوب ذلك الغموض حتى الآن . . غير أنه في سنة (1931) عثر في كهوف عديدة بالقرب من جبل الكرمل في فلسطين على خليط من جماجم تكاد تكون طبق الأصل من جماجم النياندرتال مع جماجم أخرى يصعب تمييزها عن جماجمنا . . كما أن بعض هؤلاء الناس كانوا طوال القامة إذ بلغ طول إثنين منهما حوالي ستة أقدام وساقاهما طويلان معتدلان غير أن لهما نفس العظام الكثيفة فوق الحاجبين التي تمثل إنسان نياندرتال وفي نفس الوقت لهما ذقنان بارزتان مثل الإنسان الحديث . ربما امتزج النياندرتاليون

مع الكروماجنون برباط النسب وفي النهاية ذابت صفات الأولين وحل محلهم في النهاية الكروماجنون الإنسان الحديث.

أعتقد يا عزيزي القارىء أنك توافقني على أن العلماء لا يلقون الكلام على عواهنه من ناحية.. كما أنهم من ناحية أخرى لا يتقبلون أي جديد بغير بحث وفحص وتدقيق. لقد كان ريمون دارت أول من قرر في سنة (1924) أن جمجمة أعطيت إليه لفحصها رغم أنها لكائن لا يزيد عمره عن ست سنوات فقد كانت تمثل حلقة بين القرد والإنسان أعطاها الإسم Australopithecus africanus أي الإنسان القرد الأفريقي.. ومن أسباب ذلك أن الثقب المؤخري للجمجمة يوجد في وسطها ولا يتجه نحو قاع الجمجمة من الخلف مما يدل على أن صاحبها كان يمشي منتصب القامة كما أن أسنانه رغم كونها كبيرة كأسنان قرد إلا أنها تساوي بعضها البعض كأسنان إنسان. لقد هوجم ريمون دارت وقتذاك هجوما عنيفا من باقي العلماء ومنهم أساتذته وعلى رأسهم السير أرثركيت من كبار الحفريين، الذي اتهمه بالتسرع في الحكم على الأمور وبأن ما يقوله هو من قبيل اللامعقول أو من ضرب الخيال وقد استمر الحال على الاعتقاد بأن إنسان جاوه erectus هو أقدم ماوجد من الإنسان في طريق تطوره إلى أن الحرب العالمية الثانية أوزارها فبدأ نشاط التنقيب في الحفريات من جديد وكانت جنوب إفريقيا مسرحاً لأعمال كبيرة من الحفر عثر فيها علماء كثيرون منهم «روبرت بروم» و«روبنسون دارت» على عظام وأيدي وأذرع وفكوك وأسنان في سني 36 و38 (قبل الحرب) و47 و48 كلها تمت إلى الإنسان القردي الافريقي كما عثر «فون كونجزوالد» في سني 41 و52 على فكوك وأسنان في يافا يشك في أنها لذلك الكائن، ولم يسع السير «أرثركيت» إلا أن ينشر في سنة (1947) اعتذاراً لريمون دارت مؤيدا لرأيه، ذاكراً أنه قد اتضح أنه هو نفسه الذي كان متسرعا في الحكم وليس دارت.

وفي سنة (1972) عثر ريتشارد ليكي (ابن الدكتور ليكي) على كشف ذي أهمية كبرى في كينيا بجوار الحدود الأثيوبية ذلك الكشف كان جمجمة اعتبرت لكائن هو مرحلة انتقالية بين القرد الأفريقي وبين إنسان جاوه .

ابتداء من سنة (1972) تكونت بعثة مشتركة من العلماء الفرنسين والأمريكين للبحث في أثيوبيا ، اضطرت في سنة 1977 إلى إنهاء أعمالها بسبب الحرب الأهلية غير أن البعثة قد عثرت على اكتشافات كثيرة ولكن أخطرها كان العثور في أواخر سنه 1974 على هيكل عظمي كامل تقريبا لأنثى من الإنسان القرد طولها يقرب من ثلاثة أقدام ونصف تمشي بكفاءة على قدمين ولكن ذراعيها كانتا طويلتين بالنسبة لرجليها لقد أطلق العلماء عليها اسم لوسي وكانت تعيش على هذه الأرض منذ ثلاثة ملايين سنة .

والآن .. هل أوضح لنا العلماء من خلال ما عثروا عليه من الحفريات كيف تطور الإنسان في طريق طويل يبلغ بضعة ملايين من السنين من مخلوق يجمع بين بعض صفات القردة وبعض صفات الإنسان إلى أن بلغ صورته الحالية بشرا سويا ؟ !

يقول الدكتور مصطفى محمود (لغز الحياة) « فهناك حلقة مفقودة بين القرود العليا والإنسان في قضية التطور المزعومة وعظام إنسان جاوه وإنسان نياندرتال وإنسان ترنسفال وإنسان بكين لا تملأ هذه الفجوة فهي عظام أشبه بعظام الإنسان منها بعظام قرد ، والجد القردي مازال مفقودا وبالمثل هناك عشرات الحلقات المفقودة بين كل رتبة حيوانية والرتب التي تعلوها » .

ونقول إن اكتشاف حفريات تمتلك خليطا من الصفات بين إنسان نياندرتال والكروما جنون في جبل الكرمل في فلسطين في سنة (1931) و حفريات تمثل حلقة بين الإنسان القرد الأفريقي وبين إنسان جاوه في كينيا

في سنة (1972) لهو دليل على تطور الإنسان المستمر في الطريق بين الإنسان القرد والإنسان البشر . أما القول أن عظام إنسان جاوه وإنسان نياندرتال وإنسان بكين وانسان ترنسفال هي عظام أشبه بعظام الإنسان منها بعظام القرد فهو التطور بعينه فهي عظام لا يمكن وضعها مع عظام القرود فتعتبر قردة، ولا يمكن وضعها مع الإنسان الحالي فتعتبر بشرا.أما القول بأن هناك عشرات الحلقات المفقودة بين كل رتبة حيوانية والرتب التي تعلوها فالرد على ذلك أن عدم العثور عليها ليس دليلا على عدم وجودها فالعثور على الحفريات كما نعلم هو ضرب من الحظ والتوفيق من المولى سبحانه .

والآن .. هل يوجد في كتاب الله العزيز ما يشير إلى صحة ما يقوله رجال العلم والحفريات :

فلنستمع ثانية إلى قوله تعالَى :

وأنزلنا من السماء ماء طهورا * لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسيَّ كثيرا * ولقد صرفناه بينهم ليذكروا فأبَى أكثر الناس إلا كفورا » (الفرقان 48 ـ 50)

« ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » (الكهف 54) .

فأي بيان وأي برهان أوضح من كلام المولى عزّ وجلّ ، ألا يتضح من سورة الفرقان على لسان العليم الخبير وجود أناسيَّ كثيرة ؟ .. ألا يتضح من سورة الكهف أن الإنسان هو بعض من الناس أي أن الناس أمثلة متعددة أحدها هو الإنسان ؟ .

كما يجدر بنا ألا نغفل قول الملائكة للمولى سبحانه قبل أن يخلق آدم عليه السلام « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » وأن نربط هذا القول بما يشير إليه العلماء من الظواهر التي تدل على أن من أنواع الإنسان

السابق للبشر من كان يصطاد إنسانا ينتمي إليه أو إلى أنواع أخرى يسفك دماءهم ويتغذى من جماجمهم وعظامهم على المخ والنخاع .. (ويرجح أنه كان يتغذى أيضا على لحومهم رغم أن الحفريات لا يمكن الاستدلال منها على ذلك) .

من كل ما تقدم ألا يتحتم علينا أن نقبل باقتناع ما يقوله العلماء ونوافقهم على أن الله سبحانه وتعالى قد خلق أكثر من إنسان واحد بل خلق أناسيّ متعددة في طريق التطور إلى الإنسان البشر، الإنسان الآدمي .

وأخيرا بقّي لي أن أتساءل هل أنا من سلالة لوســي ؟ ؟

لست متأكدا إذ أن عظام لوسي لا يمكن الاستدلال منها إن كانت قد تزوجت أم ظلت «آنسة» ، غير أن ما يمكنني أن أقطع به أنني وقوم لوسي على صلة وثيقة بأبناء عمومتنا القردة .

التطـــور بيــن المؤيــدين والمعارضيـــن

من كل ما تقدم نرى أن الله سبحانه وتعالى بدأ خلق الحياة من طين الأرض بعد تحويله إلى طين لازب ، وصنع منه كائنات تعيش في الماء وتدب فيها الحركة وتسري في أجسامها الأحاسيس وتزيد في أعدادها وذرياتها لتعيش في الماء ثم تتطور لتنتقل إلى الأرض والهواء وتتشكل وتتنوع مستمرة في تطورها يندثر من أنواعها ما يندثر ويتكيف مع البيئة المتغيرة ما يتكيف منها ويبقى من هذا الخضم الهائل عبر آلاف الملايين من السنين ما نراه الآن من نبات وطير وحيوان وإنسان . منذ ذلك الماضي السحيق الموغل في القدم لم ينقطع ذلك التتابع وذلك التسلسل خلقا وراء خلق .. جيلا وراء جيلا .. نوعا وراء نوع .. وفي ذلك يقول سبحانه إنه يبدئ الخلق ثم يعيده .... ويقول أيضا « قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق »

وقد سبق أن ذكرنا أنه لولا هذا التسلسل المتصل غير المنقطع لما أمكننا أن نعرف كيف بدأ الخلق ... ولو كان الله سبحانه يخلق الأنواع منفصلة كما يعتقد معارضو التطور لما كان هناك مخلوق بدأ به المولى سبحانه الخلق بل لكان هناك العديد من المخلوقات خلقت في وقت واحد ولما قال لنا سبحانه أنظروا كيف بدأ الخلق .

كما سبق أن ذكرنا أن علماء الأحياء وقبل أن تظهر نظرية التطور بقرن كامل من الزمان قاموا بتقسيم الأحياء في شجرة كبيرة إلى نبات وحيوان ثم

إلى قبائل وفصائل وأجناس وأنواع حسب تشابهها أو عدم تشابهها مع بعضها البعض كما نلاحظ جميعا على سبيل المثال وجود أسماك وطيور وزواحف أو وجود نباتات أولية وأخرى مزهرة وثالثة غير مزهرة .. وعندما ظهرت نظرية داروين اتجه العلماء إلى شجرة الأحياء واتضح لهم أن الأحياء تقف على فروع تلك الشجرة وكلما كانوا أشد قربا كانوا أشد شبها وكذا العكس فالأسماك بعيدة عن الطيور والزواحف بعيدة عن ذوات الثدي ، وبذلك تكون السمكة بعيدة عن الدجاجة والتمساح بعيدا عن الغوريلا .. ولكن الدجاجة قريبة من الطاووس والتمساح قريب من السلحفاة والغوريلا قريبة من الإنسان.

وقد بدأت المخلوقات بسيطة ثم أخذت في التعقيد شيئا فشيئا وفي الانفصال أي في التفرع شيئا فشيئا .. تماما كما تنمو الشجرة من جذور في الأرض إلى فروع في السماء ، فهل يعني التطور أن الحمار كان أصله دجاجة ، أو أن الزرافة كانت ثعبانا .. أو أن الإنسان كان قردا ..... نقول لا .. ولكن الحمار والدجاجة يمتان بصلة قرابة في ماضيهما البعيد من الأجداد إذ أن الحمار من الثدييات والدجاجة من الطيور ، وكلا الثدييات والطيور قد نشأ من أصل هو الزواحف . وبالمثل فإن الزرافة لم تكن ثعبانا ولكن الزرافة من الثدييات والثعبان من الزواحف والثدييات نبتت من الزواحف ... وكذلك الإنسان لم يكن قردا ولكنه والقرد من الثدييات بل هما أشد قرابة لبعضهما من باقي الثدييات لأنهما معا من الرئيسيات إحدى رتب الثدييات .

كيف يأخذ التطور مساره : هنا تبرز قدرة الخالق تبارك اسمه العليم الخبير المحيي المميت المهيمن المصور الرقيب المانع النافع .. لقد أودع الله سبحانه في كائناته المختلفة صفاتها المختلفة وخلق من تلك الكائنات الذكر والأنثى ، لا يتشابه فردان ، كما أنه سبحانه عندما خلق الأرض جعلها

أجواء وأنحاء وبيئات شتَى منها البارد وشديد البرودة ، منها المعتدل ، ومنها الحار وشديد الحرارة ، منها الرطب شديد الرطوبة ومنها الجاف ، منها المرتفع الشاهق الارتفاع على قمم الجبال ومنها متوسط الارتفاع ، ومنها شديد الانخفاض في أعماق الوديان ، منها الماء العذب ومنها البحار والمحيطات ، منها المراعي الخضراء ومنها الصحاري الجرداء ... بدأت الأحياء بكائنات من خلية واحدة ثم أخذت في الازدياد والتنوع والتعقيد ونشأ في كل بيئة أحياؤها يموت منها ما يحمل الصفات التي لا تمكنه من العيش في بيئته ويعيش ما يحمل صفات تؤهله لذلك ، وباستمرار تزاوج الذكور والإناث تتكون صفات جديدة تعمل البيئة باستمرار على بقاء الأصلح منها أي بقاء الأفراد التي تحمل تلك العوامل الصالحة ، وكان لتغير البيئة المستمر ولاتخاذ الأرض وجوها جديدة أثره المستمر في ظهور أنواع جديدة من الأحياء بمعنَى أن فرعا ما من شجرة الأحياء يمكنه أن يتفرع إلى فرع جديد وفي نفس الوقت يستمر الفرع الأصلي في النمو وذلك يفسر لنا استمرار وجود الضفدعة وهي من البرمائيات في حين أن البرمائيات تطورت إلى الزواحف أو استمرار وجود الحية الرقطاء رغم تطور الزواحف إلى طيور وثدييات .. بل أن البكتريا ذات الخلية الواحدة والإسفنج أو الدودة الكبدية وهما من الحيوانات الأولية لازالت جميعها تعيش وترتع من ألوف الملايين من السنين . إنّ مثل ذلك مثل مركبة الفضاء التي توصل الإنسان إلى صنعها فتلك المركبة توجد الآن في الوقت الذي توجد فيه الطائرة أو السيارة أو القطار أو حتى العربة التي يجرها الحمار .

إن الله سبحانه قد أعطَى لكل كائن شكله التركيبي الذي يمكنه من العيش في بيئته فهو الذي أعطَى للسمكة خياشيمها وللصقر عينيه وللأسد مخالبه وللإنسان يديه ، كما أعطَى لكلٍّ صفاته فهو الذي أعطَى للجمل صبره وللأرنب حذره وللقط غدره وللفيل انتقامه وللإنسان عقله

وتفكيره .. كما أعطى سبحانه لكل كائن وسيلة تكيفه مع البيئة المستمرة التغير وهي عوامل الصفات أي الجينات التي تحملها كروموزومات الذكور والإناث وبذلك تعيش فقط الأفراد التي تحمل الجينات الملائمة وفي ذلك يقول سبحانه :

« ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » (هود 56) .

يقول الدكتور مصطفى محمود (لغز الحياة) « ولقد أنكرت النظرية الداروينية المادية أي تدخل من خارج وأي يد هادية مرشدة تقود الحياة وتهديها في رحلة ملايين السنين وقالت إنه لاشيء يقود الحياة العمياء سوى مصلحتها الحياتية في أن تبقى . وها نحن نرى أن هذا غير صحيح وأن النسيج الحي يشف في كل تفاصيله عن هذه اليد الهادية للفنان المبدع الرسام القادر على كل شيء خالق الأزل الذي يخلق للخلق ويجمل للجمال . إنها فجوة واسعة يعود الدين فيدخل فيها من جديد »» .

ونقول إن داروين أو غيره عندما يتحدث عن تطور المخلوقات لا يتطرق إلى الدين بل يتكلم عن ظواهر علمية توضح الأساس الذي بُنِيَ عليه التطور لصالح الكائنات في بيئة متغيرة غير ثابتة ، ولا ينبغي لأحد أن يقول أو يستنتج أن ما ينادى به يتنافى مع كون الله سبحانه هو اليد الهادية وهو الفنان المبدع الرسام القادر . إن مثل ما يقول به الدكتور مصطفى محمود هو أن نقول للأطباء الذين يدرسون الجسم البشري وصفاته وأسقامه والأدوية التي تؤثر على تلك الأسقام إنكم لا تعترفون بأن الله سبحانه هو الشافي من كل داء المعافي من كل سقم .

.. أو نقول لمن يدرس مختلف الأعضاء والأجهزة وكيف تؤدي وظائفها ومن يدرسون نمو الجنين وكيف يتطور في داخل الرحم إنكم لا تعترفون بأن خالق تلك الأعضاء وخالق تلك الأجنة ومخطط مسارها .. هو الله .. العلي القدير. بل يجدر بنا أن نذكر أن بعض العلماء يرون أن تطور الجنين ومساره في داخل الرحم من

نطفة أمشاج إلى أن يكتمل جنينا إنسانيا هو نفسه تطور الحياة من بدئها كـائنا من خلية واحدة إلى وصولها إنسانا سويا . فلماذا إذن نقول إن تطور الجنين في داخل الرّحم من قبل المولَى سبحانه ولا نقول إن تطور الحياة يتم بتلك اليد الهادية لخالق الكون والأزل ... ويجب ألّا يغيب عن البال أن التطور قد أخذ ألوف بل ملايين السنين فقد ذكرنا أن الحصان قد أمضَى ستين مليونا من الأعوام من نشأته كحيوان في حجم الكلب إلى أن أخذ صورته الحالية وأن الإنسان قد استغرق مليونا وربما بضعة ملايين من السنين من تطوره من إنسان قردي بدأ يمشي على قدمين ذراعاه أطول من رجليه إلى أن أصبح بشراً سويا .

بل أن هناك من الكائنات من سارت شوطا بعيدا في التطور في ناحية معينة ثم غيرت مسارها فتطورت تطورا جديدا يناسب الطريق الأخير الذي اختارته .... أنظر إلى الخفاش ذلك الحيوان الثديي الذي آثر أن يترك الأرض ويتنقل في الهواء متشبها بالطيور عندئذ نرى أنه قد حور يديه الأماميتين اللتين تشبهان يدي الإنسان عظمة وراء عظمة قد حورهما إلى أجنحة للطيران ومن أمثلة ذلك أيضا الحوت وعروس البحر الحيوانان الثديان اللذان آثرا العودة إلى الماء للعيش مع أجدادهما من الإسماك قد حورا أيديهما إلى أداة للتجديف. إنني لا أنسى يوم أن ذهبت في رحلة إلى الغردقة وشاهدت عروس البحر ذكره وأنثاه فلم أتمالك نفسي من الضحك عندما أعادا إلى ذاكرتي ما كنته في ليلة الزفاف.

ذكرنا أن الدنيا بأسرها قامت وقعدت عندما نشرداروين نظريته وود العلماء سواء منهم علماء الدين أوالمشتغلون بالعلوم الدنيوية ودوا لو يقلبوا الكون على أم رأسه .. فهل كان داروين أول من نادى بالتطور ؟؟ .

استمـــع إلى ابن خلـــدون (قصتـــا آدم ويوسف عليهما السلام ـ عبد الكريم الخطيب) حين يقول « إن عالـــم التكويـــن ابتداء من المعادن

ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة من التدريج : آخر أفق المعادن يتصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذور له ، وآخر أفـق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف ولم يوجد لها قوة إلا اللمس فقط .. ومعنَى الاتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لأن يصير أول الأفق الذي بعده ، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهَى في تدريجه التكويني إلى الإنسان صاحب الفكر والرؤية ترتفع إليه من عالم القردة الذي اجتمع فيه الحس والإدراك ولم تنته إليه الفكر والرؤية بالعقل وكان ذلك أول أفق الإنسان من بعده وذلك غاية شهودنا » .

ويقول الخازني « إننا إذا قلنا إن الإنسان بلغ حد الكمال وكان يوما عجلا فصار حمارا فغدا حصانا فأضحَى بعده قردا حتَى صار في النهاية إنسانا » .

ويقـــول الكتبي وهو يتكلم عن طبائع القرد « إن هذا الحيوان عند المتكلمين في الطبائع مركب من إنسان وبهيمه من تدريج الطبيعة من البهيمة إلى الإنسان » .

وقد جاء في كتاب الفكر الاسلامي م . م . شريف ترجمة الدكتور أحمد شلبي ما يلي :

« أما نظرية النشوء والارتقاء فإن ابن مسكويه ومعاصره ابن سينا قد طورا النظرية التي قال بها قبلهما إخوان الصفا وجاء بعد ذلك ابن خلدون الفيلسوف المؤرخ وجلال الدين الرومي الفيلسوف الشاعر فسارا في نفس الطريقة وزادا المسألة شرحا ودراسة .

ويمكن القول في إيجاز ويقين إن ابن مسكويه يقرر في نظرية النشوء والارتقاء نفس النظرية التي قررهاداروين بعده بتسعة قرون ويوجز الشبلي في كتابه « علم الكلام » تلك النظرية كما قال بها ابن مسكويه فيقول :

إن إمتزاج العناصر الكونية أنتج مملكة الجماد و هي أقدم مملكة وجدت في تاريخ الكون و هي كذلك أحط الممالك .

وخطا الكون خطوة إلى الأمام حيث ظهرت مملكة النبات مبتدئة بالحشائش ثم بالأعشاب فالأشجار . . وتستمر هذه المملكة قرونا و قرونا ثم بدت و هي في طريقها إلى المرحلة التالية مرحلة الحيوان تقرب رويدا رويدا من المملكة الحيوانية فظهرت أشجار لها صفات قريبة الشبه بصفات الحيوان ثم جاءت فترة يبدو أنها طويلة بين مملكتي النبات والحيوان ليس من السهل أن تحسب من هذه أو تلك لأن بعض عناصرها كالمرجان لها خصائص من المملكتين.

و بعد هذه الفترة تطل على الكون مملكة الحيوان وهي تبدأ بسيطة ساذجة حيث ظهر كائن ضئيل له قدرة على الحركة وبه شيء من الإحساس ذلك هو الديدان الصغيرة وقد تطور هذا الكـائن رويدا رويدا حتى ظهر الحيوان الذي لوحظ به جانب من الذكاء . . وقد مر الكون خلال ذلك بقرون وقرون .

و يستعد الكون للوصول إلى أرقى مملكة عرفها و هي مملكة الإنسان فإن الحيوان يأخذ في الرقي من ناحية شكله و من ناحية فكره فيصل إلى القرد ثم تتطور أنواع القردة كذلك حتى يظهر الإنسان .

و في قصيدة للرومي المسماة المثنوي (وهي قصيدة طويلة في التصوف) وصف لهذه الأطوار التي مر بها الإنسان و هاك ترجمتها :

لقد ظهر أول إنسان على الأرض كائنا غير عضوي
ثم تطور إلى نبات حيث عاش قرونا وقرونا
ولم يتذكر الإنسان و هو نبات أيامه قبل ذلك
وعبر الإنسان حقبة النبات متجها إلى مملكة الحيوان
ومرة أخرى نسي أنه عاش فترة وهو نبات

ولم يبق في نفسه إلا بقايا قد لا يدرك كنهها
بقايا توجه حبه نحو عالم النبات
وبخاصة في مطلع الربيع حيث تستميله الأزهار
وليس. ذلك إلا كميل الطفل إلى أمه
يلتهم ـ دون وعي ـ ثديها وينال منه
وانتقل ألانسان من عالم الحيوان إلى عالم البشر
حيث الفطنة والفكر السليم و العلم و الإرادة
ونسي مرة أخرى التربة التي منها انبعث
وسيتطور الإنسان مرة أخرى إلى طور جديد

ويقول هكسلي (الإنسان في القرآن ـ عباس محمود العقاد)و كان مؤيدا لما يقوله داروين «النشوء لا يلزم منه نفي مقاصد الله وإن ترتب أو توقف مخلوق على آخر أو عملهما معا لإتمام مقصد جيد أو كمال غاية حسنة كالحياة للنبات وطيب العيش للإنسان و الحيوان لهو دليل واضح عند كبار العلماء على مقاصدالله . . فالذي يصنع آلة تعمل هي آلة مثلها فهو أحذق و أقدر و أحكم من الذي يصنع آلة تقتصر على العمل المقصود منها و لا تتعداه »

ويقول عبدالكريم الخطيب في كتابه السابق ذكره (قصتا آدم ويوسف) «هذا وقد يرى بعضهم أن في قوله تعالى «وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »و فيما جاء من الآيات التيتتحدث عن دعوة الله سبحانه و تعالى للملائكة أن يسجدوا لآدم عندما ينفخ فيه الحق جل وعـلا من روحه ـ قد يرى بعضهم أن في هذا ما يدل على أن آدم قد انفرد بخلق خاص دون سائر المخلوقات . . . و نقول ـ إن ماورد في الآية السابقة وأمثالها إن دل على خصوصية لآدم فإنه لا ينفي أن يكون ذلك قد كان حين وصـــــل تطور الحياة بالأحياء إلى هذه المرحلة التي بلغ فيها التطور غايته بظهور هذه السلالة الناضجة من ثمرات الحياة ويكون معنى قوله تعالى

« إني خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي » أي إذا بلغ الكتاب أجله بهذا الطين الذي سرت فيه الحياة وتهيأ لقبول النفخة الإلهية فيه ليكون هذا الكائن البشري فقعوا له ساجدين ، إذ هو تلقى النفخة من روح الحق جل وعلا .. ولعل في قوله تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » لعل في هذا ما يشعر بهذا المعنى الذي ذهبنا إليه وهو أن الإنسان لم يجيء من الطين مباشرة وإنما كان ذلك بعد سلسلة من التطورات وبعد عمليات طويلة من التصفية والانتخاب انتهت بظهور الإنسان على تلك الصورة التي انفصل بها عن جميع الأحياء وكان أهلا لتلقي تلك النفخة الالهية يوم مولده وكأنها التاج الذي توج به ملكا على العالم الأرضي كله.

وعلى هذا فإننا لا نستطيع أن نقبل أقوال المفسرين في خلق آدم على تلك الصورة المغلقة التي يصورون بها الأسلوب الذي خلق به إذ يكاد يجمع المفسرون على أن ميلاد آدم كان على هذا النحو الذي لا مستند له من آيات الكتاب الكريم » .

أما معارضو داروين فمنهم الشيخ جمال الدين الأفغاني حيث يقول « وعلى زعم داروين هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلا بمرور القرون وكر الدهور وأن ينقلب الفيل برغوثا » ونقول له (رحمه الله) إن هذا غير ممكن وإن داروين لم يقل بذلك إذ أن البرغوث من الحشرات وهذه نشأت من حيوانات أدنى منها،والبرغوث في حد ذاته قد تطور عن الحشرات ففقد أجنحته وضغط جسمه لكي يختبيء بين الشعر أو طيات الملابس وقويت عضلات فخذيه قوة هائلة للقفز والهرب وتحور إلى أنواع فمنه ما يصيب الإنسان ومنه ما يصيب القطط والكلاب ومنه ما يقضي حياته بين أصابع القدمين . أما الفيل فقد نشأ عندما ظهرت الثدييات من حيوانات أدنى وهذا الفيل نفسه قد تطور من حيوان ضئيل الحجم يعيش في مناطق الجليد

ويغطى جسمه بالفراء مثل الدببة إلى ذلك الكائن الضخم الأجرد إلا من الشعر الذي يغطيه بدلا من الفراء ليتمكن من العيش في الغابات الحارة .. فسبحان الخالق المصور الذي أعطَى للفيل الذي عاش في الثلوج القدرة والمقومات والأساليب التي مكنته من التطور لكي يعيش في قيظ الغابة بعد أن كان يعيش في زمهرير الثلوج .

ويقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي) يوميات الأخبار ـ أحمد زين) : « ولكن معجزة الحياة والموت هي لله وحده ثم يأتي بعض الناس ليجادل في ذلك مدعيا أن الإنسان أصله قرد .. فلماذا توقف هذا التحول منذ عشرات الألوف من السنين، ولماذا لم نشهد نحن في التاريخ المكتوب للبشرية كلها أولئك الذين آمنوا والذين كفروا من سجّل أن قردا تحول إلى إنسان .. فلماذا توقف هذا التحول منذ عشرات الألوف من السنين،من الذي اختص فردا واحدا دون بقية جنسه أن يتحول إلى إنسان مرة واحدة في التاريخ لا تعرف لها سجلا وهل تحول القرد وحده أو تحولت قردة أيضا إلى أنثى .. ومتَى حدث ذلك .. ثم توقف فجأة لو أن الإنسان أصله قرد لكانت سنة أن يتحول القردة إلى بشر.... ومـا دام ذلك حدث مرة فلا بد أن يتكرر.. ولكننا لم نشاهد في التاريخ المكتوب المليء بالخرافات والقصص الخيالية التي سجلت أن قردا تحول إلى إنسان فما الذي أوقف هذه العملية .. ومتَى وكيف تمت .. إن الذي أوقفه أنه لم يحدث أصلا ولم يكن موجودا إلّا وهما وافتراضا من بعض العلماء الذين فشلوا أن يقدموا لنا الدليل ولو كان هذا صحيحا مع تقدم العلم البشري لأمكن للعلماء أن يحولوا قردا إلى إنسان ولكن هذا مستحيل والله سبحانه وتعالَى حين خلق الحياة أبلغنا طريقة الخلق ومعجزاته وقال إنني خلقت من كل شيء زوجين أي أن كل مخلوقات الدنيا بدأت بأن خلق الله سبحـانه وتعـالَى ذكرا وأنثَى ثم بدأ التكاثر بعد ذلك والحياة لا يمكن أن تتكاثر إلا إذا بدأت بذكر

وأنثى ولو بدأت بذكر بلا أنثى أو أنثى بلا ذكر لانقرضت خلال سنوات قليلة » .

نقول ردا على ذلك ... إن العلماء لم يقولوا بأنهم يمكنهم أن يحولوا قردا إلى إنسان أو حمارا إلى غزال ونؤكد أنهم لن يمكنهم ذلك كما يجب أن نوضح أن العلماء لم يقولوا بأن قردا كان يمشي على أربع يأكل الفول السوداني أو أصابع الموز « يهبهب ويهوهو » مثل باقي أهله وعشيرته ينام نوم الأعزب أو يرقص « ويعجن عجين الفلاحة » يجر ذيله خلفه أو كان بدون ذيل لم ينم هذا القرد ليلا وفي الصباح إذ به يهب من نومه إنسانا على قدمين فقد ذيله أو البقية الباقية منه يتكلم بالعامية أو بالفصحَى يبتسم أو يضحك أو يقهقه يأكل اللحم ويقوم بما يقوم به الرجال،وبالمثل لم تنم قردة بالليل أو ظلت ساهرة وأصبح عليها الصباح فإذا بها حواء ناعسة الطرف فاتنة كاعبا تضحك فيضحك لها الكون وتتكلم بالراء تنطقها غينا.

لم يحدث ذلك لا منذ عشرات الألوف من السنين ولا منذ ملايينها بل نوافق على أنه لم يحدث إطلاقا ولكن العلماء يقولون إن الله سبحانه خلق القرد وخلق الإنسان وخلق جميع الأنواع بقوانين ثابتة غير عشوائية وسبحانه جلّ جلاله إذ يقول :

« إن ربي على صراط مستقيم » (هود 56) .

وأن هذه القوانين هي التي مكنت الحياة من الاستمرار عندما كانت الأحياء خلية واحدة إلى أن تنوعت وتشكلت وكونت الألوف بل الملايين من الأنواع في سلاسل واتجاهات متعددة ولكنها متصلة جميعها لأنها نشأت من بعضها البعض فإذا كان الحصان والحمار متقاربين في الشكل فلأنهما نشآ من أصل واحد قريب وإذا كان الإنسان والقرد متقاربين أيضا فلأنهما نشآ من أصل واحد قريب،غير أنه لكي ينشأ الإنسان من أصل يجمع بين بعض صفات القردة وبعض صفات الإنسان وهو ما أسماه العلماء بالإنسان القردي قد تطلب ذلك بضع مئات الألوف من السنين بل أن

ظهور هذا الإنسان القردي قد تطلب ثلاثين مليونا سابقة من بدء ظهور الثدييات التي ينتمي إليها . وإذا فحصنا الحلقة الأخيرة فقط من تطور إنسان قردي إلى إنسان نرى أن ذلك قد تطلب تغيير في عظام الجمجمة وفي شكل العمود الفقاري وفي موضع ما سميناه بالثقب المؤخري وفي عظام الحوض وشكله وفي عظام الفخذ والساق والذراعين والأيدي والقدمين وأهم من هذا وذاك حجم المخ وخصائصه من القدرة على الكلام والحفظ والتذكر والتفكير وغير ذلك وأخيرا ما لا نعلمه من أمر الروح . هل حدثت كل هذه التغييرات فجأة أو بين يوم وليلة كلا وألف كلا .. بل حدثت بالتدريج البطيء وبتخطيط محكم وبعقل قادر مدبر ومهيمن هو إرادة الله القدير الذي يقول :

«ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها» (هـــــود 56) .

يخلق الله عوامل الصفات كما ذكرنا وهي ما سماه العلماء بالجينات على الكروموزومات .. وكما ذكرنا أيضا تنتقل هذه الجينات إلى الأبناء عن طريق نطف آبائهم ذكورا وإناثا وبذلك تنتقل الصفات الجديدة إلى الأبناء ثم إلى الأحفاد وهكذا. وفي الطريق الطويل تتلاشى الأفراد التي لا تحمل الصفات الملائمة تدريجيا، وتزداد الأفراد التي تحمل صفات ملائمة، وهكذا نرى كما يقول فضيلة الشيخ أن الحياة تتكاثر بواسطة الذكر والأنثى ولكننا نضيف، أن التطور أيضا يحدث بواسطة الذكر والأنثى بصفات جديدة منها ما يسمى بالطفرات . ونحب أن نؤكد ثانية أن الإنسان لا يمكنه أن يلحظ هذا التغيير الذي يتطلب آماداً بعيدة تقدر بألوف الأجيال فإذا كان الجيل الواحد في الإنسان يقدر بحوالي ثلاثين عاما فإن ألفا واحدا من الأجيال وهو عدد ليس بالكثير في طريق التطور يحتاج إلى ثلاثين ألفا من الأعوام غير أن العلماء يمكنهم رؤية مستقبل تلك الأجيال بدراسة كائنات أخرى مثل الذباب الذي تقدمت على « يديه » علوم الوراثة تقدما

مذهلا فيالقرن الأخير إذ أن الجيل الواحد من هذاالذباب يحتاج من سبعة إلى عشرة أيام أي أن العام الواحد ينتج فيه حوالي أربعين جيلا تنقص أو تزيد. ومن ذلك نرى أن ما يحدث في سنة واحدة من تطور في الذباب يعكس ما قد نراه في ألف ومائتي سنة في الإنسان. وبتربية الذباب ثبت للعلماء إمكان ظهور صفات جديدة لم تكن موجودة أصلا في الآباء ، وغني عن الذكر أنه عند ظهور صفة جديدة فإن تلك الصفة إذا كانت ضارة فربما تؤدي إلى موت من يحملها وإذا كانت نافعة فسيختلف الوقت الذي ينبغي إنقضاؤه لكي تثبت في الأجيال القادمة حسب طبيعتها وهل هي صفة سائدة أو متنحية،فإذا كانت سائدة كان فرصة ثباتها أسرع .... نوافق بغير شك على أن الإنسان لم ير هذا القرد او الإنسان القرد الذي تحول إلى إنسان وأن ذلك ليس مكتوبا في سجلات قديمة أو حديثة ولكننا نقول إن هذا التحول وإن لم يكن مكتوبا إلا أنه مسجل ، مسجل لمن يمكن لهم قراءته من العلماء المتخصصين، مسجل على الحفريات ، على بقايا تلك المخلوقات نفسها .. مسجل لمن يخاطبهم المولَى قائلا : « قل سيـــروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .

وقد أجاب العلماء على هذا التساؤل وهم ما يزالون يبحـــثون وينقبون .. وفي كل يوم يعثرون على أدلة أخرى تؤيد ما يقولون .. يقول فضيلة الشيخ .. إذا كان قرد قد تحول إلى إنسان فما الذي أوقف هذه العملية ..ونقول .. الذي أوقفها هو التطور نفسه ، إذ أن من أسس التطور أنه عندمايتحول الإنسان القرد أو القرد الإنسان إلى إنسان تتلاشَى الأفراد التي تحمل صفات القرود شيئا فشيئا أي جيلا بعد جيل لكي يحل محلها الأفراد التي تحمل صفات الإنسان ويحدث ذلك تدريجيا وببطء شديد حيث اقتضَى ذلك ألوف مؤلفة من السنـين بل ربما كـان ذلك التحول لا يزال سائرا .. يدل عليه ما تجهضه النساء من أجنة ، وما تلده من أطفال مشوهين يموتون عند الولادة أو بعدها . إن نمو الجنين

وتطوره وتشكله في الرحم يمر بأطوار الأسماك والبرمائيات والزواحف والثدييات إلى أن يتشكل إلى جنين إنساني بل أن هذا الجنين يمر بطور يكون جسمه مغطّى بالشعر وله ذيل كما أن الطفل يولد بعمود فقري مقوس مشابه لنظيره في القرود ـ ولنقرأ معا ما جاء بجريدة الجمهورية بتاريخ 14 / 6 / 1981 تحت عنوان « سعوديـــة تلد سمكـــة » الرياض ق . ن . أ « أنجبت سيدة سعودية مولودا من الحالات النادرة حيث يشبه الجزء السفلي منه ذيل السمكة كما تشبه قدماه الزعانف وقالت صحيفة الرياض السعودية إن الولادة تمت في المستشفَى الوطني بالرياض في الأسبوع الماضي وتوفي المولود بعد ولادته بيوم .. وقالت الصحيفة عن الدكتور عبد العزيز الزامل كبير أطباء المستشفَى إن هذا الطفل السمكة جاء لزوجة من البادية » .

ونقول إنه ربما كان من أسباب ولادة هؤلاء الأطفال المشوهين أو إجهاض أجنّتهم أن نطفة أحد الأبوين أو كليهما تحملان عاملا وراثيا أو أكثر من أحد أجدادهما من حيوانات الماضي السحيق ، ولا يمكن لرحم الأم بعد تطوره إلى رحم امرأة أن ينضج مثل هذه الأجنة .. بل دعونا معا نستمع إلى قول العزيز الحكيم عن أمّنا حـــواء وأبينـــا آدم :

«فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين « الأعـــراف 189) .

يقول سيد قطـــب (في ظـــلال القـــرآن) « إن بعض الروايات في التفسير تذكر هذه القصة على أنها قصة حقيقية وقعت لآدم وحواء ، إذ كان أبناؤهما يولدون مشوهين فجاء إليهما الشيطان فأغرى حواء أن تسمي ما في بطنها عبد الحارث والحارث اسم إبليس ليولد صحيحا ويعيش ففعلت وأغرت آدم معها » .

ويقول ابن كثير « دعـــوا الله (آدم وحـــواء) ربهما لئن آتيتنا

صالحا ، أي بشرا سويا كما قال الضحاك عن ابن عباس أشفقا أن يكون بهيمة وكذلك قال أبو البختري وأبو سالك أشفقـا ألا يكون إنسانا » .

وفي تفسير الطبري « واختلف أهل التأويل في معنَى الصلاح الذي أقسم آدم وحواء عليهما السلام أي إن أتاهما صالحا في حمل حواء لنكونن من الشاكرين فقال بعضهم ذلك هو أن يكون الحمل غلاما ـ وقال آخرون بل هو أن يكون المولود بشرا سويا مثلهما ولا يكون بهيمة . ذكر من قال ذلك حدثنا ابن وليغ قال حدثنا أبي عن سفيان عن زيد بن جبير الحسمي عن أبي البحتري في قوله لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين قال أشفقا أن يكون شيئا دون الإنسان قال حدثنا محمد بن عبيد عن اسماعيل عن أبي صالح قال حملت إمراة آدم فأثقلت كانا يشفقان أن يكون بهيمية فدعوا ربهما لئن آتينا صالحا الآية . قال ثنا جابر بن نوح عن أبي روق عن الضحاك عن بن عباس قد أشفقا أن يكون بهيمة جعلوا له شركاء فيما آتاهما : كانت حواء لا يعيش لها ولد ، حدثنا ابن حميد قال حدثنا مسلمة عن ابن اسحاق عن دواد ابن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال كانت حواء تلد لآدم فتعبدهم وتسميه عبد الله وعبيد الله ونحو ذلك فيصيبهم الموت ، فأتاها ابليس وآدم فقال إنكما لا تسمياه بغير الذي تسميانه لعاش فولدت له رجلا فسمياه عبد الحارث » .

هـــذه بعض التفاسير التي وردت لتلك الآيات ... وأقول .. إذا كانت حواء تلد لآدم أطفالا مشوهين بل يبدو أن منهم من كان على صورة البهائم ، إذا صحّ ما قيل في ذلك ، فإن تفسيره من الناحية العلمية أن آدم وحواء وهما بداية البشر كانا سلالة قريبة من أسلافهم من الإنسان السابق للبشر ومن الإنسان القرد ولذلك كانت عوامل الوراثة من صفات غير بشرية لم تتلاش منهما بعد .

جاء في الإتقان في علوم القرآن : « أخرج ابن جرير والطبراني بسند

ضعيف من طريق موسَى بن علي بن رباح عن أبيه عن جده أن النبي صلّى الله عليه وسلّم قال له ما ولد لك قال : ما عسَى أن يولد لي إما غلام أو جارية ، قال فمن يشبه قال من عسَى أن يشبه إما أباه وإما أمه ، فقال النبي (صلعـــم) له لا تقولن هذا إن النطفة إذا استقرت في الرحم أحضرها الله تعالى كل نسب بينها وبين آدم أما قرأت « في أي صورة ما شاء ركبك » .

ولنا أن نقول بعد ذلك إذا كانت صفات مواليدنا وما يشبهون تمتد إلى آدم كما يقول نبينا الكريم صلوات الله عليه فلا أقل من أن أبناء آدم وحواء كانت صفاتهم تمتد إلى أجدادهم من الإنسان السابق للبشر ومن الإنسان القرد ولنا أيضا أن نتساءل (لو كانت التفاسير التي وردت عن قوله تعالى « لئن آتيتنا صالحا » صحيحة) إذا كان آدم قد خلق من تراب وحواء خلقت منه بداية بِللإنسان ، فما معنَى ولادتها أولادا يشبهون البهائم ؟ !.

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي « من الذي اختص قردا واحدا دون بقية جنسه أن يتحول إلى إنسان .. وهل تحول القرد وحده أو تحولت قردة أيضا إلى أنثَى » وهو بمعنَى آخر يتساءل هل آدم وحده هو الذي تحول إلى إنسان أو حواء أيضا . وردا على ذلك .. نقول ... إن العلم يحتم أن يكون آدم وحواء كلاهما من نوع واحد لكي ينجبا ذرية يمكنها أن تتناسل دون انقطاع جيلا وراء جيل وعلى هذا فإن آدم وحواء كليهما كانا بشراً وهذا يحتم بالتالي أن أبوي كل منهما يحمل عوامل وراثية (جينات) ينتج عن امتزاج نطفها نطفتا أمشاج تحملان خصائص البشر إحداهما أنتجت آدم والثانية أنتجت حواء.

ولا زال للسؤال بقية ... إذا كان الإنسان القردي لكي يتحول إلى إنسان بشر قد قضَى مئات الألوف من السنين ، فهل كانت المحصلة فردين اثنين آدم وحواء ؟ الإجابة من الناحية العلمية ربما .. ولكن من الناحية

المنطقية في رأيي على الأقل لا .. فماذا يقول القرآن الكريـــــم :

«وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (الحجر 28)

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس « الكهـــف 50 ، طه 116) .

« إن الله اصطفَى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين » (آل عمـــران 33) .

من ذلك نرى أنه سبحانه يقول للملائكة في سورة الحجر إنه خالق بشرا من صلصال وكلمة بشر تحتمل الجمع وقوله سبحانه قعوا له ساجدين لا يقصد بها السجود الفعلي كما يقول بعض المفسرين بل يقصد بها أن منزلة البشر أعلَى من منزلة الملائكة . أما قوله سبحانه للملائكة اسجدوا لآدم فلأن آدم من البشر بل أكثر من ذلك أن الله تعالَى قد اصطفاه ليس على البشر فقط بل على العالمين ـ من كل ذلك نرى الاحتمال بأن آدم ما هو إلّا أحد البشر وإن كان الله قد اصطفَى آدم منهم لكي يورثه هو وأبناءه من حواء الأرض وما عليها .

يقول فضيلة الشيخ الشعراوي لو كان الكلام عن التطور صحيحا لأمكن للعلماء مع تقدم العلم البشري أن يحولوا قردا إلى إنسان .. ونرد على ذلك بأن الإنسان لا يخلق أنواعا جديدة ولكنه قد يتسبب في ظهور أنواع جديدة فكلنا نعلم ما نتج عن استعمال المبيدات الحشرية في السنين الأخيرة فقد أدّى ذلك إلى ظهور سلالات جديدة تقاوم فعل تلك المبيدات،لم يقم الإنسان بخلق تلك السلالات ولكن الله سبحانه هو خالقها . لقد كانت تلك السلالات موجودة أصلا في الحشرات ولكن بأعداد قليـــــلة وعندما قام الإنسان بالاسراف في استعمال المبيدات ماتت أغلب تلك الحشرات وتبقَى فقط الأفراد الّتي تقاوم فعل المبيدات وتلك هي الّتي

تكاثرت لتكون سلالات جديدة ربما يمكنها أن تتحول إلى أنواع أخرى .

ليس معنَى ذلك أن تتحول الذبابة إلى بعوضة أو الصرصار إلى « أمنا الغولة » ولكن معنَى ذلك ظهور نوع جديد من الذباب ونوع جديد من الصراصير ـ كما نضيف أيضا أننا لا نعلم ما سوف ينتهي إليه التقدم العلمي ولكن يمكننا استنتاجه :

هب أن حربا ذرية قامت بين القوتين العظمين، ونحن نعلم جميعا الأثر المدمر للإشعاع الذري وما سيؤديه من خراب ودمار لكافة المخلوقات فلو افترضنا أن سلالات الأقزام من الإنسان الذي لا يزيد طول الواحد منهم عن أربعين أو خمسين سنتيمترا تملك دون غيرها من العوامل الوراثية ما يقاوم الإشعاع إذن لكان مستقبل الإنسان أو إنسان المستقبل هم هؤلاء الأقزام. بل هناك فرض ثان ، افترض معي أن جيمع الحيوانات بما فيها الإنسان ستنتهي بفعل ذلك الإشعاع فيما عدا كائنا ما ليكن الحمار أو الببغاء أو أبا فصاده هو الوحيد الذي يقاوم إشعاع الذرة،ألا ترى معي أ ن مثل هذا الكائن هو الذي سيرث الكون . وهناك فرض ثالث أن العلماء يعرفون فعل الإشعاع الذري على مادة الوراثة أي على الجينات وبذلك ربما تنشأ كائنات لا نعلمها .

من كل ذلك نرى أن العلماء لا يمكنهم بذاتهم أن يفعلوا شيئا لم يوجد الله سبحانه وتعالَى أسسه ومقوماته. وسبحان رب العزة حين يقول :

« إن يشـــأ يذهبكم ويأت بخلــق جديــــد » (إبراهيـــــم 19) .

يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي « إن الحياة لا يمكن أن تتكاثر إلا إذا بدأت بذكر وأنثَى ، ونوافق على ما يقول ولكننا نضيف أن الحياة بدأت قبل ذلك بمئات الملايين من السنين. بدأت بمخلوقات من خلية واحدة أخذت تتكاثر بغير حاجة إلى الجنس، ثم بمخلوقات كانت تحمل عوامل

الذكورة والأنوثة في كائن واحد ثم في كائنين منفصلين الذكر والأنثى.

وقد سبق أن ذكرنا تساؤل فضيلته عند تفسيره لقوله سبحانه «والسماء ذات الرجع» ـ لماذا يأتي الإنسان وحده ولا يعود في حين أنه واحد من مكونات هذه الأرض وأن الحياة كلها يحكمها قانون واحد؟.. ولنا إذن أن نضيف إلى هذا التساؤل تساؤلا آخر.. ولماذا ينشأ الإنسان وحده نشأة خاصة؟.. لماذا تنكسر سلسلة الحياة منذ بدئها من قرابة ثلاثة آلاف وستمائة مليون عاما عند آدم فقط لكي يخلقه الله خلقا خاصا بيديه ويخلق حواء من أحد أضلاعه؟ إننا لكي نقبل رأي فضيلته في عودة الإنسان وهي النشأة الآخرة طبقا لقانون واحد فيجب أن نقبل رأي العلم في النشأة الأولى طبقا لنفس القانون غفرانك اللهم بل قبل ذلك وفوق ذلك طبقا لقوله سبحانه:

«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشيء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير»

يقول المولى سبحانه كيف بدأ الخلق ولم يقل كيف بدأ خلق الإنسان وذلك لأن الإنسان ما هو إلا واحد من ملايين المخلوقات خلقها الله جميعها جلت قدرته ببداية واحدة في تطور لم ينقطع.

يقول المفسرون إن الله سبحانه وتعالى قد خلق آدم بغير أب وبغير أم وخلق حواء بغير أم بطلاقة القدرة وأقول لهؤلاء إن قدرة الله جلّ وعلا أكبر مما تصورون.. إنكم كمن يريدون أن يزيدوا نور الله بأفواههم أو كمن يريد أن يزيد ضوء الشمس بعود ثقاب ـ إن قدرة الله تتمثل في أن يمسك سبحانه الكون كله في وحدة واحدة وأن يمسك بناصية الأحياء جميعها ـ إن قدرته تتمثل في أن يخلق من أحياء بسيطة أحياء أخرى أكثر تعقيدا في أن يخرج من اللافقاريات من أمثال الحشرات والعناكب فقاريات مثل الأسماك وأن يخرج من الأسماك التي تعيش في البحر كائنات تعيش في البحر والبر ثم يخرج من تلك كائنات زاحفة كالثعابين والتماسيح.. ثم يخرج

من تلك الزاحفات طيورا وذوي أثداء منها الخيل والحمير والأبقار والقردة والنمور والأسود وأخيرا أن يتوج الكون كله بأن يخرج الإنسان غير منفصل عن هؤلاء بل مشتركا معهم في نفس السلسلة التي تعود إلى الوراء إلى سلالة من طين إلى أصل واحد لجميع المخلوقات من نبات وحيوان وإنسان .

إن المعجزة في خلق آدم ليست في خلقه من طين وتركه أربعين سنة قبل أن يصوره الحق سبحانه كما يقولون ولا في خلقه بدون أبوين كما يعتقد البعض أو كما يحلو له أن يردد .. بل المعجزة هي كما جاءت على لسان الرسول الكريم في خلقه من قبضة من جميع الأرض . يقول صلوات الله عليه[1] : « إن الله عزّ وجلّ قد خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض . جعل منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك،والسهل والحزن وبين ذلك،والخبيث والطيب وبين ذلك » ... إن ما قاله النبي الكريم يعني أن آدم قد خلق ليس فقط من جماد الأرض بل أيضا من أحيائها . من جمادها بما يشمله من تراب وماء ، تراب قد كوّن ولا زال يكوّن الجبال والوديان والصحاري.وماء كوّن وما يزال يكوّن الأنهار والبحيرات والبحور فمواد تركيبها جميعا هي نفس اللبنات التي ركب منها جسم آدم هي الفخار وهي الصلصال الذي خلق منه ـ أما خلقه عليه السلام من أحياء الأرض جميعها علاوة على جمادها فدليله قول الرسول من « جميع الأرض » وليس من جميع تراب الأرض .

وهنا تبدو معجزة الخالق الذي خلق آدم آخر المخلوقات . متطورا عنها جميعها فتكوّنت خلايا جسمه حاملة لصفاتها جميعا ناشئة عن ألوف

---

(1) عن أبي موسى الأشعري عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم (مسند الإمام أحمد بن حنبل مجلد 4 ص 406 وبنفس المعنى وتغيير في بضع كلمات ص 400 وفي سنن الترمذي الجزء الخامس كتاب تفسير القرآن حديث رقم 2955 .

العوامل الوراثية التي تقع على ثلاثة وعشرين زوجا من الكروموزومات قد مرت كما سبق أن ذكرنا بأطوار الأحياء من الخلية الواحدة إلى النبات إلى الحيوانات كافة . ولا يعني ذلك كما ذكرنا أن حياة البشر قد كانت أميبا ثم اسفنجا ثم سمكة ثم ضفدعة ثم ديناصورا ثم قردا ثم إنسانا ، نقول لا يعني ذلك بتاتا بل يعني أنها قد حوت جميع صفات تلك الكائنات وما يشبه كلا منها لأنها قد مرت على أطوار تمتلك نفس خصائصها طورا بعد طور .

وزيادة في الإيضاح نقول إن كل كائن يحمل الصفات الرئيسية لمن هم دونه في سلم التطور ولكنه لا يحمل الصفات التي تميز من هم أعلى منه وقد أتى آدم ليملك صفات الجميع ولا يمتلك صفاته أحد حتّى ولا أقرب أقربائه من الأناسيّ الآخرين وأتى أبناء آدم يمتلكون صفات الأرض وما عليها ليس فقط في الصفات المادية (فمنهم الأبيض والأسود) بل أيضا في الصفات المعنوية (فمنهم السهل والحزين والخبيث والطيب) .
صدقت يا رسول الله يا أشرف المرسلين لقد جاء بنو آدم على قدر الأرض .

وأخيرا فإني أختتم هذه الكلمة بأن أقول لمن يطلب من العلماء أن يحيلوا القرد إنسانا، أو الإنسان قردا أو البرغوث فيلا :

« قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين »

صدق الله العظيم

بيـــن الخلــق والتطـــور

في السنين القليلة الأخيرة خرج عالمان أمريكيان (جود والبـــــردج) برأي في التطور يقولان فيه إنهما لا ينكران التطور كحقيقة قائمة مثلها كمثل سقوط التفاحة من أعلى الشجرة ولكنهما يعارضان تفسير داروين في كيفية حدوث التطور .. وكما عارض العلماء نيوتن بنظرية النسبية فإن تلك المعارضة لم توقف التفاح من السقوط من أعلى الشجر . يقول العالمان إن التطور لا يحدث بالتدريج البطيء المستمر وبالانتخاب الطبيعي، بل يحدث بقفزات مفاجئة هائلة سريعة نسبيا تبعد النوع الجديد عن النوع الأصلي بغير تدرج وأطلقا على تلك الظاهرة « التوازن الموقوت Punctuated Equilibrium» ودعا العالمان إلى التوقف عن البحث عما يسمى بالحلقات المفقودة بين الأنواع بدعوى عدم ضرورتها وبأن مرور قرن من الزمان في البحث عن تلك الحلقات لم يؤد إلى حصيلة كبيرة .

ولا أرى أن العالمين قد أتيا بجديد . فإذا كان التطور في رأيهما يحدث بقفزات مفاجئة لا يعرف إلى الآن كيفية حدوثها فإن ذلك هو ما كشف عنه علم الوراثة وسمي بالطفرات وما أضيف إلى نظرية التطور بعد داروين الذي لم يكن علم الوراثة قد ظهر في وقت إنشائه لنظريته . إن معنى ذلك ببساطة أن معدل التطفر قد يكون مرتفعا أكثر مما كان في الحسبان . أما معارضتهما للتنافس على البقاء وأن البقاء للأصلح وهو الانتخاب الطبيعي

فقد ناقضا نفسيهما في شرحهما لرأيهما إذ يقولان إن تنافس أفراد النوع الواحد يؤدي إلى تغيير طفيف في النوع ولكن يحدث فجأة وبكيفية غير معروفة أن تظهر من الأنواع القائمة أنواع جديدة منفصلة عن تلك الأنواع وربما تحل محل تلك الأنواع الأصلية إذا كانت تحمل صفات أفضل أو تعيش الأنواع الجديدة لفترة من الزمن جنبا إلى جنب مع الأنواع الأصلية إلى أن يحدث تغيير كبير في الظروف البيئية ـ وهذا عادة ما يحدث ـ فتمحو تلك الظروف الأنواع القديمة أو الجديدة أو كليهما . أليس ما يقوله العالمان إذن هو الانتخاب الطبيعي ... فما هو الجديد فيما يقولان ؟ ! ! .

أما القول بعدم العثور إلا على القليل من الحلقات المفقودة فكما ذكرنا يعتبر العثور على تلك الحلقات أمرا بالغ الصعوبة يعتمد لدرجة كبيرة على الصدفة . كما أن مرور مائة عام في البحث عن الحفريات في باطن الكرة الأرضية من بعد داروين لا تعد فترة تذكر بالقياس إلى ملايين السنين أو آلاف الملايين منذ بدء الحياة وكما ذكرنا أيضا فإن عدم العثور عليها ليس دليلا على عدم وجودها .

ويقول دكتور ستيفن ستانلي أحد العلماء الأمريكيين الذي ساهم بقسط أوفر في تأسيس نظرية التوازن الموقوت في كتاب صدر له أخيرا : لما كانت نظرية داروين تنادي بتطور الحيوان بالانتخاب الطبيعي نتيجة للتنافس على المأكل والمأوى وحيازة الأنثى فيجب أن نخرج أنفسنا من ذلك المضمار فإن تطور الإنسان من القرد الجنوبي الأفريقي (Australopithecus) عبر ثلاثة ملايين من السنين لا يمكن أن نعتبره نتيجة للتنافس بغير رحمة من نوع إلى نوع على المسكن المريح والمكتب الفاخر .

وللرد على ذلك .. أقول .. إن الله سبحانه وتعالى حين سار بتطوير مخلوقاته إلى الحد الذي أمد فيه الإنسان الأول بالمخ الذي يختلف عن مخ سلفه من الحيوان ـ فإن هذا المخ قد أصبح عنصرا هاما من مكونات البيئة

لأنه مخ قادر متصرف خلاق بعكس مخ أسلافه الذي كان مخا سلبيا عليه أن يعيش في البيئة التي يوجد فيها كما هي . إننا لانغالي إذا قلنا إن مخ الإنسان بعد أن صار عنصرا من مكونات البيئة قد أضحَى لحد كبير مساعدا لها في طريق التطور .

يقول العلماء إن تطور الإنسان من مخلوق قردي إلى الإنسان الحالي قد تم بقفزات سريعة غير متدرجة ، وفي رأيي أنه إذا ثبت أن خطوات تطور الإنسان كانت أسرع من خطوات ما سبقه من الحيوان فإن مخ الإنسان نفسه كان عاملا رئيسيا في تلك القفزات . قفزات نقلت ذلك المخ من حجم بلغ 500 إلى 650 إلى 900 وأخيرا إلى 1300 سنتيمترا مكعبا .

أما الرأي بأنه يجب أن نعلو بأنفسنا عن القول بأننا تطورنا نتيجة للتنافس على المأكل والملبس وحيازة الأنثى فإننا نرد على ذلك بما حدث في تاريخنا القديم والقريب بل بما يحدث في تاريخنا المعاصر . ألا يعد تنافسنا على موارد الطاقة مثل البترول واليورانيوم حاليا أو الفحم وغيره سابقا ، وتنافسنا على موارد الثروة من الذهب والحديد والنحاس وغيرها ، وتنافسنا في البحث عن الموارد في قاع البحار . تنافسا على البقاء . ألا يعتبر استغلال المستعمر لثروات المستعمرات تنافسا في سبيل المسكن المريح والمكتب الفاخر . ألا يعكس ذلك التنافس الذي نستعمل فيه أسلحة رهيبة مثل القنبلة الذرية في هيروشيما ونجازاكي والقنبلة الهيدروجينية المعدة للإطلاق ألا يعكس ذلك تنافسا بين أناسيّ سابقة قد أدى إلى انقراض إنسان ليحل محله إنسان آخر .

أليس ما أقدم عليه الرجل الأبيض من عمل عندما أباد الهنود الحمر هو في حد ذاته تطبيقا عمليا لمنطق يقول في رأي من قاموا بذلك العمل أن البقاء للأصلح .

ألا يعد ما أستنّه الرجل الأبيض من قوانين تحرم زواج الرجل الأسود

من المرأة البيضاء تنافسا على حيازة الأنثى . أما في تاريخ الإنسان القديم فقد كان بعض أنواعه يقتنص غيره ويقوم بالتهام بعض أجزائه وصدق أصدق القائليـــــن :

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » (البقـــــرة 30) .

إني أرى أن تطور الإنسان عندما يقاس بحجم المخ الذي يحمله فإن مخ الإنسان كان عاملا على تطور المخ في الإنسان ، وبعبارة أخرى فإن الإنسان بما أودعه الله فيه من صفات كانت عاملا على تطور الإنسان في توازن موقوت (لـــو صحـــت تلك النظريـــة) .

هذا ولا يفوتنا أن ننوه بالمعركة الحامية المحتدمة في وقتنا هذا بين رجال الكنيسة ورجال العلم في الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ يحبذ رجال الكنيسة ما أطلقوا عليه « علم الـــخلق Creation Science » لكي يعارضوا به نظرية التطور . ولا يسعني إلا أن أسجد لله شكرا إذ أن ما جاء بقرآننا المجيد يجب أن يجنبنا مثل تلك المعركة . إن الخلق والتطور يسيران جنبا إلى جنب بل أن التطور هو خلق الجديد من الأحياء ـ ألا يقـــول سبحانـــه :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طيـــن * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما » (المؤمنـــون 12 ـ 14).

« يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق » (الزمـــر 6) .

فإذا كانت أطوار الجنين تبدأ بالنطفة ثم بالعلقة ثم بالمضغة فإننا نرى من قول العليم الخبير أنه يخلق النطفة علقة ويخلق العلقة مضغة ويخلق المضغة عظاما أي أن الخلق هو التطور والتطور هو خلق جديد. كما يؤكد سبحانه أيضا أن هذا الخلق الجديد لا بد أن يحدث من كائن حي فالنطفة لم تمت

ليخلق الله بدلا عنها العلقة وتلك لم تمت ليخلق بدلا منها المضغة بل خلق كل كائن منها من الآخر فلكل كائن منها أب نشأ منه .

هذا ما يحدث في الجنين عند خلق الكائن الفرد .. فماذا يحدث في النوع ... يقول العليم الخبير :

« وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » (الأنعام 98)

« وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » (هـود 6) .

إن معنى هاتين الآيتين أن لكل كائن مستقراومستودعا ينشأ منهما مستقرا في الصلب (ثم جعلناه في قرار مكين) ومستودعا في الرحم . صلب أبيه وأمه ورحم أمه ، ويمثل كل كائن فرد النوع الذي يتبعه وبالتالي فلكل نوع من الأنواع مستقر ومستودع وذلك هو جيل الآباء الذي ينتج جيل الأبناء ، وهذا الأخير سيصبح مستقرا ومستودعا للجيل الذي يليه وهكذا .

« أو لم يروا كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده » (العنكبوت 19) .

وإذا رجعنا إلى الوراء نجد أنه في كل نوع من الأنواع جيل حاضر نشأ من جيل يسبقه وهذا الأخير نشأ من جيل أسبق وهكذا .. ولم ينشأ أي جيل من العدم بل من جيل من الأحياء أسبق له. فلو أخذنا الحصان الحالي مثلا نجد أنه نشأ من حصان أسبق منه وهذا نشأ من حصان أسبق وهكذا .. ومثل ذلك الحمار والغزال والأسد والطاووس والسلحفاة وغير ذلك من الدواب ولكن هل الحصان الحالي هو نفسه الحصان الذي عاش منذ مليون سنة مثلا .. لقد أجاب علماء الحفريات على ذلك كما سبق أن أوضحنا إذ أن عمر الحصان على الأرض يقدر بستين مليونا من الأعوام . اختلف فيها شكل الحصان وصفات أعضائه من حيوان كالكلب إلى أن

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (العنكبـــوت 20) .

لا يسعنا حينئذ إلّا أن نقول إن لكل نوع من الدواب أبا نشأ منه وهذا بالضبط ما يستنتجه العلم .. إن للحمار أبا ربما لا يعيش الآن وكذا الحصان وكذلك القط والنمر والكلب والذئب وغير ذلك من الدواب .. ولما كان الشبه شديدا بين الحمار والحصان وبين القط والنمر وبين الكلب والذئب فمن المرجع أن يكون الحمار والحصان قد نشآ من أب واحد من مستقر ومستودع واحد ، وبالمثل القط والنمر، والكلب والذئب . استمر كل أب في العيش عـــلى الأرض مدة طويلة أو قصيرة إلى أن تفرع كل إلى فرعين جديدين إلى نوعين جديدين الحمار والحصان ، الكلب والذئب إلى غير ذلك وأصبح لكل نوع مستقره ومستودعه الخاص به ـ فهل يعلم الإنسان المستقر والمستودع لجميع الدواب التي خلقها المولى سبحانه وتعالى ؟ .

تلــك هي الحلقات المفقودة التي يحاول العلماء التوصل إليها ..

ولعل فيما قلت توضيحا .. كيف أن الحصان رغم أنه قد تنوع في تطوره إلى أحصنة متعددة على مدى ستين مليونا من الأعوام إلا أنه قد نشأ هو نفسه من كائن يسبقه وبالمثل يمكننا أن نقول إن الإنسان رغم أنه قد تطور إلى أنواع متعددة آخرها نوعنا البشري إلا أن الإنسان قد نشأ عن كائن يسبقه يعتبره الباحثون أبا للإنسان والقردة العليا . وفي ذلك يقول عالم الغيب أصدق القائلين ، عن خلقنا نحن البشر .

« وهـــو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقـــر ومستودع » (الأنـــعام) .

أي أننا في تطورنا عندما وصلنا إلى مرتبة « نفس واحدة » أي نوع واحد هو النوع البشري أصبح لنا مستقرنا ومستودعنا الخاصان بنا بداية بآدم وحواء أو بداية بالبشر .

بلغ شكله الحالي. وعلى هذا الأساس لو افترضنا جدلا أن حصانا من ذلك الشكل الأول الذي يبلغ حجم الكلب يعيش اليوم هل يمكنه أن يتناسل مع الحصان الحالي وينتج أبناء وأحفادا. الإجابة على ذلك هو الاستحالة .. ذلك هو التطور .. هو الخلق بالمستقر والمستودع ومنه يتضح أنه رغم أن الخلق مستمر جيلا وراء جيل إلا أنه قد يصل الخلاف بين جيل وجيل يسبقه إما نتيجة التدرج المستمر أو نتيجة لطفرة من الطفرات (أي قفزة مفاجئة كما يقول العالمان الأمريكيان) إلى حد أن يصبح الجيل الجديد نوعا مستقلا وبذلك يكون مستقرا ومستودعا لأجيال مقبلة لذلك النوع الجديد .

لا شك أن النظرة المباشرة تقول إن الأسد مستقره ومستودعه في آبائه وأبنائه من الأسود وكذا الحصان أو الفهد أو الديناصور أو غيرها وكلنا يعلم ذلك ولكن في قول العليم الخبير إن كل دابة يعلم مستقرها ومستودعها تأكيد على أن علمه سبحانه يفوق ما يعلمه البشر وتفسير ذلك أننا إذا عدنا إلى الوراء إلى الحمار الأول مثلا إلى أول جيل من الحمير ظهر على الأرض لا بد لنا أن نقول إن هذا الحمار قد نشأ عن مستقر ومستودع لا نعلمها عن كائن آخر لم يكن حمارا ، عن ذكر وأنثى آخرين .. الله أعلم بهما ليسا المستقر والمستودع الحاليين اللذين نعلمها للحمار وإن كانا بداهة قريبي الشبه بهما .. وأن نقول مثل ذلك عن الحصان أو الضفدعة أو الحدأة أو العنكبوت أو غيرها .. لا يمكننا أن نقول إن الله سبحانه قد خلق الحصان في مبدئه حصانا والقرد قردا ، إذ يعني ذلك أن مستقر ومستودع الحصان أولا وأخيرا هو الحصان ومستقر ومستودع القرد هو القرد مما يتعارض مع مفهوم قول الخالق إن كل دابة هو أعلم بمستقرها ومستودعها ومما يعني أيضا أن الأنواع قد خلقت من عدم ، منفصلة عن بعضها البعض لا نعلم لها بداية وأيها أسبق من الأخرى في حين أن الله سبحانه يقول :

ولما كان الله ينبئنا أن لكل دابة على الأرض مستقرها ومستودعها أي أنها لم تنشأ من عدم بل من كائن يسبقها وبما أن حيوانات اليوم تختلف عن حيوانات العصور السابقة وتلك تختلف عن العصور الأسبق لها وتلك الأخيرة عما سبقها فلا بد أن نوافق على أنها لا بد أن تتصل ببعضها البعض دون انقطاع إذ أن أي انقطاع معناه أن يعيد الله سبحانه خلق كائن حي من الموت أي من العدم مما يتنافى مع قوله أن له مستقرا ومستودعا ومع قوله سبحانه :

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق »
(العنكبـــوت 20) .
الذي يعني أن الحياة قد بدأها الله من العدم مرة واحدة .

نخرج من هذا بأن الأحياء طالما تتصل سلسلاتها ببعضها البعض وطالما بدأت بداية واحدة فلا بد أن تعود إلى أب واحد في بدايتها ومن البديهي في هذه الحالة أننا كلما عدنا إلى الوراء كلما عدنا إلى بساطة التركيب . وهذا بالضبط ما وجده العلماء . إن الحياة تعود إلى الخلية الواحدة . تلك الخلية التي أودع الله سبحانه فيها سر الحياة وسرّ التطور .

إنني لا أرى وجهالأن ينزعج رجال الدين من لفظ التطور .. فإذا كان سبب انزعاجهم هو ما يحاول أن يضفيه الملحدون على التطور قائلين إنه طالما يحدث بالانتخاب الطبيعي فإن معنى ذلك هو عدم وجود الخالق.إذا كانت تلك حجتهم فيمكننا الردّ بأن الانتخاب الطبيعي يحدث نتيجة أمرين .. أولها الصفات التي يضعها الله سبحانه في النوع الواحد والتي يقوم بتغييرها تدريجيا أو فجائيا وإذا كان رأي « جود والبـــردج » بحدوث التطور بقفزات موقوته صحيحا فلا بد من وجود الهادي لهداية تلك المخلوقات التي تتغير فجأة للطريق الذي تسلكه نحو نوع جديد ..أما الأمر الثاني فهو الظروف البيئية والطبيعية التي يقوم خالق الكون بتغييرها إن قليلا

أو كثيرا . ومعنى ذلك أن الله قد أودع في مخلوقاته مسار سيرها . أليس تطور الجنين يتم بخطوات ثابتة يعرفها جيدا ويسلكها بنفسه في داخل الرحم . ألا يحدث ذلك التطور خلقا وراء خلق بفعل الخالق الذي أعطى للجنين تلك الصفة .

إن تطور الأنواع في رحم أمها الحياة هو نفسه تطور الجنين في رحم أمه المرأة أو القطة أو الحوت .. فلماذا إذن نقبل لفظ التطور في الجنين ونقول إنه بفعل الخالق ولا نقبله في الأنواع بما فيها النوع البشري ولا نقول إنه أيضا بفعل الخالق بل سبق أن ذكرنا أن العلماء يقولون Ontogeny Recapitulates Phylogeny وهذا معناه أن تطور الجنين في الرحم هو صورة مصغرة من تطور النوع الذي يتبعه في طريق الحياة .

بقيت نقطة أخيرة ـ ربما يعترض معترض على ما أقول بأن سلسلة الأحياء لا يمكن أن تنقطع ليعيد الله سبحانه الخلق من العدم .. ألا يقول الحق جل شأنه .

« يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي » (يونس31) .

أليس إخراج الحي من الميت هو خلق أحياء من أموات ؟ ! .

للرد على ذلك يمكننا القول بأن إخراج الحي من الميت ليس بالضرورة أن يكون معناه الخلق فكلنا نعلم أن جسم الكائن الحي سواء كان إنسانا أو حيوانا يحتوي على الملايين من الكائنات الدقيقة سواء كانت بكتريا أو حيوانات أولية .. وعندما يموت ذلك الكائن تخرج منه تلك الكائنات .

وإذا كان إخراج الحي من الميت هو الخلق فيمكننا أن نقول أن ذلك

يحدث في النبات (دون الحيوان) عند خروج النبت الصغير من بذرة وضعت في الأرض ... ويمكننا أن نقول أيضا إننا جميعا ميتون إذ يقول الحي الذي لا يموت :

« إنك ميت وإنهم ميتـــون » (الزمـــر 30)

يقول سبحانه ذلك ، في الوقت الذي كان فيه الرسول عليه الصلاة والسلام حيا يرزق والناس فيه أحياء أصحاء .. إننا ميتون ويخلق الله منا الأحياء على الدوام . إننا ميتون بمعنَى أن الموت مكتوب علينا لا مفـــر لنا منه . ولسوف يقول قائل إذا كان عيسَى عليه السلام قد أحيي الموتَى حسب قوله سبحانه :

« قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتَى بإذن الله » (آل عمـــران 49) .

فما بال الخالق البارىء ... هل يصعب عليه خلق الأحياء من الموتَى . فنقول إن الله قادر على كل شيء ولكننا نتكلم عن قواعد عامة ولا يصح أن نقيس القواعد العامة بمقياس الشواذ أو المعجزات . إن الله كما سبق أن ذكرنا خلق الكون بأحيائه بقواعد وضعها بنفسه إذ يقول :

«أو لم يروا كيـــف يبدىء الله الخَلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قديـــر» (العنكبـــوت 19 ، 20) .

صـــدق الله العظيـــم

وبعد هل نشأت الخلية الأولى للحياة صدفة كما يقول الملحدون .

يجيب على ذلـــك[1] السيـــد فريـــد هويـــل عالم الفلك الشهير وزميل له أستاذ في الرياضيات في كتاب ظهر لها في نهاية (1981) يعترفان فيه صراحة بأنهما ملحدان ولا ينتميان إلى أي دين إلا أنهما بعد حسابات رياضية دقيقة ومعقدة لم يجدا لهذه الصدفة أثراإلا بمقدار واحد إلى عشرة أمامها أربعون ألف صفر.

«وبالتالي فإن الحياة لا يمكن أن تكون قد نشأت عن طريق الصدفة بل لا بد من وجود عقل مدبر يفكر ويبدع لهدف معين وعلى الرغم من اعترافهما بإلحادهما فإنهما لا يجدان أمامهما مفرا من أن يكتبا الفصل الأخير من الكتاب تحت عنوان«الله».

(1) من مقال للدكتور أحمـد أبوزيد «هل مات داروين حقـا».. مجلة العربي ـ يوليه (1982).

آدم .. والآخـــــرون

لا شك أننا نتساءل إذا كان هناك « أناسيّ » كثيرة ذكرنا منها الإنسان الماهر وإنسان جاوه وإنسان بكين والنياندرتال والكرومـــاجنــون .. فأين آدم من هؤلاء.

الإجابة على هذا السؤال بصيغة قاطعة لا شك أنها الاستحالة بعينها ولكن يمكننا أن نحاول معرفة أين الإنسان البشر من هؤلاء .

يقول سبحـــانه : « إني خالق بشــرا من صلصـال من حمــإٍ مسنــون * فإذا سويته ونفخت فــيه من روحي فقعوا له ساجديــن » (الحجــر 28 ـ29) .

من هاتين الآيتين الكريمتين يتّضح أن البشر قد تم سواؤه وقد نفخ الله سبحانه فيه من روحه فهو إذن جسد تم اكتماله وروح من العـليّ القدير. فمن ناحيـــة الجسد يمكننا أن نقطع بأن الإنسان الماهر وإنسان جاوه وإنسان بكين لم يتم سواؤهم جميعا إذ أن حجم الدماغ فيهم أقل بكثير من حجم دماغنا نحن الآدميين.

بقـــي إنسان النياندرتال والكروماجنـــون .. لقد وصل كل منهما إلى حجم دماغنا نحن البشر وقد اعتبر العلماء الكروماجنـــون إنسانا يحمل كل صفات الإنسان الحالي وبعبارة أخرى أنه إنسان بشر.. فهل يعتبر النياندرتال الذين قد سبقوا الكروماجنون في الوجود بشرا ؟ .

للإجابة على ذلك .. نحاول أن نتلمس الخلافات بينهما .

يقول علماء الحفريات .. إن شكل الجمجمة في النياندرتاليين تمتاز بانحسارها أي بعدم ارتفاعها مكونة جبهة في الأمام فهي إذن غير كروية بل أميل إلى الإستطالة كما أن عظام الحاجبين أكثر بروزا وعظام الأنف أقلّ بروزا عن مثيلتها في الكروماجنون ممّا يعطي الأنف مظهرا عريضا أفطس أما عظام الفك العلوي فهي شبه ملتحمة بعظام الخد بعكس الكروماجنون إذ تترك العظام فاصلا في تلك المنطقة أمّا الذقن فهي منحسرة غير بارزة واضحة كذقوننا .. وإضافة إلى ذلك نجد أن العمود الفقاري في إنسان النياندرتال قصير متكتل كما أن عظمة العضد في الذراع قصيرة ذات رأس كبير وعظمة الساعد قصيرة أيضا ونسبة طولها إلى العضد أقل من تلك النسبة في ذراع إنسان الكروماجنون .

وعلاوة على ذلك فإن عظمة الفخذ في النياندرتال ضخمة شديدة التقوس وعظمة الساق شديدة القصر مقارنة بالفخذ .. وبالجملة كان ذلك الإنسان الأخير في مظهره الخارجي قصير القامة عريض الصدر غليظ العنق قوي الذراعين كما كان وجهه كبيرا مسطحا بارز الحاجبين أفطس الأنف منحسر الرأس والذقن .... وهنا يجب أن نؤكد أن المظهر الخارجي من قصر القامة وشكل الوجه وغير ذلك ليس دليلا على أن النياندرتاليين لم يكونوا بشرا إذ أن هؤلاء قد عاشوا في فترة بالغة الصعوبة فترة إنحسار الجليد بين الدورتين الثالثة والرابعة ثم النصف الأول من الفترة الجليدية الرابعة .. وربما كان مظهرهم موائما لتلك الظروف ـ ولكن أهم من ذلك هو شكل الجمجمة وما توحي به عما تحمله بداخلها من عقل . إن جمجمتنا المستديرة المرتفعة الجبهة يتبعها كبر حجم ما يسمّى بالفصين الأماميين في المخ Frontal lobes فهل صغر هذين الفصين النسبي في إنسان النياندرتال يدل على عدم تمام السواء ؟ هل يدل على قصر في

الوصول بالعقل إلى تمام المقدرة .

يقول سبحانه :

« وعلم آدم الأسماء كلّها » (البقرة 31) .

وهذا يعني اكتمال القدرة على التعبير عن مختلف الأشياء بالكلام أي بتحويل المفردات الصوتية إلى كلمات وذلك عن طريق ترتيب تلك المفردات تراتيب مختلفة كل ترتيب منها يكون كلمة معينة كما يقول سبحانه :

« قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض » (البقرة 33) .

وهذا يعني المقدرة على الحفظ أي اختزان المعلومات ثم استرجاعها عن طريق تخيلها ومعرفة دلالاتها واستيعاب معانيها .

كما يقول سبحانه :

« الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علّمه البيان » (الرحمن 1 ـ 4) .

« الذي علّم بالقلم * علّم الإنسان ما لم يعلم » (العلق 4 ـ 5) .

وتعني تلك الآيات مقدرة الإنسان الآدمي (إذ أن آدم أول من تعلم الكلمات) على إعطاء المفردات الصوتية رموزا مصورة وبالتالي إعطاء الكلمات أشكال مترابطة يمكن بواسطتها تلقي المعلومات وتبادلها ليس فقط عن طريق الاستماع بالأذن بل أيضا عن طريق رؤيتها مسطورة بالعين .

كما يقول عزّ شأنه :

« ونفس وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها » (الشمس 7 ـ 8) .

إن تسوية النفس في هذا القول الكريم بإلهامها الفجور والتقوى هو اعطاؤهــا القدرةعلى التميز بين الخير والشرّ ، هو اكتمال العقــل والوصول به إلى مقدرة الدقّــة في وزن الأمور.

وأخيرا وليس آخرا يقول الحق سبحـانه عـن خلق البشر « فإذا سويتـه ونفخـت فيه من روحـي » ويعني ذلك أنه عند تمام سواء ذلك البشر سينفخ الله فيه من روحه.

فما هي روح الله جلّ وعـلا ؟

سبحانك ربّي إننا لا نعلم ما هي الروح ألتي نمتلكهـا نحن البشر حتّى نجرأ أن نتكلّم عن روح الله عزّ شأنه وتعالى عن العالمـين .. ولكنني أقول إن روح الله في الإنسان ربما يكون من مظاهرها ما يملكه من ضمير. إن الإنسان الآدمي رغم اختلاف دينه وعقيدته بل حتّى من لا يمتلك دينا ومن لا يدين بعقيدة .. ذلك الإنسان مهما كانت جنسيتـه أو نشأته إنما يخشَى في داخله شيئا ما ـ الضمير ـ هذا الضمـير ينهاه أو على الأقلّ يحاول أن يمنعه عن سيء الأعمـال على اختلاف أنواعها ودرجاتها حتّى ولو توفّرت لديه فرصة أدائها دون رقيـب أو حسـيب .. كما يقوم الضمير بتأنيب صاحبه على أخطائه وبالتالي يحثّه دائما على اتباع الطريق السويّ مع النفس والغير.

أليس الضمير إذن هو نوع من رقابـة الله على الإنسان والإيحاء إليــه بالهدايـة وباتّخاذ طريق الخير وتجنّب طريق الشرّ.

فهل امتلك النياندرتاليـون ضمائر؟ هل نفخ الله فيهم من روحه ؟؟ إن عظام ذلك الإنسان وجماجمه لا يمكنها أن تجيبنا على هذا السؤال. لقد عثر على تلك العظام والجماجـم في ألمانيا وفرنسـا وأسبانيـا وبعد ذلك في فلسطـين وفي شمال أفريقيا .. ويقول العلماء إن ذلك الإنسان كان يعيش في الكهوف وأنه قد استخدم النار.

لقد عاش النياندرتال منذ حوالي مائتي ألف عام وانتهى وجوده منذ حوالي ثلاثين ألف عام . . وقد سبق أن ذكرنا أنه قد عثر على حفائر تحمل صفات مختلطة بينه وبين الكروماجنــون في جبل الكرمــل في فلسطين . كما يقول العلماء إن الكروماجنــون (الذين لا يُشك في أنهم كانوا بشرا) لم تبـدأ نشأتهم في أوروبا ولكنهم نشأوا في أفريقيا وفي آسيا الصغرى والحواف الخارجية لآسيا ثم انتشروا في باقي أنحاء العالم .

لا زال السؤال قائما ...

يقول العلماء إن النياندرتــال كان إنسانا عاقلا كما يضيفون أنه أول إنسان قد قام بدفن موتاه .. وقد جــاء في الذكر الحكــيم أن قابيــل ابن آدم أول من تعلّم دفن الموتَى بمواراة ســوأة أخيه فهل كان آدم من النياندرتــال ؟

إن العلماء يقيسون تطوّر الإنسان بحجم المخّ ويقول الخالق الواحد إن آدم كان بشرا . كان بادي البشرة . فعلاوة على حجم المخ لا بدّ للعلمــاء أن يتـوصـلـوا إلى إجـابة عن هذا السؤال ـمتَى فقد الإنسان في طريق تطوّره الشعــر الذي كان يغطّي جســد أسلافه ؟؟ .

عند التوصّل لذلك ربّما أمكننا معرفة أين يقع آدم ومتَى بدأ وجودنا نحن الآدميين .

ولا يفوتني أن أذكــر أن إنسان النياندرتــال قد أطلق عليه بعض العلماء اسم إنسان النياندرتــال العاقل Homo sapiens neandertalensis أمّا إنسان الكروماجنــون فقد سمّي بالإنسان كامل العقل Homo sapiens sapiens .

أنـا .. والشجـرة المحـرّمـة

سكـن آدم وزوجه الجنة وأحل الله سبحانه لهما أن يأكلا منها رغدا فيما عدا شجرة معينة حذرهما من الأكل منها.

« وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنـة وكـلا منـها رغـدا حيث شئتما ولا تقربـا هذه الشـجرة فتكونـا من الظالميـن » (البقـرة 35).

« ويا آدم اسكـن أنت وزوجك الجنة فكـلا من حيـث شئتمـا ولا تقربـا هذه الشجـرة فتكونـا من الظالميـن » (الأعـراف 19).

ولكن آدم وحواء لم يمتثلا لأمر ربهما إذ كان الشيطان لهما بالمرصاد :

« فوسـوس لهما الشيطـان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوآتهما وقال ما نهاكمـا ربكما عن هذه الشجـرة إلّا أن تكونـا ملكين أو تكونـا مُن الخالديـن * وقاسمهما إني لكما من الناصحين * فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » (الأعـراف 20 ـ 22).

« فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلَى * فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة » (طـه 120 ـ 121).

« يابني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون * يابني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم» (الأعراف 26 ـ 27)..

درج المفسرون على القول بأن الله سبحانه وتعالى قد نهى آدم وزوجه ليس فقط عن الأكل من الشجرة بل حذرهما حتّى من الاقتراب منها .. وفي رأيي أن هذا التفسير يعتبر تمسكا بحرفية الألفاظ دون مراميها .. فهل كانت الشجرة في مكان منعزل بحيث إذا قربا من أشجار أخرى لا يكونان في نفس الوقت على مقربة من الشجرة المحرمة .. وما هو مدى الاقتراب المحرم عليهما .. هل هو بالذراع أو بالمتر أو بالقدم ـ إذا كانت تلك القياسات معروفة لآدم وحواء . وهل لو كان آدم وحواء قد اقتربا من الشجرة دون أن يتذوقاها أو يأكلا منها يكونان قد عصيا أمر ربهما ؟؟

ربما كان العكس هو الأصح وربما كانا يثابان على ذلك لتغلبهما على نوازع النفس وعلى وسوسة الشيطان ... أرى أن الله سبحانه وتعالى لم يقصد أن مجرد الاقتراب من الشجرة يوقع آدم وحواء في الإثم .. كما يقول البعض بل أن القصد هو زيادة في التحذير من الأكل من الشجرة .. وقوله سبحانه لا تقربا هذه الشجرة كقوله عز شأنه لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى ـ بمعنى لا تؤدوا الصلاة وأنتم سكارى .

فما هي يا ترى تلك الشجرة التي حرم الأكل منها على آدم وحواء .

يقول عبد الكريم الخطيب (قصتا آدم ويوسف عليهما السلام) « ومع هذا فإن المفسرين والقصاص قد ذهبوا في الحديث عن نوع الشجرة كل مذهب مستندين في هذا إلى روايات معزوة إلى بعض الصحابة والتابعين :

فهي السنبلة فيما يروى عن ابن عباس ، وهي الكرمة عن ابن مسعود ، والسدي وهي التينة عن ابن جريج ، وهي شجرة الكافور عن علي ابن

أبي طالب ، وهي شجرة العلم (علم الخير والشر) عن الكلبي ، وهي شجرة الخلد التي كانت تأكل منها الملائكة عن ابن جذعان ...

وبعيد أن يكون لهذه المقولات سند صحيح من كتاب أو سنة وإلا لما كان بينها هذا الاختلاف البعيد الذي لا يمكن الجمع فيه بين مقولة وأخرى .. فلنحاول أن نفهم الشجرة على أنها مجرد شجرة ليس لها صفة خاصة تمتاز بها عن الأشجار التي معها إلا في تحديد ذاتها بالإشارة إليها » .

وفي تفسير العلامة أبو السعود « وإنما علق النهي بالقرب منها مبالغة في تحريم الأكل ووجوب الاجتناب عنه والمراد بها الحنطة أو العنبة أو التينة وقيل هي شجرة من أكل منها أحدث[1] والأولى عدم تعيينها من غير قاطع » .

وعلى هذا نرى أن أغلب المفسرين ينحون نحو اعتبارها شجرة ما من أشجار الجنة قد أمر الله آدم وحواء بعدم الأكل منها وكفى . ولكننا نعود ونتساءل هل كانت جنةآدم وحواء جنة السماء .

لقد سبق الحديث عن ذلك في فصل سابق وقد خلصت فيه إلى أن بعض المفسرين يرون أن تلك الجنة كانت في الأرض.. قال عنها عبد الكريم الخطيب .. إنها كانت في بلاد اليمن ، كما قال عنها فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي إنها مكان في الأرض فيه كل متطلبات الحياة . ولنا الآن أن نتساءل إذا قبلنا القول بأن جنة آدم وحواء لم تكن جنة سماء وأن الله سبحانه قد حرم عليهما شجرة معينة تنبت في الأرض التي نعيش فيها .. أليس الجدير بنا بل الواجب علينا أن نبحث لمعرفة ما هي تلك الشجرة ، إذ أن ما حرم على أبوينا لا شك أنه محرم علينا . وإذا كان الله سبحانه لم

---

(1) أحدث أي أخرج غازا من الدّبر.

يشأ أن يذكر اسم تلك الشجرة فربما كان ذلك من قبيل تلطفه مع من أخطأ طالما قبل توبته وغفر ذنبه .

ولما كانت تلك الشجرة مما ينبت في الأرض أفلا يمكننا أن نعمل الفكر قادحين زناده وأن نجيل النظر فيما حولنا من طبائع الأشجار ومن طبائع البشر علنا نهتدي لمعرفتها مسترشدين بما حدث لآدم وحواء بعدما أكلا من تلك الشجرة .

لقد جاء بكتاب الله المجيد أن آدم وحواء بعد أن تذوقا الشجرة وأكلا منها بدت لهما سوءاتها وفي ذلك المجال يقول فضيلة الامام الأكبر محمود شلتوت (تفسير القرآن الكريم ـ الأجزاء العشرة الأولَى) « وأولاد آدم من آدم ... وإبليس الذي ابتلَى الله به أباهم فنشأ على عداوته يغريه ويوسوس له ـ قد ابتلاهم به أيضا فأضمر لهم العداوة وأعد نفسه لأن يصنع معهم ما صنع مع أبيهم يكشف لهم عن عورات وسوءات كما كشف لأبيهم عن عورات وسوءات... امتن (الله) عليهم في أول هذه النداءات بأن هيأ لهم سبيل الحصول على الملبس الذي يسترون به عورتهم ويريشون به أنفسهم في مناسبات التجميل . هيأ لهم مادته من القطن والصوف والحرير وما إليها وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وطرق صناعتها بالغزل والنسيج والحياطة ولفت أنظارهم إلى أن تقوى الله في الانتفاع بتلك النعمة والوقوف بها عند الحد الذي رسم، هو أساس الرضا وأساس الشكر.. وهو الذي يحفظ السوءات من أن تظهر أو ترى ، وهو الذي يجمل الحسي والنفسي :

« يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون »

وإذا كان للقرآن دلالاته الصريحة التي تدل عليها كلماته بمقتضى اللغة العربية فإن له بعد تلك الدلالة إيماءات جدير بالناظرين فيه وبالمعرفين على نواحيه أن

يتنبهوا اليها وأن يسيروا في طريق معرفتها والانتفاع بها وهذه آية اللباس وإنزال مادته وتمكين الناس منها تحدث عن اللباس المواري للسوأة وعن الرياش وعن لباس التقوى وهي بعد توحي بأن ستّر العورة وزينة التجمل من أهداف الحكمة الإلهَية في تمكين الناس من مادة اللباس وصناعته ومن طلب التقوى ومراعاة حق الله » .

ويقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (آدم أبو البشر بين المعصية والرسالة) : « وقول الحق في قضية آدم والشيطان : (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما) يدل على أن سوءات في المجتمع لا تتكشف إلا اذا حصل عنصر المخالفة ... آدم وزوجته يأكلان في الجنة يأكلان بقدر الله . يقول له الله كل من هذا ولا تأكل من هذا . وما دامت المسألة رمزية تكليف وعملية تدريب في الحياة يقول الله لنا كلوا ما شئتم من الجنة ولن تكون لكم فضلات . كيف نأكل بدون فضلات ؟ لأنك هناك شيئا باختيار المسبب وأنت هنا تأكل باختيارك ... في الجنة يعطيك الله كل ما تشتهي . طاهيك من ؟ طاهيك الله فيقدر أن يعطيك الطهي والتنعم واللذة والقوة لكن لا يعطيك الفضلات . لأن معنى الفضلات في الأكل أنك أدخلت أشياء ليست ضرورية في الوقود . وهكذا آدم وزوجته لما كانا يأكلان بأمر الله من هذا ولا يأكلان من هذا لم تكن هناك فضلات فلما ذاقا الشجرة عملت وسائل الاختمار ودخل اختيارهما في العملية ووصلت إلى أن يكون هناك فضلات .. ما الفرق بين مخرجين هما القبل والدبر وبين الأنف والفم هاتان فتحتان وهاتان فتحتان فلماذا القبل والدبر عورة والأنف والفم ليستا عورة . لأنهما يخرج منهما المستقذرات كلها . إذن فكونهما عورة إنما جاء من المستقذرات لا من كونهما فتحات . من كونهما يخرج منهما ما تستقذره النفس . في الجنة كانا يأكلان بمواصفات الحق وعند الأكل من الشجرة أكلا بمواصفات نفسيهما فأعطيا نفسهما أكثر من

طاقتها فحصل اختمار ؟ وكانت للقذارة رمزية تدلك على أنك ما دمت متخذا منهج الله وقاية لك فلن تبدو لك عورة لا رمزية ولا معنوية أما اذا بدت لك عورة فاعلم أن منهجا من مناهج الله قد عطل » .

ولنا وقفة طويلة مع فضيلة الشيخ الشعراوي في هذا الحديث الأخير :

يقول فضيلته إن القبل والدبر عورة بعكس الفم والأنف .. وقد جاء ذلك لا لكونهما فتحات بل من كونهما يخرج منهما ما تستقذره النفس ولنا أن نتساءل إذن إذا كان فضيلته يحدد أن سبب كونهما عورة هو خروج المستقذرات . ألا يوجد بثديي المرأة فتحتان لا تخرج منهما المستقذرات . ألا تعتبر هاتان الفتحتان رغم ذلك بل ألا يعتبر صدر المرأة جميعه عورة .. بل ألا يعتبر شعرها وعنقها وذراعاها وساقاها وباقي أجزاء جسمها عورة .

« يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنَى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما » (الأحزاب 59) .

فهل تخرج المستقذرات من تلك الأجزاء والأعضاء ؟ ! !

ويقول فضيلته إن آدم وحواء في الجنة كانا يأكلان بمواصفات الحق وعند الأكل من الشجرة أكلا بمواصفات نفسيهما أكثر من طاقتهما فحصل اختمار أدى في النهاية أن بدت عوراتهما .. ويشوب هذا القول تعارض في تفسير فضيلته حيث أنه سبق أن قرر في نفس الحديث أن آدم وحواء لم يكونا في جنة سماء بل كانا في مكان ما في الأرض تتوفر به متطلبات الحياة ، وعلى هذا الأساس ينطبق عليهما قوانين الأرض فسواء أكلا أكثر من طاقتهما أو أقل من طاقتهما فلا بد لهذا الغذاء (الوقود) من أن يتحول في الجسم إلى مواد أخرى ولا بد من أن ينتج عن هذا التحول ما يسميه فضيلته بالمستقذرات أي أن تلك المستقذرات لا بد من تكوينها ومن التخلص منها فالقول بأنهما أكلا أكثر من طاقتهما فحدثت

المستقذرات. يرد عليه بأن تلك المستقذرات حادثة لا محالة طالما أنهما في الأرض وطالما يأكلان من الشجرة أو من غيرها أي بصرف النظر عن نوع وكمية ما يأكلان.

أما قول فضيلته بأنه في الجنة سوف نأكل بدون فضلات لأن طاهينا هو الله فلا تعليق لي على ذلك لعدم معرفتي بقوانين الحياة في الجنة ولكني فقط أتساءل إذا لم يكن هناك فضلات ولا مستقذرات تخرج من القبل والدبر وأنهما سيصبحان فتحتان شأنهما شأن الأنف والفم وبذلك لا يكونان عورة حسب تفسير فضيلته فهل يا ترى سنقوم باظهارهما دون خجل؟.

أقول إن تفسير فضيلته عن أكل آدم وحواء من الشجرة وظهور عوراتهما غير مقنع على الأقل بالنسبة لي. وأقول إنه لكي نعرف تلك الشجرة يجب أن نتدارس القصة بجميع تفاصيلها:

عندما أكل آدم وحواء من الشجرة بدت لهما سوءاتهما في حين أن الله سبحانه وتعالى قد أنزل علينا جميعا نحن وأبوينا لباسا وريشا يواري تلك السوءات. فما هي تلك السوءات هل هي عوراتنا التي نحرص نحن البشر على إخفائها لأنها من أخص خصائصنا (لا لكونها تخرج منها المستقذرات)؟

الإجابة نعم. ولكنها بعض من السوءات وليست جميعها.. ولإيضاح ذلك أقول أليس افتضاح كذبنا وخيانتنا أو حصولنا على شيء بالسرقة أو بغير حق أو الكشف عن علاقة غير مشروعة لنا أو نحو ذلك هو تعرية لنا وإظهار لسوءاتنا. إذن فما هو اللباس وما هو الريش الذي يوارى تلك السوءات.

للوصول إلى إجابة عن ذلك.. يجب أن نبحث عما يفرقنا نحن البشر عن غيرنا من الحيوان، إننا كثيرا ما نسير في الطريق فنرى حمارا ذكرا يبعث منظره على الضحك أو على الابتسام أو على الأقل إلى إشاحة البصر. وكثيرا ما نرى في حديقة الحيوان ذكورا من الحيوانات تأتي بأعمال نابية أو ذكورا

وإناثا في أوضاع غير لائقة . فهل تلك الأعمال تسيء إلى أصحابها من الحيوان . الإجابة طبعا لا . لأنها لا تعقل أن أعمالا كهذه تسيء إليها بعكس الإنسان العاقل ولا بد أن أؤكد على صفة العاقل. والدليل على ذلك ما نجده والعياذ بالله في مستشفيات « المجاذيب » إذا قام أحدنا بزيارة إلى هناك فسوف يرى من تلك الأعمال ما يثير الشفقة على فاعليها رغم ارتدائهم للملابس (الرياش أو الريش) أو حوزتهم لها فقد يقومون بإظهار عوراتهم أو يأتون بأعمال شائنة . فهل تعتبر تلك الأفعال أو الأقوال سوءات بالنسبة لهؤلاء الأشخاص. سوف لا نختلف جميعا في الإجابة لأن هؤلاء الأشخاص قد فقدوا عقولهم .

ألا ترى أن المولى سبحانه وتعالى حين يقول إنه أنزل علينا لباسا يوارى سوءاتنا انما يعني أنه أنزل علينا لباس العقل الذي كرمنا به سبحانه عن غيرنا من الحيوان .

يقول العلماء إن مخ الغوريلا أو الشمبانزي يمتاز بكبر حجمه عن باقي القردة وتلك عن باقي الحيوانات ولكن مخ الإنسان يمتاز بغلافه الخارجي (اللباس) المسمّى Cortex وإن هذا الغطاء في الإنسان الحالي أكبر أي أكثر سمكا منه في الأناسيّ السابقة ولذلك كانت جبهتنا أعلى أي أكثر ارتفاعا من جبهة إنسان بكين أو إنسان جاوه على سبيل المثال . من ذلك نرى أنه علاوة على اللباس المادي من القطن أو الصوف الذي يتحدث عنه فضيلة الشيخ محمود شلتوت فنحن نمتلك لباسا أهم بكثير هو لباس العقل الذي بواسطته نعمل الإرادة ونواري سوءاتنا سواء منها العضوية أو المعنوية وفي ذلك يقول المولى جل شأنه :

« ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » (الأعراف 26)

وفي هذا يعني سبحانه ألا نستعمل ذلك اللباس في غير ما خصص له ألا

نستعمله في كذب أو خيانة أو خداع أو ما إلى ذلك . لأنه إذا كان في مقدورنا أن نخدع غيرنا من البشر بلباسنا فليس بمقدورنا أن نخدع الله عز وجل لأن الله عليم بذات الصدور . فإذا نزع عن الإنسان لباس العقل فإنه حتّى لو امتلك أفخر الرياش من الصوف أو الحرير أو القطن ومهما أجاد طرق استنباتّها وطرق صناعتّها بالغزل والنسيج والخياطة (التّي ألهمنا الله إياها كما يقول فضيلة الشيخ محمود شلتوت) لأصبح كالحمار لا يمكن لذكره أن يكبح هياجه الجنسي ولا لأنثاه أن تخفي شبقها .. كما لا يمكن لأي منهما أن يخفي سوأة له .. إذ لا عقل له ، وبعبارة أخرى إذا نزع عن الانسان لباسه افتضح أمره وانهتك ستره حيث لا سيطرة حينئذ لعقل على غريزة .

يمكننا أن نعود بفهم إلى آدم وحواء وما حدث لهما .. لقد أغواهما الشيطان بأن يأكلا من الشجرة التّي حذرهما المولى بشدة من تذوقها وإلا ظلما نفسيهما فماذا كانت النتيجة .

نزع الشيطان عنهما لباسهما .. عطل عقليهما فأتيا من الأعمال ما أخجلهما[1] [2] من نفسيهما حتّى راحا يخصفان على سوءاتهما من ورق الجنة عندما عاد إليهما العقل بانتهاء المفعول .

هل يمكننا الآن أن نحزر ما نوع تلك الشجرة المحرمة شجرة الخلد كما سماها إبليس اللعين . وهل تتفق معي على أن الله سبحانه حينما حرم تلك

---

(1) يعتقد بعض المفكرين أن الشجرة المحرمة ترمز إلى الاتصال الجنسي بين الذكر والأنثى . وأقول إن ذلك الأتصال بين الزوج وزوجه غير محرّم بل هو الطريق الذي يبدىء به الله سبحانه الخلـق ثم يعيده . وحـواء هي زوج آدم . ولكن من المؤكد أن ذلك العمل أو ما يشبهه إن لم يكن في الخفاء فإنه يسيء إساءة بالغة إلى فاعليه . انه مظهر لسوءاتهـم .

(2) يقول الإمام الشيخ محمد عبـده (تفسير المنار) « ولعلّ في خاصية تلك الشجـرة ما هو سبب خروجها من حال إلى حال وربما كان في الأكل منها ضرر» .

الشجرة لم يحرمها آمرا ناهيا فقط وبغير أسباب كما يحلو للبعض أن يقول لا أسباب عند الله . لقد حرمها المولى سبحانه لأنه يحل لنا الطيبات ويحرم الخبائث :

« يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » (الأعراف 157) .

وتلك شجرة خبيثة حتّى أن حكومات كثيرة في العالم الآن تحرم زراعتها كما أن بعض الدول التي تسمح بذلك فإنما يكون بإذن من حكوماتها تحت اشراف دقيق منها وذلك لاستخدام منتجاتها بكميات ضئيلة تحت النظر الطبي الدقيق المستمر في إجراء العمليات الجراحية أي تحت إشراف ما نسميهم أطباء التخدير.

لقد لجأت الحكومات إلى ذلك الإجراء بعد أن رأت ما عانته شعوب كثيرة وما جرى لأهليها من كوارث مادية وخلقية من تفشي تلك المنتجات وادمان مستعمليها ولا يخفى علينا أن بعضا من دول الاستعمار كان يعمل لترويج منتجات تلك الشجرة في مستعمراتها للقضاء الحسي والمعنوي والخلقي والمادي على شعوبها . تلك الشجرة هي شجرة الخشخاش (أبو النوم) أو إحدى أقربائها .

رب قائل يقول أن ما ذكرت هو ضرب من الاستنتاج لا يستند إلى دليل . فأقول يقول علماء النبات عن شجرة الخشخاش Papaver somniferum إنها من العشبيات موطنها الأصلي منطقة غرب آسيا وتزرع حاليا في تركيا وإيران ودول البلقان والهند والصين .. وهي شجرة ذات أزهار كبيرة جذابة يختلف لونها من الأبيض إلى البنفسجي حسب أصنافها ، يستخرج من ثمرتها مادة الأفيون وهذه المادة تتركب من عدد كبير من القلويدات Alkaloids أشدها خطرا هو المورفين وهو إذ يسبب راحة نفسية وشعورا بالسعادة في البداية وبجرعات ضئيلة إلا أن خطورته

الشديدة في بعثه على الإدمان وهو يؤثر على الجهاز العصبي المركزي وعلى مراكز الإحساس في غلاف المخ Cortex فيبعث على النوم وعلى التخدير ويؤثر على الجهاز التنفسي مسببا هبوطا في التنفس ثم يؤدي إلى الشلل التام في استقبال المؤثرات الخارجية وإلى غيبوبة كما يؤدي إلى توقف الحركة المعوية وبالتالي إلى الإمساك الشديد ... ولعل ما نعلمه جميعا عن حالات الادمان وما نشاهده في الطبيعة أو في الأفلام السينمائية أوما نقرؤه في الصحف أو ما نسمعه من الأطباء ما يفوق كل تصور فالمدمن لهذه السموم ينتهي به الأمر إلى الانهيار التام اجتماعيا وخلقيا وماديا وعقليا والعياذ بالله. لقد عرف إبليس اللعين خصائص تلك الشجرة وأنها تجلب السعادة « والسلطنة » في مبدأ تذوقها ولذلك قال لآدم وحواء أنها شجرة الخلد وملك لا يبلى وقال لهما المولى سبحانه لا تقرباها وإلا ظلمتما نفسيكما. ولعل منبت الشجرة في منطقة غرب آسيا وما جاء في التوراة عن منشأ آدم في عدن دليل آخر على صحة الاستنتاج.

جاء في الفصل الثاني من سفر التكوين في التوراة ما يلي :

« إن الله خلق آدم ترابا من الأرض ونفخ في أنفه الحياة فصار آدم نفسا ناطقا وغرس الله جنانا في عدن شرقا وصير هناك آدم الذي خلقه وأنبت الله من الأرض كل شجرة حسن منظرها وطيب أكلها .. وجعل نهرا يخرج من عدن ليسقي الجنان ومن ثم يفترق فيصير أربعة أنهر أحدها النيل وهو المحيط بجميع بلد زويله واسم النهر الثاني جيجون وهو المحيط بجميع بلد الحبشة واسم النهر الثالث دجلة وهو يسير شرق الموصل واسم النهر الرابع الفرات.

فأخذ الله آدم وأنزله في جنان عدن ليفلحها ويحفظها ... ».

ويقول عبد الكريم الخطيب « هذا ما نجده في التوراة من قصة خلق آدم وأنه سكن جنة كانت بعدن من أرض اليمن . وهذا ما أدخل الشبهة

على الذين قالوا إن آدم كان في جنة عدن وهي جنة سماوية ذكرها الله تعالى في قوله

« جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتيا »

والحق أن جنة عدن هي تلك الجنة الأرضية في بلاد اليمن . وإذا كان ما ذكرته التوراة من أسماء الأنهار ومواقعها الآن يخالف واقع اليوم فإن هذا الذي ذكر في التوراة كان من مئات الآلاف من السنين الماضية فلا يبعد والحال كذلك أن تتغير معالم الموجودات الطبيعية على الأرض » .

ولا يفوتنا أيضا ما جاء في الكتاب المقدس .. جاء في سفر التكوين ، الإصحاح الثاني : « وأخذ الرب الإله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها وأوصى الرب الإله آدم قائلا من جميع شجر الجنة تأكل وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها لأنك يوم تأكل منها موتا تموت »

كما جاء في سفر التكوين الإصحاح الثالث : « وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الاله فقالت للمرأة أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا فقالت الحية للمرأة لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا فأكل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر .

مما جاء في الكتاب المقدس نرى أن الله سبحانه حذر آدم وحواء من الأكل من الشجرة لكي لا يموتا ... ألا يعتبر فقدان الوعي نتيجة للتخدير نوعا من الموت ...

ألا يقول الله سبحـــــانه :

« وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار » (الأنعام 60)
فإذا كان النوم بالليل نوعا من الموت أفلا يكون فقدان الوعي أولى باعتباره موتا بل أن زيادة الجرعة من هذه الشجرة كفيل بأن يؤدي إلى الموت الفعلي ـ ورب قائل يقول وكيف تؤكد أن آدم وحواء قد غابا عن الوعي بعد أن أكلا من الشجرة فأقول إن ما جاء بالكتاب المقدس بالقول فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان دليل على أنهما غابا عن الوعي ثم أفاقا ووجدا نفسيهما عريانين لأنهما لوكانا عريانين قبل الأكل من الشجرة لما قيل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان .

وأخيرا قد يكون لما لهذه الشجرة من أزهار جميلة جذابة تأييد آخر لما أستنتج.إذ قد جاء أيضا في الكتاب المقدس أن الشجرة بهجة للعيون شهية للنظر ـ كما يبدو أنه لما ذكر عن الشجرة أن من أكل منها أحدث نصيب من الصحة لإذا ما عرف عن الأفيون أنه يسبب امساكا شديدا .

لقد طالما ساءلت نفسي إذا كنا نعلم عن تناول المخدرات تلك الأضرار الشديدة التي لا نبالغ إذا قلنا إنها أضرار مدمرة فلماذا لم نجد شيئا عن تحريمها في كتاب الله الكريم[1] . وأخيرا أرى أنني قد حصلت على الإجابة :

« وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين »

صدق الله العظيم

(1) ذكرت الخمر في القرآن الكريم في أكثر من موقع رغم أنها أقلّ ضرراً .

أنا مـــاء دافق يخرج من بين الصلب والترائب

« فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والتّرائب * إنه على رجعه لقادر * يوم تبلَى السرائر» (الطارق 5 ـ 9) .

جاء في تفسير الجلالين خلق من ماء دافق ذي اندفاق من الرجل والمرأة في رحمها يخرج من بين الصلب للرجل والتّرائب للمرأة وهي عظام الصدر وقيل التّرائب التّراقي وهي عظام الحلق وقيل أضلاع الرجل التّي أسفل الصدر وحكَى عن الزجاج أن التّرائب أربعة أضلاع من يمنة الصدر وأربعة أضلاع من يسرة الصدر » .

وفي التفسير الواضح (محمد محمود حجازي) خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والتّرائب ماء مصبوب يخرج من بين صلب الرجل وترائب المرأة . يوم تبلَى السرائر والمراد تظهر السرائر وتعلم المكنونات.

وفي معجم الألفاظ والأعلام القرآنية : صلب الرجل = ظهره والجمع أصلاب ، التّرائب = جمع تريبة وهي عظام الصدر وموضع القلادة .

وفي تفسير سيد قطب (في ظلال القرآن) بين الصلب والتّرائب ماء المرأة من التّرائب وهي عظام صدرها العلوية .

ويقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (تفسير سورة البروج والطارق) « هذه حقيقة القرآن تعرض لها قبل العلم الحديث ما يكشف

هذه الحكاية . إن ماء الصلب وماء الترائب الصلب الظهر فقار الظهر .
والترائب التي هي عظام الصدر في المرأة أو موضع القلادة منها .. العلم
انتهى إلينا أيضا إلى هذه الحقيقة .. مم خلق ...خلق من ماء دافق ـ كلمة
من ماء دافق هذه أسندت الدفق للماء مما يدل على أنه ليس مدفوقا بإرادتك
لأن العملية لو أن الإنسان لاحظها يجد أنه يغلب على هذه المسألة بحيث
لا خيار له في أن لا يدفق منه الماء فكأن الدفق خاصة موجودة في الماء ذاته
وينزل بشدة وقوة بحيث لو أراد الإنسان بإرادته أن يمنعه ما استطاع ولذلك لم
يقل مدفوق. مدفوق يبقى الفعل يضيع لكن ماء دافق يدل على أن
الخصوصية فيه حين ينضج الرجل ويصل إلى القمة الجنسية يغلبه ذلك الماء
بحيث لا يستطيع مطلقا أن يمنعه . يبقى إذن نسبة الدفق إلى الماء هذه
تعطينا أنه خرج عن إرادتك هو له أن يعمل الوسائل التي لا تؤدي لكن إذا
صنع الوسائل التي تؤديه يبقى لا قدرة له عليه أبدا . هذه من ماء
دافق ......

قول الحق سبحانه وتعالى من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب
أوهم كثيرا من الباحثين أن ماء الرجل الذي نسميه من مني يمني وماء
المرأة . يظنون أن ماء المرأة هو الماء الذي يأتي عقب العملية الجنسية ..
نقول لا .. ماء المرأة في العملية الجنسية لا دخل له في التكوين الإنساني
فإن المرأة تفرز البويضة سواء تعرضت لعملية جنسية أو لم تتعرض
والبويضة لها وقت تنزل فيه فإن صادفت وجود ماء الرجل تنتهي
المسألة ... إذن فالماء المراد بالماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب هو
الماء الذي ينتج في العملية الجنسية من الرجل ، ولكنه بالنسبة للمرأة ليس
الماء الذي يأتي من العملية الجنسية وإنما هو الماء الذي في البويضة نفسها
سواء تعرضت لعملية جنسية أو لم تتعرض »

وليسمح لي فضيلة الشيخ في مخالفته (ومخالفة غيره من المفسرين) في

القول بأن الماء الدافق هو ماء الرجل أي هو المني .. يدلل فضيلته على صحة ما يقول بأن ذلك الماء دافق وليس مدفوقا ، إذ أن الدافق هو الذي ينزل بالشدة والقوة بحيث لو أراد الإنسان أن يمنعه بإرادته ما استطاع وهنا بيت القصيد لأن ذلك الماء يخضع أولا لإرادة الرجل هل لديه رغبة للقيام بالعملية الجنسية أو ليست لديه وحتّى إذا أخذنا بقول فضيلته بأن عدم القيام بها لا تنفي صفة أنه ماء دافق أقول إن من الناس من يمكنه التحكم وعدم الإنزال إلا بالإرادة بل يمكن عدم الإنزال إطلاقا في كثير من المرات . ربما يقول البعض إن هؤلاء قلة ولكن هذه القلة طالما وجدت فهي تنفي صفة التدفق بغير إرداة ـ من ذلك يمكننا أن نعتبر أن المني ماء مدفوق وليس ماءا دافقا . وعلاوة على ذلك فقد وصفت النطفة في كتاب الله الكريم بأنها من ماء مهين أي ماء ضعيف :

« ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين » (المرسلات 20 ، 21)

« وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين »(السجدة 7 ، 8)

وربما يكون في اعتبار الماء المهين أنه هو نفسه الماء الدافق ظل من التعارض. أما قول فضيلة الشيخ الشعراوي بأن البويضة في المرأة لها وقت تنزل فيه فإن صادفت ماء الرجل يحدث الحمل فنوافق فضيلته على ما يقول .. ولكن هل البويضة في المرأة تنشأ في صدرها ومن بين ضلوعها .. سؤال غني عن الإجابة إذ أن مبيضي المرأة بعيدان كل البعد عن صدرها وموضع قلادتها .

لذلك أرى أن التفسير بأن الماء الدافق هو ماء الرجل يخرج من بين الصلب وأن ماء المرأة يخرج من بين ترائبها تفسير يجافي الحقيقة ... إن التفسير الصحيح في رأيي لا بد أن ينطبق على كل من الرجل والمرأة في

نفس الوقت لا بد أن يكون هذا الماء خارجا من بين صلب الرجل وترائبه كما يخرج من بين صلب المرأة وترائبها سواء بسواء.

يقول بعض المفسرين الذين يؤيدون أن الماء الدافق هو ماء الرجل وماء المرأة إن الخصيتين والمبيضين يكون منشؤها في الجنين في منطقة بين الصلب والتّرائب في الذكر والأنثَى ولكنني أرى أن قوله سبحانه :

« مـــاء دافق يَخرج من بين الصلب والتّرائب »

تشير إلى أن تدفق الماء يكون في فترة خروجه ولا يصح إرجاعه إلى الخصيتين والمبيضين عندما كان الإنسان جنينا.

إنني أرى أن الماء الدافق هو تيار الدم ذلك التيار المتدفق بغير إرادة إذا توقف عن تدفقه توقفت الحياة . وإذا استمر دافقا استمرت الحياة،ذلك التيار الذي يسري في أجسامنا في كل خلية من خلايانا ليقوم بكل وظائف الحياة دون ما سيطرة لنا عليه . جاريا لاهثا على الدوام إذا فقد بجرح نافذ قاطع أو نزيف غير منقطع غادرت الروح الجسد وانتقلت النفس إلى عالم الشهادة والغيب.

هل يخرج ذلك الماء من بين الصلب والتّرائب ؟

الإجابة نـــعم .. إذ أنه يخرج من القلب . تلك العضلة الصغيرة ذلك العضو الخطير النابض الذي يوجد في البشر جميعا سواء في الرجل أو في المرأة مستقرا بين عظام الظهر وضلوع الصدر بين الصلب والتّرائب يدفع الدم إلى جميع أجزاء الجسم ليعود ثانيا في دوران مستمر لا يبطىء ولا يهدأ ولا يتلكأ من بدء تكوين الإنسان جنينا في رحم أمه إلى أن يولد طفلا ثم إلى أن تحين الساعة التي هي أجله الموقوت . يعتمد الجنين في دروته على الأم إذ يتصل بها وهو في الرحم ثم يستقل بدورته لحظة أن يضاف إلى سجل الوافدين.

بالإضافة إلى ذلك .. يقول العلماء إن كريات الدم الحمراء والبيضاء

تتكون في نخاع العظام وعلى الأخص النخاع الأحمر إذ تبدأ نشأتها من خلايا توجد داخل ذلك النخاع وتعتبر فقار الظهر وضلوع الصدر (الصلب والترائب) المصدر الرئيسي للنخاع الأحمر وبالتالي للكريات التي تجري منضمة إلى تيار الدم إلى أن تموت فيتكون غيرها باستمرار .

يقـــــول المولى سبحانه :

« يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث » (الزمر 6) .

كما يقـــــول :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر » (المؤمنون 13 ـ 14)

ويقول أيضا :

« فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة » (الحــج 5) .

كيف إذن تم خلقي أنا الإنسان في بطن أمي ، في ظلمات ثلاث ، خلقا من بعد خلق من نطفة إلى علقة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة ثم خلقا آخر ، تم ذلك بواسطة تيار الدم من الماء الدافق دماء أمي رحمها الله ، وعندما قضيت من العمر أربعة أسابيع في أحشائها كان طولي ثلاثة ملليمترات ونصف وكان لي قلب يخفق (ربما بالحب لأخي التوأم المجاور).. كان هذا القلب من حجرتين اثنتين ثم أخذ يتشكل إلى أن وصل إلى شكله الحالي ـ ظلت دورة دمائي متصلة بأمي تسعة أشهر إلى أن أذن الله لها بالخلاص من هذا العبء الثقيل فخرجت معتمدا على نفسي وعلى العلي القدير الذي زودني بالماء الدافق من بين صلبي وترائبي .

كذلك يقول سبحانـــه :

« إنه على رجعه لقـــــادر »

فعلاوة على أن تلك الآية تحمل معنًى رجوع الإنسان من الموت إلى الحياة يوم الحساب فإنها تحمل أيضا معنًى رجوع الدم باستمرار من القلب وإليه .

يقول العلماء إن دورة الدم في الجسم تستغرق أقل من دقيقة واحدة يتدفق الدم خلالها في عروق طولها ستين ألفا من الأميال أي ما يقرب من مائة ألف من الكيلومترات أي أكثر من مائة ضعف المسافة من القاهرة إلى أسوان .... وصدق أصدق القائلين :

« سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتّى يتبين لهم أنه الحق » (فصلت 53) .

أنـــا .. مـــن ظهـــر أمـــي

مهلا أيها القارىء العزيز ... لا تتهمني بأنني أضع أمي في مصاف الرجال فقد كانت أمي رحمها الله أنثى شأنها شأن باقي النساء ... أنجبتني كما أنجبت سبعة أبناء آخرين منهم الذكور ومنهم الإناث ، كيف إذن أقول أنجبتنا من ظهرها وليس من بطنها .. أقول ولدتنا من بطنها ولكننا نشأنا من ظهرها . إن الخطأ الشائع أن يقال إن الولد من ظهر أبيه فقط ولا يعتبر أيضا من ظهر أمه بل يعتبر من بطنها فقط .

إن ما أقــول بأن الإبــن أو الإبنــة من ظهر أبويــهما معا وليس من ظــهر أبيــهما فــقط قول صحــيح لأنهما نشــآ من نطــفة من الأب تكــونت من الخصيتــين وهاتــين في الأصل في الجنــين تنشــآن على جانبي العمود الفقاري بالظهر ثم تنزلقان قبل اكتمال الجنين وولادته طفلا إلى ذلك الكيس المدلى خارج الجسم المسمّى بالصفن . غير أن نطفة الأب كما نعلم لا بد لها أن تمتزج بنطفة الأم لتكون نطفة أمشاجا تنمو لتكون جنينا .

فمن أين تنشأ نطفة الأم ... إنها تنشأ من أحد المبيضين بالتبادل وينشأ المبيضان أيضا في المرأة (عندما كانت جنينا في بطن أمها) على جانبي عمودها الفقاري كما نشأت الخصيتان بل ويظلان في موضعهما مدى الحياة بعكس الخصيتين اللتين تتدليان في الصفن .

ألا تتفق معي إذن بأننا نشأنا من ظهور أمهاتنا كما نشأنا من ظهور آبائنا . وفي ذلك يقول المولى سبحانه :

« وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم » (الأعراف 172) .

فانظر إلى دقة الأداء في كتاب الله العزيز الذي يقول « من بني آدم » الذين يشملون الذكور والإناث على حد سواء واسأله المغفرة للرجل الذي يحاول دائما أن يضع نفسه في كل ما يمس الخلق في موضوع أسمى من المرأة .

يا نساء العالمين إني أقف إلى جواركن في قضية خلقكن وفي نشأتكن ونشأة أبنائكن . فأمكن حواء لم تخلق من ضلع آدم كما يقول القائلون بل خلقت كما خلق آدم من إنسان سابق بالطريقة المعروفة التي خلقت بها مخولقات الله جميعها يوم بدأ التكاثر بالذكر والأنثى .

إن أبناءكن وبناتكن من أصلابكن من ظهوركـن كما هم من أصلاب أبائكم .. إن القول بأن أبناءكن وبناتكن من أصلاب آبائهم ومن ترائبكن قول يجافي الواقع فقد نشأوا من أصلابهم ومن أصلابكن على حد سواء .. ثم اعتمدواوهم أجنـة في بطونكن على ماء دافق من بين أصلابكن وترائبكن إلى أن أذن الله بخروجهم إلى هذا الوجود فاعتمدوا ساعتئذ على ماء دافق من بين أصلابهم وترائبهم هم أنفسهم . يانساء العالمين إنكن كالرجال سواء بسواء وإذا كان الله جلت حكمته يقول إن الرجال قوامون على النساء فليس ذلك إلا لكي تسير أمور الحياة في محيط الأسرة في سلاسة ويسر إذ لا بد للسفينة من ربان يقودها في حياة ذات موج متلاطم هادر وريح حتى لو استكن فهو بطبعه غادر .

((وما كنـت متخـذ المضليـن عضـدا))

«وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربّه أفتتخذونه وذريته أولياء مِن دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا * ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا * ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا » (الكهـف 50 ـ 52) .
صـدق أصـدق القائليـن .

في ذلك يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي (معجزة القرآن) : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » أي أنني في ساعة الخلق لم أطلب العون أو المساعدة أو المشورة أو النصيحة من هؤلاء المضلين ... وإلا لو كان حدث ذلك ثم جاءوكم يخبرونكم كيف تم خلق السموات والأرض ... وكيف خلقتم أنتم .... لكان لكم العذر في تصديقهم.... ولكن ما داموا لم يشهدوا الخلق . ولم أطلب معونتهم ... فإن ما سيقولونه لكم غير واقع .. غير صحيح .. إنه اضلال .. وهذه معجزة من معجزات القرآن .. فقد قال لنا الله .. إنه سيكون هناك مضلون وأن هؤلاء المضلين سيحاولون أن يقولوا لكم غير الحق في قضية خلق السماوات والأرض ... فلا تصدقوهم لأنني لم أستعن بهم ساعة الخلق ... ولم يكونوا موجودين ..إذن لو لم يحدث أن جاء أناس يضلون عن سبيل الله .. لقلنا إن القرآن غير صحيح ..

لأنه أين المضلون......؟ ولو وجد المضلون وتناولوا قضية أخرى غير خلق السماوات والأرض.. وخلق الإنسان لقلنا إن القرآن غير صحيح.. لأنه يوجد من يضل عن سبيل الله. ولكنه لا يتناول فيما يقوله قضية خلق السماوات والأرض.. ولا قضية خلق الإنسان..ولكن كون المضلين جاءوا وكونهم تحدثوا عن قضية خلق السماوات والأرض وخلق أنفسهم.. وهل المادة قبل الروح.. أم الروح قبل المادة.. وقانون الصدفة ونظرية داروين إلى آخر هذا الكلام. كون هؤلاء جاءوا.. وكونهم تناولوا قضية خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان فهذا إثبات لما جاء في القرآن عنهم ... وكأن هؤلاء المضلين الذين جاءوا ليصدوا عن سبيل الله.. إنما قدموا خدمة كبيرة للدعوة الإسلامية وللقرآن.. بأنهم أثبتوا بكفرهم صحة القرآن وصحة آياته.. أترى إعجازا أكثر من ذلك.. يستخدم الله الكفار الذين يضلون عن سبيله.. ويحاولون تكذيب القرآن..يستخدمهم الله سبحانه وتعالى ليقوموا وهم لا يدرون بإثبات صحة الدين الذين يحاولون أن يهدموه وبإثبات وجود الله سبحانه وتعالى وهم يريدون أن ينكروه.. فيقول في القرآن الذي نزل منذ أربعة عشر قرنا.. إن هناك من سيأتي ليضل عن سبيل الله.. ويتخذ من قضية خلق السماوات والأرض والإنسان مادة لهذا الضلال وكل ماسيقولونه هو غير الواقع .. وأنا أنبي من الآن ما سيقولونه بعد مئات.. أو ألوف السنين وأقول لكم إنه غير صحيح... أترى الإعجاز في استخدام الكفار لتثبيت قضية الإيمان في الكون...».

إنني لا أوافق فضيلته على تأويله.. فهل أراد الله سبحانه الذي يقول :

«قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق»

أن يوقعنا جل جلاله في مصيدة الكفر التي ينصبها لنا فضيلة الشيخ ـ وأن يثبت باستخدامنا نحن الكفار في رأي فضيلته ـ معجزة القرآن وإعجازه ألا

يعني قوله سبحانه انظروا كيف بدأ الخلق . ابحثوا كيف بدأ الخلق جميعه مخلوقاته جميعها نباته وحيوانه وإنسانه وكل ما يشمل من حياة ؟؟

لا يسعني الا أن أقول ما قاله فضيلته « كيف أترك من يعلم وأذهب إلى من لا يعلم وكيف أجادل فيما وضعه الخالق بما وضعه مخلوق » وأن أذكر قوله سبحانه وتعالى :

« أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا »

والآن ماذا يقول المفسرون في تفسير آيات الله التي ذكرناها في سورة الكهف :

« في تفسير الجلالين (قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) سجود انحناء لا وضع جبهة تحية له . وإبليس أبو الجن له ذرية ذكرت معه بعد. والملائكة لا ذرية لهم (ففسق عن أمر ربه) أي خرج عن طاعته بترك السجود . (أفتتخذونه وذريته) الخطاب لآدم وذريته (أولياء من دوني) تطيعونهم (وهم لكم عدو) أي أعداء حال (بئس للظالمين بدلا) أي إبليس وذريته في طاعتهم بدل إطاعة الله (ما أشهدتهم) أي ابليس وذريته (خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم) أي لم أحضر بعضهم خلق بعض (وما كنت متخذ المضلين) الشياطين (عضدا) أعوانا في الخلق فكيف تطيعونهم (ويوم) منصوب باذكر (ويقول) بالياء والنون (نادوا شركائي) الأوثان (الذين زعمتم) ليشفعوا لكم بزعمكم (فدعوهم فلم يستجيبوا) لم يجيبوهم (وجعلنا بينهم) بين الأوثان وعابديها (موبقا) واديا من أودية جهنم يهلكون فيه جميعا .

ويقول سيد قطب (في ظلال القرآن) :

« وهذه الإشارة إلى تلك القصة القديمة تجيء هنا للتعجب من أبناء آدم

الذين يتخذون ذرية إبليس أولياء من دون الله بعد ذلك العداء القديم واتخاذ إبليس وذريته أولياء يتمثل في تلبية ذواعي المعصية والتولي عن دواعي الطاعة ولماذا يتولون أعداءهم هؤلاء وليس لديهم علم ولا لهم قوة فالله لم يشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم فيطلعهم على غيبه والله لا يتخذهم عضدا فتكون لهم القوة :

« ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا »

إنما هم خلق من خلق الله لا يعلمون غيبه ولا يستعين بهم سبحانه « وما كنت متخذ المضلين عضدا » .. فهل يتخذ الله غير المضلين عضدا ؟ .. وتعالى الله الغني عن العالمين ذو القوة المتين ... إنما هو تعبير في مجاراة لأوهام المشركين لتتبعها واستئصالها . فالذين يتولون الشيطان ويشركون به مع الله إنما يسلكون هذا المسلك توهما منهم أن للشيطان علما خفيا وقوة خارقة والشيطان مضل والله يكره الضلال والمضلين .. فلو أنه على سبيل الفرض والجدل ـ كان متخذا له مساعدين لما اختارهم من المضلين وهذا هو الظل الذي يراد أن يلقيه التعبير» .

وفي تفسير ابن كثير : يقول تعالى منبها بني آدم على عداوة إبليس لهم ولأبيهم من قبلهم ومقرعا لمن اتبعه منهم وخالف خالقه ومولاه وهو الذي أنشأه وابتدأه وبألطافه رزقه وغذاه ثم بعد هذا كله وَالىَ إبليس وعادى الله . وقوله ففسق عن أمر ربه أي فخرج عن طاعة الله فإن الفسق هو الخروج .. أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني «الآية» أي بدلا عني ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » يقول تعالى هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم لا يملكون شيئا ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا كانوا إذذاك موجودين. يقول تعالى أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها

ومقدرها وحدي ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير..
ولهذا قال « وما كنت متخذ المضلين عضدا » .. قال مالك أعوانا .

ويقول الدكتور محمد عبد المنعم الجمال (التفسير الفريد) « واذكر أيها الرسول وقت قولنا للملائكة انحنوا متطامنين تحية وتكريما لآدم واعترافا بقدره واعتذارا عما قالوه في شأنه أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء فسجد الملائكة إلا إبليس فإنه أبى ولم يطع أوامر ربه استعلاء وكبرياء ذلك لأنه كان من الجن الأشقياء فخرج عن طاعة الله ولم يمتثل إلى أمر ربه وخالقه ثم اتجه الخطاب إلى الكفار والمتبعين للشيطان في استفهام إنكارى « توبيخي » : أتتخذونه وذريته نصراء من دوني والحال أنهم لكم عدو بئس البدل إبليس وذريته للظالمين لقد استبدلوا طاعة ابليس بطاعة الله فبئس البدل الذي اختاروه .

ما أحضرت لإبليس ولا ذريته بل ما أطلعت أحدا على خلق السماوات والأرض ولا أحضرت بعضهم وأريته خلق الآخرين وما استشرتهم وما كنت أبدا متخذ الذين يضلون غيرهم معاضدين ومعاونين ومناصرين فكيف يتخذهم المشركون أولياء وأعوانا لهم من دوني ويشركونهم معي في العبادة .

واذكر يوم يقول الله للمشركين زجرا وتقريعا :

« نادوا آلهتكم الذين زعمتم شركائي وأنهم يشفعون لكم عندي فدعوهم ونادوهم ليشفعوا لهم فلم يستمعوا لندائهم ولم يستجيبوا لطلبهم ذلك لأنا جعلنا بين الكافرين والأصنام واديا من أودية جهنم يهلكون فيه أو حاجزا يحجز هؤلاء عن أولئك » .

وأود أن أضيف إلى ما قاله المفسرون لتلك الآيات البينات .. أربع نقاط :

النقطة الأولى : هي أن آدم أبانا نحن الآدميين قد خلق بعد الملائكة والجان وبعد إبليس أبي الشياطين حيث يقول سبحانه :

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم * وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإٍ مسنون » (الحجر 26 ـ 33) .

من أجل ذلك يخاطبنا نحن أبناء آدم فيقول عن إبليس وذريته :

« ما أشهدتّهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا » لكي يؤكد لنا أن هؤلاء الذين خلقوا قبلنا من الشياطين لم يطلعهم الله على خلق السماوات والأرض بجميع ما فيها ولا خلق أنفسهم ولا أشركهم سبحانه الفرد الصمد في شيء حتى نشرك بالله أحدا منهم أو نتخذهم أولياء من دونه .

والنقطة الثانية : إن الله سبحانه حين تحدث عن أولئك الظالمين من البشر الذين يتخذون إبليس وذريته أولياء من دونه قد وجه الحديث إليهم بصيغة المخاطب قائلا « أفتتخذونه وذريته » « وهم لكم عدو » ولم يتحدث عنهم بصيغة الغائب قائلا أفيتخذونه وذريته وهم لهم عدو . فيكون في قوله بعد ذلك « ما أشهدتّهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً » إشارة خفية بأنه يقصد الظالمين أو المضلين من البشر كما أنه من الواضح أن الله سبحانه حين يقول « بئس للظالمين بدلا » ما أشهدتّهم خلق السماوات » أن هاء الغائب في قوله سبحانه ما أشهدتّهم تعود على كلمة بدلا ولا تعود على الظالمين أي تعود على إبليس وذريته وليس على الظالمين من البشر. ذلك بالإضافة إلى أنه إذا كان المولى سبحانه يقصد

أولئك الظالمين المضلين من البشر (كما يقول فضيلة الشيخ الشعراوي) لاستأنف الحديث بصيغة المخاطب قائلا ما أشهدتكم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسكم وما كنت متخذ المضلين عضدا.

والنقطة الثالثة : هي أن عدم مشاهدة أى من البشر خلق السماوات والأرض أو خلق أنفسهم ، أو الاشتراك في ذلك أمر بدهي لم يدع ولن يدعي أحد عكسه حتّى ولو كان من المضلين مما يوضح أن المولى سبحانه حين يقول « وما كنتُ متخذ المضلين عضدا » بعد قوله « ما أشهدتّهم خلق السماوات والأرض » فإنما يقصد إبليس وذريته.

أما النقطة الرابعة : فهي أننا لو قبلنا تأويل فضيلة الشيخ الشعراوي بأن الله سبحانه وتعالى يقول إن هناك من المضلين من البشر من سيأتون ويحدثونكم عن خلق الإنسان فلا تصدقوهم لأنني لم أشهدهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم .. لو قبلنا ذلك لأعطينا لمن ينكرون وجود الله سبحانه وتعالى سيفا قاطعا بتاراوسهما نافذا قتالا يحاجون به . إن معنَى ذلك أن الله سبحانه وتعالى « يخاطبنا بقوله لكي تصدقوا شيئا لا بد لكم أن تروه أو يراه أحدكم رأي العين فلا تصدقوا هؤلاء المضلين الذين يحدثونكم عن الخلق لأنهم لم يروا خلق أنفسهم فما بالك بالمولى سبحانه وتعالى الذي لم يره ولن يراه أحد منا في هذه الدنيا إلى يوم الدين إن معنَى ذلك هو أن يدعونا الملحدون بأن نوافقهم على عقيدتّهم بعدم وجود الله طالما لم يره أحد مستندين في ذلك بالقياس إلى قول إمام من أئمة المفسرين.

لكل ذلك لا أوافق فضيلة الشيخ الشعراوي على تفسيره وأقول كما يقول باقي المفسرين إن المولى سبحانه حين يقول

« ما أشهدتّهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم »

وفي قوله

« وما كنت متخذ المضلين عضدا »

فإنما يقصد إبليس وذريته الذين يتخذهم الظالمون أولياء من دون الله ولا يقصد الظالمين أو المضلين من البشر أو المتحدثين عن نظرية الصدفة أو داروين أو غيره من الباحثين في الخلق .. بل أن المولى سبحانه وتعالى يقول أيضا في نفس المجال :

« قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير » (سبأ 22) .

والآن اسمحوا لي أن أتساءل كأحد المشتغلين بالعلوم ... لماذا يحاول أغلب رجال الدين سواء المسلمين أم غيرهم أن يلصقوا تهمة الكفر أو الإلحاد بمن يحاول تفسير وجود آدم والإنسان بغير ما يقولون ، ربما كان السبب في ذلك أن الملحدين قد وجدوا فرصة ذهبية بإلقاء الظلال والشكوك في نفوس الآخرين وإيهامهم أن ما يقول به داروين عن التطور فيه انتفاء لوجود الخالق في حين أن داروين نفسه (الإنسان في القرآن . عباس محمود العقاد) قد كتب في سنة 1897 إلى الأستاذ « فرديس » صاحب كتاب « صور من الشكوك » يقول جوابا على سؤاله : إنني في أشد أحوال التردد لم أكن قط ملحدا إذا كان معنى الإلحاد انكار وجود الله « كما يقول العقاد في نفس الكتاب « إن مذهب التطور أيا كان تفسير القائلين به لنشأة الأنواع ليس فيه ما يصح أن يستند إليه الملحدون لإبطال الدين أو إنكار الخالق أو القول بخلو الكون من دلائل القصد والتدبير » .

كما جاء أيضا « وكان داروين على تردده في مسائل الغيب يشعر بقداسة الدين ويحرص على رعاية شعور المتدينين ولا يرتضي من العلماء أن يقحموا مذاهبهم على ضمائر الناس فيما اطمأنوا إليه من عقائدهم الروحية . فلما أراد كارل ماركس أن يهدي إليه كتابه عن رأس المال كتب إليه معتذرا وقال في

رسالة محفوظة الآن بمعهد كارل ماركس وانجلز في موسكو : « إنني أشكر لك رسالتك الودية. وأفضل أن يكون هذا الجزء من الكتاب غير مهدى إلي مع شكري لهذه التحية إذ كان إهداؤه إليّ يتضمن على وجه من الوجوه اقراري لما في سائر الكتاب الذي لا علم لي به وإنني مع غيرتي على الدعوة إلى حرية الفكر في جميع المسائل ـ أرى صوابا أو خطأ ـ أن المناقشات المباشرة التي تناقض المسيحية والإيمان بوجود الله قلما يكون لها أثر على جمهرة الناس وأن خير وسيلة لتحقيق الحرية الفكرية أن تتقدم العقول تبعا لتقدم العلوم. ولهذا أراني أتجنب الكتابة في أمور الدين وأقصر كتابتي على المباحث العلمية » .

كما جاء«ويكثر بين العلماء الطبيعيين من يعتبرون التطور دليلا على النظام دليلا على وجود الخالق ومنهم أعضاء في مجمع العلوم الملكي كالأستاذ « جلادستون » الذي يقول «كثير منا نحن المسيحيين من رجال العلم من يدركون أن هناك وحدة في النظام ووحدة في الغاية تبدوان من خلال النظر إلى خلائق الله .. ونحن ندين بأن مذهب داروين عن بقاء الأنسب لا يبطل فكرة التدبير الإلهي أو فكرة النظام المقصود .. بل يؤكد هذه الفكرة ويمهد لنا سبيل النظر إلى الوسائل التي اختارتها العناية الإلهية لتدبير مقاصدها منذ القدم فنرى أنها نتيجة قانون منتظم وليست مجرد سلسلة من المفاجآت المتفرقة » .

وجاء في نفس الكتاب « لكن الرأي الأخير الغالب على علماء اللاهوت المسيحيين أن معارضة الرؤساء من رجال الدين لمذهب التطور عند إعلانه قبل مائة سنة لم يكن من سداد الرأى في شيء وأن هذه المعارضة ينبغي أن تحسب على أصحابها ولا تحسب على الديانة المسيحية التي لا تأبى التفسير على وجه موافق لمذهب التطور على أقواله المتعددة . ويعبر عن هذا الرأي-في كتاب مؤلف لهذا الغرض-عالم من أكبر علماء

الرياضة وعلماء اللاهوت المعاصرين وهو الأستاذ كولسون عضو مجمع العلوم الملكي وصاحب كتاب « العلوم والعقيدة المسيحية » ومدار الرأي فيه كله على هذه الفكرة سواء فيما يرجع إلى مذهب التطور أو إلى غيره من مذاهب العلم الحديث » .

وبعد فقد سقت هذه الأحاديث جميعها لكي أناشد رجال الدين مسلمين ومسيحيين ويهود ومن يدينون بغير ذلك ألا يقرنوا في أحاديثهم دائما بين التطور والإلحاد وألا يوصموا على الدوام من ينادون بالاقتناع بالتطور في خلق الله سبحانه لمخلوقاته بتهمتي الكفر والإلحاد فالكافرون والملحدون لم يكونوا في حاجة إلى داروين لكي يبدأوا كفرهم أو إلحادهم أو ليثبتوا ذلك الكفر والإلحاد .

« من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى » (الإسراء 15) .

أنـــا ... وكبريائـــي

لازال صوت المعترضين عاليا صاخبا كيف نقبل الرأى بأن الإنسان حلقة متطورة أخيرة في سلسلة تعود بنا إلى الوراء إلى الحيوان الأعجم . ألم يخلق الله سبحانه وتعالى آدم بيديه إذ يقول :

« قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ أستكبرت أم كنت من العالين » (ص 75)

ألا يعني ذلك انفصال آدم عن غيره من الخلق بما فيهم سـائر الحيوان .. كما يعني خطأ ما تزعم ويزعم غيرك ممن تشايعهم في الرأي .

وأقول هل آدم فقط هو الذي نص الله سبحانه على خلقه بيديه دون سائر الحيوان ألا يقول أيضا :

« أو لم يروا أنّا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون » (يس 71)

إن رجال العلوم حينما قسموا الكائنات الحية إلى نبات وحيوان قد وضعوا ضمن الحيوان ما يزحف وما يمشي في الأرض وما يطير في السماء .. وقد وضع الإنسان ضمن ما يمشي منها في الأرض .. فهل اختلف ذلك عما جاء في كتاب الله الكريم ؟

نجيب كلا .. لقد جاءت كلمتا دابة ودواب مساويتين لكلمة حيوان بما يشمله من إنسان إذ يقول جل علاه :

« وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة » (البقرة 164)

« وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » (هود 6)

« ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » (هود 56)

« ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة » (النحل 49)

« وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وبث فيها من كل دابة » (لقمان 10)

« ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة » (الشورى 29)

« والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع » (النور 45)

قد يجادل مجادل بأن كلمة دابة في الآيات السابقة لا تشمل الإنسان فنقول بل تشمله ودليل ذلك قوله سبحانه :

« ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة » (النحل 61)

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » (فاطر 45)

فمن تلك الآيتين نرى أن الله سبحانه قد نص على وضع الناس ضمن الدواب كما أنه سبحانه قد أوضح في آيات أخرى أن الإنسان شأنه شأن غيره من الأنعام والدواب :

« وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » (الأنعام 38)

« وكأى من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » (العنكبوت 60)

« وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » (الجاثية 4)

« ألم تــر أن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس » (الحج 18)

« ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه » (فاطر 28)

وإذ يقول الحق سبحانه :

« وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع » (الأنعام 98)

فإنه يقول أيضا :

« وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها » (هود 6)

بل وأكثر من ذلك .. نرى أن العلي القدير قد وضع بعض الناس في مرتبة دنيا من الدواب إذ يقول سبحانه :

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (الأنفال 22)

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » (الأنفال 55)

ولا ينكر أحد أن الدواب المذكورة هم من الناس إذ أن غيرهم يسجدون جميعا للرحمن ويسبّحون بحمده .. كما يتضح لنا من الآيتين السابقتين (18 من سورة الحج) ، (49 من سورة النحل) وكما جاء في قوله أيضا :

« ألم تــر أن الله يسبح له من في السماوات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه » (النور 41)

« تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا

يسبح بحمده » (الإسراء 44)

لا يزال الكثير يعترضون قائلين لقد خلقنا الله تعالى في أحسن صورة فكيف تريد أن تربطنا بما خلق من بهائم وأنعام .. أليس الخالق المبدع يقول :

« وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير » (التغابن 3) .

« وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات » (غافر 64) .

« لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » (التين 4)

فأقول إن الله سبحانه وتعالى لم يحسن صورتنا نحن فحسب ولكنه تبارك فقد أحسن خلق جميع مخلوقاته .. وفي ذلك يقول :

« الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين » (السجدة 7)

أما قوله سبحانه « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » فدعونا نتمعن سويا في ذلك القول وفيما يعنيه .

لقد جاء في معجم ألفاظ القرآن الكريم :

التقويم .. يعني التعديل فهو مصدر قوم الشيء بمعنَى عدله وأزال ما فيه من عوج أو التواء .

في أحسن تقويم .. أي في حالة هي أحسن حالات التعديل والتهذيب فقد خصه الله تعالى بانتصاب القامة ومتانة الأعصاب وجودة التفكير وحسن البيان وقوة الإرادة وغير ذلك من صفات الإنسان المحمودة .

وجاء في تفسير أبي السعود :

أحسن تقويم .. أي كائنا في أحسن ما يكون من التقويم والتعديل صورة ومعنَى .

وجاء في ظلال القرآن :

حسن التقويم وحسن التعديل .

وفي الجلالين :

أحسن تقويم .. أي تعديل لصورته .

وفي الطبري :

قال بعضهم معناه أعدل خلق وأحسن صورة ، وقال آخرون قيل ذلك لأنه ليس شيء من الحيوان إلا وهو منكب على وجهه غير الإنسان ـ خلق كل شيء منكبا على وجهه إلا الإنسان .

وأولى الأقوال بالصواب أن يقال إن معنى ذلك فقد خلقنا الانسان في أحسن صورة وأعدلها لأن قوله أحسن تقويم إنما هو نعت لمحذوف وهو في تقويم أحسن تقويم .

وبعد أن استمعنا إلى هؤلاء المفسرين بأن الله سبحانه وتعالى حين خلق الإنسان قد خلقه في أحسن تعديل ألا يعني ذلك أن خلق الإنسان كان تعديلا من العلي القدير لمخلوقات تسبقه .. وإذا .. ما جاء في الطبري أن كل شيء قد خلقه الله منكبا على وجهه إلا الإنسان وأن هذا الإنسان قد خلقه الله في أحسن تعديل ... أفلا يتفق ذلك مع ما يقوله رجال العلوم بأن الانسان قد جاء تطويرا لمخلوقات سابقة . بل وأكثر من ذلك ما جاء في الطبري أيضا في تعديل أحسن تعديل . أي أن هناك سلسلة من التعديلات أحسنها الإنسان . فماذا يقول رجال العلوم في ذلك أيضا ... إنهم يقولون إن الإنسان آخر الرئيسيات في ذوات الأثداء التي تشمل النسانيس والقردة والقردة العليا ، فإذا نظرنا إلى النسانيس والقردة نجد أنها جميعها منكبة تماما على وجهها وفي ذلك تتساوى يداها في الطول مع رجليها أما القردة العليا (وهي من الأناسيّ) فنجد أنها قد بدأت تنتصب

في قامتها ولذلك نرى أن يديها أطول كثيرا من رجليها مما يجعلها أقل انكبابا على وجهها ويأتي الإنسان البشر في آخر المطاف بيدين أقصر من الرجلين وبانتصاب تام في قامته متطورا عن أنواع أخرى تسبقه من الانسان قامتها أقل انتصابا .

الآن وبعد أن تأكد للعلماء أن ما عثر عليه من حفريات للإنسان السابق للبشر توضح أن اعتدال قامته كان يحدث على خطوات .. أفلا يتفق ذلك مع ما جاء في الطبري بأن الإنسان قد خلق بتعديل أحسن تعديل ألا يقول الخالق جل شأنه أيضا :

« مالكم لا ترجون لله وقارا * وقد خلقكم أطوارا »
(نوح 13 ، 14)

إن ما يقوله المفسرون بأن تلك الأطوار هي أطوار الجنين في داخل الرحم ما هو إلا جزء يسير من جوانب تلك الآية الكريمة التي يخاطب بها نوح قومه من الكافرين الذين يرفضون الاستماع إليه واضعين أصابعهم في أذانهم مصرين مستنكرين استكبارا . أن يقال لمثل هؤلاء الكافرين إنهم كانوا نطفة فعلقة فمضغة إلى غير ذلك حتى أخرجهم الله طفلا لا يقاس بتذكيرهم بأنهم كانوا كائنات دنيئة ثم تولاهم الله برعايته بتطويرهم إلى كائنات أكثر رقيا إلى أن أكرمهم الله بصورتهم الآدمية بعد أن مروا في طريق طويل في أطوار حيوانية شتى .

لا يزال البعض يقول إن الله سبحانه قد كرم آدم وبنيه على باقي المخلوقات وفي ذلك يقول :

« ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » (الإسراء 70)

أفلا يعني ذلك أنهم قد خلقوا منفصلين عن غيرهم وردا على ذلك أقول إن الله سبحانه قد كرم آدم وبنيه بأن أنهى جميع أسلافه من الإنسان

والناس غير البشريين فكما ذكرت يقول العلماء إنه لا يوجد في الأرض الآن من جنس الإنسان سوانا نحن البشر بل لا يوجد من فصيلة الناس أي جنس آخر فنحن البشر نمثل النوع والجنس والفصيلة وبعبارة أخرى نقول : نحن البشر هم نحن الإنسان وهم نحن الناس[1]

والآن يا عزيزي القارىء هل أصبت بخيبة أمل إذ عرفت أنك من الحيوان وأن أباك آدم لم يخلقه الله بطريقة خاصة مختلفة عما عداه .. أنا شخصيا لم يعترني هذا الخاطر ولم يخدش كبريائي ... ماذا يضيرني أن أعرف أن رابطة ما تربطني بالقطط والكلاب وأن صلة أشد تربطني وتصلني بالقردة والنسانيس هل يضير الأسد أنه ينتمي مع الكلب إلى رتبة واحدة وهل يتوارى النمر خجلا عند معرفته أنه والقط من أقرب الأقرباء .. إنني على العكس من ذلك أحمد الله أن خلقني كسائر المخلوقات من تراب وأنبتني من الأرض نباتا ثم أنشأني كأي دابة من الدواب خلقا بعد خلق وطورا بعد طور وجيلا بعد جيل إلى أن كرمني عز وجل بصورتي الحالية .

ان صلتي بالتراب هي أساس معرفتي بمكونات جسمي .. وانتمائي إلى النبات والحيوان هو أساس حصولي على غذائي وملبسي فهي جميعا ليست غريبة عن أنسجتي وخلاياي . بل أن تقدمي في المعرفة والكشف عن أسرار حياتي وتكويني ووظائف أجهزتي وأعضائي لم يأت إلا عن طريق دراسة تلك الكائنات وتشريحها . إن معرفتي بكيفية وراثة صفاتي عن ابائي وأجدادي وطريقة إعطاء تلك الصفات إلى أبنائي وأحفادي كان أساسه نبات البازلاء .. ثم تقدمت تلك المعرفة تقدما مذهلا عن طريق الذباب .

---

(1) وذلك بعكس الحيوان إذ يوجد من الفصيلة الواحدة (سواء في البرأم في البحر) أجناس متعددة ومن الجنس الواحد أنواع كثيرة. وكما سبق أن ذكرت فإن أقرب أقرباء الإنسان الذين يعيشون حاليا هم القردة العليا وهم ليسوا ناسا بل فصيلة أخرى غير فصيلة الناس ولكنهم يقعون معهم في فوق فصيلة واحدة هي الأناسي .

ان التوصل إلى الدواء لعلاج أسقامي كان أساسه طبيعتي النباتية ، كما أن دراستي لآثار السموم وتقدمي المذهل في الطب والجراحة تعتمد كلية على حيوان التجارب وعلى سبيل المثال فإن حيوان الأرماديللوسيكون بإذن الله كما يقول العلماء هو المفتاح لعلاج مرض الجذام .. كما يسعَى الباحثون لإنتاج صمامات القلب من أنسجة الحيوان . ومن يدري ربما في القريب العاجل سنرى ورشا ومصانع لقطع غيار آدمية مادتها من أعضاء الحيوان عندئذ أجد مبررا لنفسي أمام ضميري الملح أنني من الحيوان آخذ من نفسي لنفسي . آخذ من ماضي إلى حاضري ومستقبلي .

وبعد كيف نوفق بين ما توصل إليه رجال العلم في خلق الإنسان وبين ما تعارفنا عليه طيلة هذه القرون في تفسير الآيات التي وردت في كتاب الله الكريم في هذا الشأن حينئذ نجيب بما سبق أن قاله فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي : « الإعجاز في القرآن الكريم هو إعجاز دائم .. أي أن القرآن معجزة يوم أنزل معجزة في هذا العصر ومعجزة في العصور القادمة إلى أن تقوم الساعة ذلك أن إعجاز القرآن إعجاز متجدد وعطاؤه هو عطاء لكل جيل عطاء مختلف عن الجيل الذي سبقه . تلك حقيقة هامة لا بد أن نعيها حينما نتحدث عن إعجاز القرآن الكريم . والقرآن لا يفسر بمعنًى أنه لا يمكن لأحد أن يفسر القرآن . بل هي خواطر إيمانية لكل مجتهد حول القرآن الكريم . ذلك أن التفسير الكامل للقرآن لا يعلمه إلا الله وإنما خواطر القلب المؤمن هي التي يمكن أن نسجلها حول آيات القرآن الكريم ... وحتّى يظل القرآن معجزة حتّى قيام الساعة وضع الله فيه من أسرار الوجود ليعطي عطاء جديدا لكل جيل وهكذا يبقَى العطاء مستمرا والمعجزة قائمة ...

ولكن إعجاز القرآن لا يقف عند هذا الحد ، حد مخاطبة كل العقول في وقت واحد ولكنه يتجاوزه إلى وضع الآية القرآنية في ألفاظ تتمشّى مع

الزمن كل الزمن . بحيث كلما تطور العلم وجدنا النص مطابقا للحقيقة وأكثر فهما للعقل .. ولنضرب مثلا على ذلك قول الله سبحانه وتعالى « والأرض مددناها » أي بسطناها .. يوم نزلت هذه الآية الكريمة لم يكن هناك علم لدى البشر بكروية الأرض ولذلك لم يكن هناك تصادم بين ألفاظ القرآن وواقع المشاهدة . ذلك أن من يقرأ قول الله تعالى « والأرض مددناها » ويرى الأرض مسوطة أمامه لا يحس أن هناك تعارضا في القرآن الكريم وما تشاهده العين . ثم يتطور العلم ونعرف أن الأرض كروية لو كان هذا كلام بشر لكان هناك تعارض ولكنه كلام الله لا يتغير ولا يتبدل مهما تبدلت الحقائق .. ونأتي للآية الكريمة « والأرض مددناها » أي بسطناها لنجد أنها هي التي دلت على أن الأرض في ظاهرها مبسوطة قد قدمت الدليل القاطع على كروية الأرض . كيف ذلك إن معنَى مددناها أي بسطناها أنك أينما تذهب وإلى أي مكان وصلت على سطح الأرض تجدها مبسوطة أمامك وهذا لا يتأتي إلا إذا كانت الأرض كروية ... وهذا الاعجاز في اللفظ والمعنَى جعل الآية صادقة في كل زمان متمشية مع تطور العقل البشري ، لتقديم الدليل في كل عصر على إعجاز القرآن » .

والآن .. نعود إلى آدم عليه السلام وقصة خلق البشر أجمعين .. يقول المولى سبحانه :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها »

لقد نزلت تلك الآية الكريمة منذ ما يزيد عن ألف وأربعمائة عام لكي تخاطب الناس الذين يرون في مظهرهم وفي مخبرهم اختلافا كبيرا بين أنفسهم وبين سائر الحيوان . يخاطب الناس الذين يعتزون بقدرتهم التي سخرت لهم جميع المخلوقات ، يخاطب الناس الذين يعرفون أنهم رغم

ضعف أبدانهم الهزيلة قياسا بالحيوان فإنهم يمتلكون قوة العقل يسيطرون بها على هذا الكون ، يخاطب الناس الذين يقول لهم المولى جل وعلا إنهم خلفاؤه في الأرض ويطلب منهم أن يتصفوا بصفاته وأن يتحلوا بخلق القرآن . فإذا كان هؤلاء الناس لم تتقدم معرفتهم بعد عن أسرار خلق الحياة وأسرار خلق الأحياء وإذا كانت طبيعة الأمور تحتم أن يكون الإنسان شيئا مميزا عن الحيوان فهل مثل هؤلاء يمكن أن يتقبلوا أن يقال لهم إنكم نشأتم أو حتى أنكم على صلة قرابة بالحيوان ـ هنا معجزة القرآن أن يخاطبهم بأنهم خلقوا من نفس واحدة وأن يفسرها المفسرون على حسب معرفتهم المتاحة بأن تلك النفس الواحدة هي آدم وأن آدم خلقه الله سبحانه وتعالى بيديه :

« وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإٍ مسنون * فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين »

عند ذلك يفسر « بشر » بأنه آدم حيث يقول سبحانه :

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس » .

بذلك نقول إن أبانا آدم قد خلقه الله سبحانه دون سائر المخلوقات بيديه من طين أصبح صلصالا صوره الله على أحسن صورة ثم نفخ فيه من روحه .. ولكن ما بال أمنا حواء ؟؟ .

لقد خلقت هي الأخرى خلقا بعيدا عن مخلوقات الله فقد خلقت من ضلع آدم . ألا يقول المولى « وخلق منها زوجها »

هل أرضى الإنسان غروره ؟ هل ارتفع الإنسان بكبريائه عن باقي المخلوقات التي سخرها الله لخدمته ؟ نعم .

والآن وقد جاوزت البشرية مرحلة الطفولة الفكرية وعرفت أن قيمتها في الجوهر وليس في المظهر ...

الآن وقد رأينا أناسا لا يشرف الحيوان نفسه أن ينتموا اليه ..

فعلى سبيل المثال لم نر في حياتنا قطا يتمسح أو « يمسح جوخا » لأحد الذئاب أو كلبا يفسح الطريق وينبح معلنا قدوم أحد رؤسائه . لم نر أسدا لم يشتد عوده بعد يستحضر بعض الإناث من اللبؤات ليقدمها إلى ذوي النفوذ من الأسود . لم نر نمرا يجمع ويخزن كثيرا من الفرائس حتّى يرتفع ثمنها ويبيعها في السوق السوداء . لم نر حمارا أو بغلا يبني زريبة أو اسطبلا يتقاضى من بني جنسه « المقدم أو خلو الرجل » ويغش في البناء فينهار الاسطبل ويدفن تحته الحوامل والعجائز والصغار . بل إن الغريزة الجنسية التي كثيرا ما نلصقها بالحيوان ونسميها الغريزة الحيوانية لا يمارسها ذكور الحيوان (عدا القردة أقارب الإنسان) إلا في موسم معين من السنة ولا تمارسها الإناث إلا مرة واحدة حتّى تحمل . بل فلننظر إلى سلوك الحيوان في تناول غذائه ان الحيوان حتّى ولو كان أسدا لا يقتنص فريسته إلا إذا كان جائعا ولا يأكل منها أكثر من طاقته فيصاب بتخمة فيبحث عن طبيب يأمره بانقاص قناطير مقنطرة من وزنه الزائد من لحوم وشحوم اكتنزها في الوقت الذي يتضور أقرانه جوعا ـ بل أن الله سبحانه قد أودع في الحيوان صفاته الحيوانية التي يحافظ بها فقط على نوعه ، وعندما يعتدي على غيره في حدود وضعها سبحانه لصالح المعتدي والمعتدَى عليه لصالح الأول لكي يحافظ على نوعه ولصالح الثاني لكي لا يزداد عدده أكثر مما تحتمله الطبيعة فلا يجد هو نفسه ما يتغذى عليه . ميزان طبيعي وضعه سبحانه بين الكائنات من نبات وحيوان وفي ذلك يقول :

« إنّا كل شيء خلقناه بقدر » (القمر 49)

من كل ذلك نرى أن انتماء الإنسان للحيوان ليس مسبة ولا عارا . ونعود بعدئذ إلى كتاب الله الكريم نازعين عن أنفسنا كاهل الكبر ولباس الغرور مسلحين بما وصل إليه العلم من تقدم ومعرفة نعود إلى قوله تعالى :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها »

ونقول إذا كان المفسرون من رجال الذين أنفسهم قد فسروا كلمة النفس على أنها النوع أو الجنس في كثير من الآيات .. وعلى سبيل المثال قوله تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » فيفسره رجال الدين بأن ذلك يعني رسولا من جنسكم ونوعكم آدمي مثلكم ، عندئذ نقول كما قال فضيلة الشيخ الشعراوي ولكن إعجاز القرآن لا يقف عند هذا الحد عن مخاطبة كل العقول في وقت واحد ولكنه يتجاوزه إلى وضع الآية القرآنية في ألفاظ تتمشى مع الزمن كل الزمن بحيث كلما تطور العلم وجدنا النص مطابقا للحقيقة وأكثر فهما للعقل » .. عندئذ نقول إن المولى عندما يقول خلقكم من نفس واحدة فإنما يعني أنه خلقكم من نوع واحد وعندما يقول خلق منها زوجها فإنما يعني خلق الزوجة من نفس النوع الذي خلق منه الزوج. ولا يعني ما كنا نعتقده في الماضي السابق وما لا يزال تعتقده الغالبية العظمى منا . ولا يعني أنه في تلك الآية بالذات خلقنا من نفس واحدة هي آدم كما خلق منها أي من آدم خلق حواء .

واذا كنتم أيها المعترضون لازلتم في ريب مما أقول وما يؤيد ما ينادي به علماء اليوم أرجو أن تعودوا إلى قراءة هذا الكتاب وأن تعطونا تفسيرا مقنعا لكثير من الآيات :

« قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » (البقرة 30)

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » (الإنسان 1)

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (العنكبوت 20)

نريد تفسيرا لا يتعارض مع الترتيب الزمني في قوله سبحانه :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » (الأعراف 11)

« وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه » (السجدة 7 ـ 9)

نقول لكم إذا كنتم تفسرون كلمة الإنسان في الآيات الآتية على أنها آدم :

« خلق الإنسان من صلصال كالفخار » (الرحمن 11)

« ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون » (الحجر 26)

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » (الانسان 1)

فلماذا لا تفسرون كلمة الإنسان على أنها آدم أيضا في الآيات الآتية :

« أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة » (يس 77)

« إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » (الإنسان 2)

علما بأن تلك الآية الأخيرة تأتي مباشرة في نفس سورة الإنسان بعد قوله تعالى :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر »

أي أنكم تفسرون كلمة الإنسان الأولى بأنها آدم والثانية بأنها الإنسان (التالي لآدم) . نقول إذا كنتم تفسرون كلمة الإنسان مرة على أنها آدم ومرة على أنها الإنسان ألا يعتبر تفسيركم تفسيرا متكلفا وهو نفس الوصف الذي يقوله فضيلة الشيخ محمود شلتوت عمن يحاول تفسير القرآن تفسيرا علميا .

بل دعونا نمشي معا إلى آخر الشوط ونهاية المطاف إذ ربما يقول قائل إن الكلمة الواحدة يصح أن يكون لها أكثر من معنى حسب موضعها .
إذن دعونا نستمع معا إلى قوله تعالى :

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين » (المؤمنون 12)

أليس معنَى تلك الآية الكريمة أن هذا الإنسان ـ سواءهو آدم أو هو الإنسان عامة ـ هذا الإنسان قد خلق من سلالة من طين أي أنه خلق عن أجداد وأجداد يعودون به إلى الوراء إلى الماضي البعيد إلى منشأ الحياة،إلى الطين بداية المخلوقات،فهل بعـد ذلك نجادل كما يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي فيما وضعه الخالق بما وضعه مخلوق ؟!!

والآن أيها الإنسان البشر يا ابن آدم يا من تسكن في الشرق أو في الغرب في الشمال أو في الجنوب.. إنني أدعوك سواءٌ أكنت عالما أم غير عالم قارئاً أم أميا عربيا أم أعجميا مؤمناً أم غير مؤمن مسلماً أم غير مسلم أسود أم أصفر أم أبيض... أدعوك سواء ما كنت وأينما كنت رجلا أنت أو امرأة أدعوك أن تطرح عنجهيتك جانبا وأن تخفض من كبريائك وأن تعطي غرورك إجازة قصيرة أو دائمة وتعود إلى الحق والرجوع إليه فضيلة وأن تعترف معي أنك حلقة أخيرة (حتّى الآن) في سلسلة من عالم الحيوان ولاتـك كبعـض الناس إذا منّ الله عليهم بمال وفير أو نفوذ كبير أو جاه عريض أو شهرة مدوية أو مركز مرموق عندئذ يتبرأون من آبائـهم أو يتنكرون لعائلاتهم ولا يتذكرون من أي أصل نبتوا ولا إلى من ينتمون .

أيها المسلم في مشارق الأرض ومغاربها تمسك بكتابك الكريم .. بقرآنك المجيد وأشهره كالسيف في وجه من يريدون أن يشدوك دائما إلى الوراء متخلفا عن ركب العلم ويقيدوك بسلاسل من تفسيرات عتيقة متوارثة وإذا كان لهم عذرهم بالأمس فاطلب منهم أن يعملوا الفكر فان التطور هو سنة الحياة .

أشهر كتابك كالسيف في وجه علماء اليوم وقل لهم إن ما نادى به زملاؤكم منذ قرن من الزمـان أو يزيد قد نزل به نبينا الكريم منذ ألف

وأربعمائة عام - أدعهم إلى الإيمان وقل لهم إذا كنتم لم تؤمنوا بالأمس بسبب ما نادى به لفيف من رجال الدين ، فآمنوا اليوم بالواحد الأحد.
آمنوا اليوم إذ لا انفصام بين العلم والدين ...

«وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم»

«صدق الله العليم الخبير»

المـــراجع العربيـــة

القـــرآن الكريـــم

الكتـــاب المقـــدس

أحاديـــث شريفـــة

تفاســـير القرآن الكريم

الإمامين الجلالين ـ الطبري ـ ـ الجواهر ـ ـ المنار ـ ـ ابن كثير ـ ـ محي الدين بن عربي ـ ـ عبد الله شد ـ ـ أبو السعـود ـ ـ التفسير الفريد (محمد عبد المنعم الجمال) المصحف المفسر (محمد فريد وجدي) ـ فهرس أوضح التفاسير (ابن الخطيب) الإتقان في علوم القرآن ـ التفسير الواضح (محمد محمـــود حجازي)

آرشي سي جرجور : الإنسان عبر التاريخ (ترجمة نور الدين الرزازي) مؤسسة سجل العرب **1978**.

توفيق الحكيـم : مختار تفسير القرطبي . الهيئة المصرية العامة للكتاب **1977** .

رالف ل . بيلز ، هاري هويجر : مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة (ترجمة محمد الجوهري ـ السيد محمد الحسيني) .
دار نهضة مصر للطبع والنشر **1976** .

سيـد قطـــب : في ظلال القرآن . دار إحياء التراث العربي . بيروت 1971 .

عباس محمود العقـــاد : الإنسان في القرآن . دار نهضة مصر للطبع والنشر. رقم الإيداع بدار الكتب (2468) .

عبد العزيـز طنطـاوي ، علي حامد محمد : أساسيات علم الوراثة . دار المعارف 1963 .

عبد الكريم الخطيب : الإنسان في القرآن من البداية إلى النهاية . دار الفكر العربي 1979 .

عبد الكريـم الخطيـب : قصتا آدم ويوسف عليهما السلام . دار الفكر العربي 1974 .

فؤاد خليل ، محمد رشاد الطوبي ، أحمد حماد الحسيني ، محمود حافظ : علم الحيوان العام . مكتبة الأنجلو المصرية 1976 .

محمد اسماعيل ابراهيم : معجم الألفاظ والأعلام القرآنية .

محمد حسين الذهبي : علم التفسير . كتابك . دار المعارف . رقم الإيداع (1977/4614) .

محمد متولي الشعراوي : يوميات جريدة الأخبار .

محمد متولي الشعراوي : آدم أبو البشر بين المعصية والرسالة . مؤسسة المصري للكتاب . دار الصفا للطباعة والنشر .

محمد متولي الشعراوي : معجزة القرآن . كتاب اليوم . رقم الإيداع بدار الكتب (81/3080 الترقيم الدولي ـ 8 ـ ـ 21 ـ ـ 27 ، 73 ـ 1977) .

محمد متولي الشعراوي : تفسير سورة البروج والطارق .

م . م . شريــــف : موسوعة النظم والحضارة الإسلامية (2) . الفكر الإسلامي منابعه وآثاره (ترجمة دكتور أحمد شلبي) . مكتبة النهضة المصرية . 1978

محمـــود شلبـي : حياة آدم . دار الجيل . بيــــروت 1974 .

محمود شلتــوت : تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) . دار الشروق 1979 .

مصطفَى محمود : لغز الحياة.دار النهضة العربية 1973 .

معجم ألفاظ القرآن الكريم : مجمع اللغة العربية 1970 .

موريـــس بوكـــاي : دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة . دار المعارف . لبنـــان 1976 .

نورمـــان بريــل : بزوغ العقل البشري (ترجمة اسماعيل حقي) . مكتبة نهضة مصر ومطبعتها 1964 .

الفهـــرس

المؤلـــف

مؤلف هذا الكتاب د. حسن حامد عطية ولد بمدينة طنطا (جمهورية مصر العربية) في 24 أكتوبر سنة 1919 . قضى فترة تعليمه الابتدائي بمدرسة القاصد الابتدائية وتعليمه الثانوي بمدرسة طنطا الثانوية ثم التحق بكلية الزراعة بالجامعة المصرية (حينذاك) وحصل على البكالوريوس في سنة 1939 .

التحق بعد تخرجه بوزارة الزراعة المصرية بقسم الحشـرات مشتغلا بالبحوث ثم سافر في بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية في سنة 1959 حيث حصل على الماجستير في علوم الحشرات من جامعة لويزيانا في سنة 1961 ثم على الدكتوراه في الفلسفة من نفس الجامعة في سنة 1963 ، وبعد عودته إلى الوطن استأنف عمله بالبحث في نفس المجال (الحشـرات) متدرّجاً في وظائفه إلى أن اختير في سنة 1975 مديرا لمعهد بحوث وقاية النباتات بمركز البحوث الزراعية بوزارة الزراعة .

سافر في إعارة إلى العراق الشقيق في سنة 1978 حيث عمل أستاذا للحشرات بكلية العلوم بجامعة السليمانية لمدّة سنتين .

يعمل الآن مستشاراً للبحوث بمركز البحوث الزراعـة .



الثمن : 4.700 د.ت